

فقه الأمثال القرآنيّة

د. خالد بن عبد العزيز الباتلي



نحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونشكره على ما أسدى من النعم، وأكرمنا به من المنن، ومنها: أن يسّر لنا هذا الاجتماع الطيّب في هذا المجلس المبارك، وسوف نتناول في هذه الدروس -بإذن الله- الكلام على الأمثال القرآنيّة، وهذا الموضوع من الأهمّيّة بمكان، فهو موضوعٌ قرآنيٌّ إيمانيٌّ تربويّ متعلِّقٌ **بعِلم التفسير** الذي هو من أشرف العلوم، ومتعلّقٌ أيضًا بجانب **تهذيب النفس وتزكيتها**؛ لأنّ الأمثال عِظاتٌ وعِبَر، وفيه أيضًا جوانب علميةٌ وتربويّةٌ؛ وهذه الأمثال هي كما قال -تعالى-: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}**[1]

◁ **والكلام سيكون -إن شاء الله- في جانبين:**

١- الجانب التأصيلي.

٢- الجانب التطبيقي.

أما **الجانب التأصيليّ** فنعني به تأصيل هذا النوع من علوم القرآن، فنؤَصِّل لهذا النوع، وسوف يكون الكلام -إن شاء الله- في هذا الجانب في خمسة مباحث (معنى المثَل والمراد به، منزلة الأمثال القرآنية، أنواع الأمثال القرآنية، فوائد الأمثال القرآنية، أشهر المؤلفات في الأمثال القرآنية).

بعد ذلك: إذا أتممنا هذه المقدمة التّأصيليّة، وأخذنا فكرة عن هذا الموضوع تأصيلًا وتنظيرًا؛ ننتقل ونلج -بعون الله- إلى **الجانب التطبيقي** وهو الأهم وهو المقصود أصالةً، وهو الكلام على الأمثال القرآنية التي وردت في القرآن من حيث تحليلها، وبيان معناها، وما انطوت عليه واشتملت عليه من الفوائد والعِبَر والعِظات والحجج وما إلى ذلك.

---

[1] [العنكبوت:٤٣]

((أوّلًا : الجانب التأصيليّ))

نبدأ على بركة الله بالجانب الأول -وهو الجانب التأصيلي- وسيتضمن -كما ذكرت- خمسة مباحث:

❖ **المبحث الأول: معنى المَثَل:** إذا قِيلَ "المثَل"؛ فهو يُطلق على عدّة أمور:

◁ **المعنى الأوّل: القول السائر الذي يُشبَّه مَضرِبهُ بمَورده:**

وهذا المعنى هو الذي يتكلّم عليه علماء البلاغة في علم البلاغة وتحديدًا: علم البيان، -لأنّ علم البلاغة يقوم على ثلاثة أنواع: البيان، والمعاني، والبديع- فمِن مباحث علم البيان: الكلام عن الأمثال (عن المثل، والحكمة، والفرق بين المثل والحكمة...).

فيعرّفون المثل بأنّه: "القول السائر.." (يعني: الذي سار بين الناس وصاروا يتمثّلون به).

- لكن **هل كلُّ قولٍ سائر مَثَل؟**

- لا، فالمثل هو القول السائر الذي يُشبَّه مَضرِبهُ بمَورده.

- **ما هو المضرِب وما هو المورد؟**

- **المَورِد:** هو المناسبة التي قيل فيها المثل ابتداءً، **والمَضرِب:** هو الحال الجديدة أو الموقف الجديد الذي يُشبَّه بالمناسبة التي قيل فيها المثل لأول مرة.

✷ **على سبيل المثال:** من أمثال العرب السائرة قولهم: **"الصَّيفَ ضيَّعتِ اللّبن"**، **وقصة هذا المثل:** أنّ امرأةً ذات جمال كانت عند شيخٍ كبير في السنّ، لكنه صاحب مالٍ من الإبل والغنم والخيل.. فكانت تتنعّم بأنواع النعم هذه من اللحم، واللبن، والسمن، والخيرات.. لكنها كرهته لأنه شيخٌ كبير وهي ما زالت في مقتبل العمر، فملَّتْ منه، وطلبت الفراق؛ فطلَّقها -وكان الطلاق في فصل الصيف-، ثمّ نكحت بعده شابًا وسيمًا ولكن ليس عنده مال، فلمّا تزوجَتْه ووجدت النضرة والجمال؛ فقدَت ما كانت فيه من الخير والنعمة والمال.. فأصابهم جَهد وجوع؛ فأرسلَت إلى زوجها الأول تطلب منه حلوبًا (لبنًا محلوبًا)، فلما طلبَت منه هذا الطلب قال: **"الصَّيفَ ضيَّعتِ اللَّبن"**، يعني أنتِ مَن طلبتِ الفراق.

ثمّ صار هذا مثلًا يُطلَق على من يطلب شيئًا فوَّته على نفسه، فكلُّ مَن كان في أمرٍ وفوّته على نفسه؛ يُقال له: "الصَّيفَ ضيَّعت اللَّبن".

يقول الميداني في "مجمع الأمثال": "المثلُ قولٌ سائر، يُشبّه به حالُ الثاني بالأول، والأصلُ فيه التشبيه، فحقيقةُ المَثَلِ ما جُعِلَ كالعَلَم للتشبيه بحال الأول، كقولِ كعب بن زهير:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مَثَلًا   وما مواعيدها إلا الأباطيلُ

فمواعيد عرقوب عَلَمٌ لكلِّ ما لا يصحّ من المواعيد" ا.هـ.

ومن أمثال العرب قولهم: "**بَلَغَ السَّيلُ الزُّبى**"، "**إنَّ وراء الأَكَمةِ ما وراءها**"، وقولهم: "**أعزُّ من بيضِ الأنوق**"... وغيرها.

وهذا نوع من أنواع البلاغة العربية –كما ذكرت–، اعتنى به أهلها؛ يقول ابن المقفع في كتابه "الأدب الصغير": "إذا جُعل الكلام مثلًا كان ذلك أوضح للمنطق، وأبيَن في المعنى، وآنق للسمعِ، وأوسع لشعوب الحديث".

وقال النَظَّام: "يجتمع في المثل أربعةٌ لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة".

وصُنِّفَ في هذا النّوع مصنفاتٌ من أحسنها: "مَجمع الأمثال" للميداني.

ثمّ إنّ الأمثال ليست مقصورة على العرب فقط، بل هناك أمثال أجنبيّة فكل الحضارات عندها أمثال، وهناك أمثال عامّيّة كذلك في الدول العربية؛ كالجزيرة ، مصر، الشام... والشيخ محمد بن ناصر العبودي الرحالة –رحمه الله– له كتاب: "الأمثال العامّية في نجد" استقصى فيه الأمثال الدارجة عند أهل نجد.

سؤال: هل في القرآن ما يندرج تحت هذا المعنى (الأول)؟

ذكر بعض الباحثين في هذا أنَّ من آيات القرآن ما يصحّ إدراجه تحت هذا النوع باعتبار: أنها على صورة المثل السائر الذي سار على الألسنة، فأصبحوا يتمثّلون به في الحالة التي تناسبه، لا على أنّ الله -جلّ وعلا- يتمثَّلُ بِقيلِ غيرهِ (بقول غيره)، فالله -تعالى- أعلى وأجلّ.

إذًا: نقول: **إن كان المقصود أن الله يتمثَّل بقول غيره فهذا بعيدٌ ولا يصحّ، فالله أعلى وأجلّ من أن يتمثّل بقول غيره، لكن ممكن أن يندرج هذا المعنى في آيات القرآن من جهة أنه وُجِد في بعض آيات القرآن ألفاظٌ سارت، فصار الناس يتمثلون بها**، مثل قولهم: {الآن حصحصَ الحقّ}[2] إذا مثلًا حدثت قضية معينة فيها لبس، ثم بعد فترة انكشف؛ قالوا: {الآن حصحصَ الحقّ}، ومثلًا: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}[3]، أو {ما على المحسنين من سبيل}[4]، {أليس الصبح بقريب}[5]، {وإن تعودوا نعُد}[6]..

هذه أخذها الناس، وصاروا يتمثلون بها في الوقائع التي تشبه أو تناسب هذه الألفاظ القرآنية.

- **لكن** هل يصحّ كونها أمثالًا قرآنية بالمعنى الاصطلاحي؟

- **لا، لا يصحّ كونها أمثالًا قرآنية بالمعنى الاصطلاحي للمَثَل القرآني.**

- **سؤال آخر (للفائدة):** هل يجوز التمثُّل بشيء من القرآن على هذا الوجه؟ مثل مَن يقابل شخصًا على غير ميعاد فيقول: {ثمّ جئتَ على قدرٍ يا موسى}[7]، أو: {ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد}[8]. فهل يجوز؟

- الجواب: الحقيقة أنّ البعض شدَّدَ في هذا، والبعض توسَّط، ولعلَّ التوسط أقرب؛ فيقال: **إذا تضمَّنَ التمثُّل محذورًا، أو أدى إلى محذور (مثل امتهان القرآن أو التقليل من شأنه) فيُمنَع، وإن لم يؤدِّ إلى شيء من الامتهان أو الانتقاص للقرآن فلا بأس.**

---

[2] [يوسف:٥١]
[3] [الرحمن:٦٠]
[4] [التوبة:٩١]
[5] [هود:٨١]
[6] [الأنفال:١٩]
[7] [طه:٤٠]
[8] [الأنفال:٤٢]

◁ **المعنى الثاني للمثَل: يأتي المثل بمعنى وصف الشيء:**

يعني حينما نقول: مَثَله كذا؛ أي: صفته كذا.

✮ وهذا المعنى ورد في القرآن، ومنه: قوله –تعالى–: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ...} الآية[9] أي: صفة الجنة.

✮ ومنه قوله: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ}[10] كيف نفهم هذه الآية؟

المقصود بالمثل هنا: الصفة، أي: الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها لهم الصفة القبيحة من الجهل والكفر والعناد، ولله الصفات العليا من الكمال والغنى ونحو ذلك.

✮ وأيضًا من أمثلة ورود هذا المعنى في القرآن قوله –تعالى–: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ...}[11] أي: صفتهم في التوراة.

✮ وقال –تعالى–: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا..}[12]

يعني: كيف ضربوا لك الصفات والأشباه (قالوا: ساحر، مجنون، شاعر..)

✮ وفي قوله –تعالى–: {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}[13]

اللؤلؤ المكنون واحد، لكن جاء الجمع (أمثال) مراعاة لتعدد الأوصاف، فيكون المثل: تشبيه الحور العين بأوصاف اللؤلؤ من صفاء اللون، والجمال، ونعومة الملمس.. ونحو ذلك.

◁ **المعنى الثالث: الـمَثَل يُطلَق بمعنى المِثل وهو النظير والشبيه:**

يقول الإمام الطبري –رحمه الله–: "والمَثَلُ: الشَّبَه، يقال: هذا مِثلُ هذا ومَثَله؛ كما يقال: شَبَهُهُ وشِبْهُه".

[9] [محمد : ١٥]
[10] [النحل : ٦٠]
[11] [الفتح : ٢٩]
[12] [الإسراء:٤٨]
[13] [الواقعة : ٢٢-٢٣]

وقال ابن القيم –رحمه الله–: "الأمثال في القرآن تشبيه شيء بشيءٍ في حُكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسَين من الآخر". فالمثَل هنا بمعنى النظير والشبيه.

وتأتي كلمة "مَثَل" مقرونةً بكاف التشبيه، وتأتي بدونها؛ كقوله –تعالى–: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ...}[14] وقوله: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...}[15]، وقال –تعالى–: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ..}[16]



التشبيه يقع في اللغة بثلاث صِيَغ:

– إما بالأسماء: مثل أن تقول: شبَه، أو مثَل، أو شبيه، أو مثيل... ونحوها.

(فلانٌ مثل كذا، هذه الشجرة شبهها كذا أو مَثَلها كذا).

– أو بالأفعال: يشبه، يماثل، يحاكي...

– أو بالحرف: الكاف (هذا كهذا).

◁ المعنى الرابع: تأتي لفظة "مَثَل" بمعنى المثال أو النموذج الذي يُعتَبَر به:

يقول الراغب الأصفهاني في كتابه "المفردات": "والمثال بمعنى مقابلة الشيء بالشيء: هو نظيره، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل".

⇧ وهذا الكلام يتضمّن معنيين:

- قوله: "مقابلة الشيء بالشيء: هو نظيره" هذا هو المعنى السابق (النظير والشبيه).
- وقوله: "وضع شيء ما ليُحتذى به فيما يفعل" هذا المعنى الآخر، وهو المراد هنا بمعنى: المثال والنموذج.

كقولنا: أيوب –عليه السلام– مَثَلٌ في الصبر على البلاء.

أو نقول: فرعون مثلٌ للطغيان والاستكبار.

[14] [البقرة: ١٧]
[15] [الجمعة: ٥]
[16] [هود: ٢٤]

ومن هذا قوله –تعالى–: {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ}[17] يعني: مثالًا وعبرة.

ومن شواهد هذا المعنى في القرآن أيضًا: قوله –تعالى–: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ..}[18]
إلى أن قال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...}[19]
ومنها قوله: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ..}[20]

وقوله: {وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}[21]
يعني: ومثلًا من أخبار الأمم السابقة المؤمنين والكافرين ليكون مثالًا وعبرةً لكم.

◁ **المعنى الخامس: يأتي المثل بمعنى الحجة والشاهد:**

قال –تعالى–: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...}[22]
{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[23]

وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} ثم ذكر الحجة بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ..}[24]

إذًا: هذه المعاني الخمسة للمَثَل.

---

[17] [الزخرف:٥٦]
[18] [التحريم : ١٠]
[19] [التحريم : ١١]
[20] [الكهف : ٣٢]
[21] [النور : ٣٤]
[22] [الإسراء : ٨٩]
[23] [الفرقان : ٣٣]
[24] [الحج:٧٣]

أيُّ هذه المعاني هو المقصود في هذه المُدارَسة؟

الجواب: **المعنى الثالث، والرابع.**

(الشبه والنظير، والمثال والنموذج)

وخرج بهذا: الأمثال التي هي بمعنى الوصف، والتي بمعنى الحجج والبراهين، والأمثال السائرة.

معنى: "**ضرب المثل**" باختصار: أي: صَوغهُ وإنشاؤه ونَصبه.

كما يقال: ضرب الخيمة: إذا أقامها ونصبها، وقد جاء لفظ اقتران الضرب بالمثل في ثلاثين موضعًا من القرآن تقريبًا.

❖ المبحث الثاني: منزلة الأمثال القرآنية:

أمثال القرآن مظهرٌ من مظاهر بلاغته وإعجازه، ودقة تصويره ونظمه، وهي أحد علوم القرآن -كما ذكرنا-، وقد أفردها العلماء في كتب علوم القرآن، وخصّوها بنوعٍ من علوم القرآن؛ فعل ذلك السيوطي في "الإتقان"، والزركشي في "البرهان" والزرقاني في "مناهل العرفان"، وغيرهم.

وذكر الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- أنّ أكثر أمثال القرآن مضروبة للقضايا الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة المتعلقة بأصول الدين، ولذلك اختصّ أهل العلم بفهمها وعقلها، كما قال -تعالى-: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[25]، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[26]، {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[27]

ولو لم يرِد إلا هذه الآيات الثلاث لكانت محركةً وباعثةً لنا إلى العناية بهذا العلم.

واللهُ جلَّ وعلا- لا يستحيي أن يضرب مثلًا مهما كان في صغره، فقد ضرب -سبحانه- مثلًا لآلهة المشركين الباطلة التي يتخذونها ويتعلقون بها ببيت العنكبوت، ووجه الشبه: الوهاء والضعف.

[25] [العنكبوت:٤٣]
[26] [الحشر : ٢١]
[27] [ابراهيم : ٢٥]

قال -تعالى-: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[28]

وضرب لعجز هذه الآلهة مثلًا بعجزهم عن خلق ذبابةٍ واحدة فكيف بخلق ما هو أكبر! بل هذه الآلهة لا تقدر أن تستخلص ما يسلبه الذباب منها، يعني ما يأخذه لا تستطيع أن تستنقذه وتأخذه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}[29]

فالعبرة إذًا في واقعية المثل، وصدق المثل؛ ولهذا أنكر الله على المشركين حين ضربوا للنبي ﷺ أمثالًا باطلة، ضربوا له أنه ساحر، كاهن، شاعر... فقال -جلّ وعلا-: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}[30]

ومن إشادة الله -تعالى- بكتابه أن ضمّنه هذه الأمثال الرفيعة في مبناها ومعناها؛ قال الله -تعالى-: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ}[31]، {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[32]

وأيضًا مما يدل على منزلة الأمثال أنها وسيلةٌ للتذكر والتفكر -كما ذكرنا في الآيتين الماضيتين-:

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[33]، {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[34]

فمن مواطن الوعظ والتذكير والتربية مخاطبة الناس بالأمثال القرآنية، وهذا الطرح قليل فيما نسمع؛ فقلَّ أن نسمع خطبةً عن مثل، أو موعظة أو كلمةً عن مثل من الأمثال القرآنية؛ تبيِّن معناه، وهدايته، وما انطوى عليه من الفوائد والعبر.

[28] [العنكبوت : ٤١]
[29] [الحج : ٧٣]
[30] [الإسراء : ٤٨]
[31] [الكهف : ٥٤]
[32] [الرعد : ١٧]
[33] [الحشر : ٢١]
[34] [ابراهيم : ٢٥]

وجاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ أنّ النبيّ ﷺ قال: "كان الكِتابُ الأوَّلُ ينزِلُ مِن بابٍ واحدٍ، وعلى حرفٍ واحدٍ، ونزَل القُرآنُ مِن سبعةِ أبوابٍ على سبعةِ أحرُفٍ: زاجِرٍ وآمِرٍ، وحلالٍ وحرامٍ، ومُحكَمٍ ومُتشابِهٍ، وأمثالٍ؛ فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، وافعَلوا ما أُمِرْتُم به، وانتَهُوا عمَّا نُهِيتم عنه، واعتَبِروا بأمثالِه، واعمَلوا بمُحكَمِه، وآمِنوا بمُتشابِهِه، وقولوا: آمَنَّا به كلٌّ مِن عندِ ربِّنا"[٣٥]

فالنبي ﷺ في هذا الحديث يبيّن ما هو الموقف مما نزل من القرآن، وقال: "واعتَبِروا بأمثالِه".

يقول عمر بن مرة –رحمه الله–: "ما مررتُ بآيةٍ في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني؛ لأني سمعتُ الله –تعالى– يقول: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}".

وقال ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "مفتاح دار السعادة": "وفي القرآن بضعة وأربعون مَثَلًا، وكان بعض السَّلَف إذا مرَّ بمثَلٍ لا يفهمه يبكي ويقول: لستُ من العالمين".

وذكر الزركشي –رحمه الله– في كتابه "البرهان في علوم القرآن" أن الإمام الشافعي –رحمه الله– عدَّ هذا النوع (معرفة أمثال القرآن) مما يجب على المجتهد من علوم القرآن، قال: "ثمّ معرفة ما ضُربَ فيه من الأمثال الدوالّ على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته".

ونقل السيوطي –رحمه الله– في "الإتقان" عن الماورديّ أنه قال: "من أعظم علم القرآن: علمُ أمثاله، والناس في غفلةٍ عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم المُمَثَّلات، والمثل بلا مُمَثَّل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام".

هذه النصوص السابقة وغيرها تدل على منزلة أمثال القرآن، وهذا مما يدعونا، ويحفزنا، ويحمّسنا إلى دراسة هذه الأمثال وتفقُّهها ومعرفة ما انطوت عليه من المعاني والعبر والعظات.

[٣٥] [رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم، وحسّنه الألباني]

❖ المبحث الثالث: أنواع الأمثال القرآنيّة:

تقسيم الأمثال القرآنية يكون بعدّة اعتبارات؛ فهي تنقسم من حيث **التصريح بالمثل أو عدمه** إلى قسمين:

١- الأمثال المُصَرّحة بالمَثَل: وهي التي صُرّح فيها بالمثل أو بالتشبيه الذي يفيد معنى المثل؛ كقوله -تعالى- في المنافقين: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا..} الآية[36]

وقوله: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...} الآية[37]

⇑ فهذه الأمثال صريحةٌ جاء التعبير فيها بلفظ المثل.

٢- الأمثال الكامِنة (غير المُصرّحة): والمثل هنا ليس مثلًا صريحًا بل كامنٌ، ويُذكر في هذا حكاية عن الحسين بن الفضل -رحمه الله- (وهو ممَّن له عناية بهذا الجانب) أنه قِيلَ له: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله: "خير الأمور أوساطها"؟

قال: نعم في أربعة مواضع:

قوله -تعالى-: {لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ}[38]

وقوله -تعالى-: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا}[39]

وقوله -تعالى-: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}[40]

وقوله تعالى: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا}[41]

قيل: فهل تجد في كتاب الله "من جهل شيئًا عاداه"؟

قال: نعم في موضعين:

{بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ}[42]

---

[36] [البقرة : ١٧]
[37] [الكهف : ٤٥]
[38] [البقرة: ٦٨]
[39] [الفرقان: ٦٧]
[40] [الإسراء: ٢٩]
[41] [الإسراء: ١١٠]
[42] [يونس: ٣٩]

و {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}[٤٣]

قيل: فهل تجد في كتاب الله: "احذر شر من أحسنت إليه"؟

قال: نعم؛ {وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ}[٤٤]

قيل: فهل تجد في كتاب الله: "ليس الخبر كالعيان"

قال في قوله –تعالى-: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[٤٥]

قيل فهل تجد: "في الحركات البركات"

قال: في قوله –تعالى-: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً}[٤٦]...

والقصة بطولها ساقها السيوطيّ في "الإتقان"، وذكرها الزركشيّ، وغيرهما من أهل العلم.

وتنقسم الأمثال باعتبارٍ آخر؛ **من جهة الأسلوب** إلى قسمين:

١- الأمثال القصصيّة: وهي الأمثال التي يُذكَر فيها أخبار الأمم الماضية بغية أخذ العِبَر (للتشابه الموجود)

مثلًا: في قوله –تعالى-: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}[٤٧]

هذا خبرٌ وحكاية عن قصة.

وقال بعدها: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ..}[٤٨]

وقال في آية أخرى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ...} القصة المعروفة (في سورة الكهف).

---

[٤٣] [الأحقاف: ١١]
[٤٤] [التوبة: ٧٤]
[٤٥] [البقرة: ٢٦٠]
[٤٦] [النساء: ١٠٠]
[٤٧] [التحريم : ١٠]
[٤٨] [التحريم:١١]

وفي موضعٍ آخر قال: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ}[49] إلى آخر الآيات.

فهذه كلُّها تعبيراتٌ بالمثَل وضرب المثَل، وهي من أنواع الأمثال القصصيّة؛ لأنّ حقيقة هذا القِسم من الأمثال ترجع إلى القصص القرآنيّ الذي هو نوعٌ آخر من أنواع علوم القرآن.

فعلوم القرآن أنواع؛ منها: المكّي والمدنيّ، أسباب النزول.. وغيرها، ومِن هذه الأنواع: أمثال القرآن، وكذلك منها: قصص القرآن.

فحقيقة هذا القسم من الأمثال تعود إلى القصص القرآنيّ؛ ولهذا يقول ابن تيمية –رحمه الله–: "ونظير ذلك ذكرُ القصص، فإنها كلُّها أمثالٌ؛ وهي أصولُ قياسٍ واعتبار".

يعني أنّ القصد من القصة ضرب مثلٍ للاعتبار وقياس الحالة السابقة بالحالة الراهنة، أي: حينما يكون في السابق قومٌ من الأقوام أعرضوا عن أمر الله، وجاءهم النذير فكذّبوا واستكبروا، وحقّ عليهم العذاب؛ فهذه الصورة ممكن تتكرر في أجيال لاحقة فتكون فيها عبرة لمن بعدَهم، فهذا السابق مثلٌ يُضرَب للاحق، ولذلك فالقصص يمكن أن تكون أمثالًا.

٢– **أمثال التشبيه:** وهي عبارة عن تشبيه غير الملموس بالملموس، وتشبيه المتوهَّم بالمشاهَد.

يعني مثلًا لو تأمّلنا قوله –تعالى–: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ..}[50]

هذه حقيقةُ الحياة الدّنيا تُشبَّه بواقعٍ ملموس (أرضٌ ينزل عليها الماء من السماء، فتخضرّ وتتزيّن، ثمّ يأتيها ما يأتيها فتنقلب حصيدًا وهشيمًا تذروه الرياح)، وهذه هي حقيقة الدنيا (جمال وخضرة ونضرة، ولكن سرعان ما تزول وتتبدّل وتتغيّر).

[49] [يس: ١٣-١٤]
[50] [يونس: ٢٤]

إذًا: خلاصة هذا المبحث أنّ الأمثال تنقسم باعتبار التصريح وعدمه إلى مُصرِّحةٍ وكامنة، وتنقسم باعتبار الأسلوب إلى أمثالٍ قصصية، وأمثال التشبيه.

❖ المبحث الرابع: فوائد الأمثال القرآنية:

هناك عدة فوائد نجنيها من دراسة الأمثال القرآنية، نذكرها لنستحضرها أثناء دراساتنا وتكون منّا على ذكر لنقطف ثمرتها –بإذن الله–:

١) **أول هذه الفوائد: إيضاح المعنى المراد تقريبه للمخاطَب**؛ لأن المثل يبرز المعاني العقلية (غير المحسوسة) في صورة الشيء المحسوس.

وهذه وسيلة من وسائل التربية والتعليم، لأنّ المتلقّي يفهم الماديات (المحسوسات) أكثر من فهمه المعنويات (العقليات).

يقول الجرجانيّ في كتابه "أسرار البلاغة": "واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه أنّ التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهَةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفًا، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفًا".

ويقول ابن القيم –رحمه الله– في "أعلام الموقّعين": "الأمثال تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حُكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر".

وقال الرازي: "المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثّره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجَليّ، والغائب بالشاهد".

٢) **الفائدة الثانية إقامة الحجّة والبرهان**: فالأمثال وسيلة لإقامة الحجج والبراهين، وتأمَّل قوله –تعالى–: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[٥١]

وقال في آية أخرى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥٢]

وهذا مثَلٌ يجسّد برهانًا عقليًّا على قضيةٍ من أهمّ القضايا وهي قضية البعث بعد الموت، فلو كان عرضها بعرضٍ آخر؛ ربما ما قَبِلَها السامع المُنكِر؛ لكن إذا عُرِضَت بصورة المثل وأنّ الذي ابتدأ الخلق أول مرة من العدم قادرٌ على إعادته بعد موته (لأن الإعادة أهون من الابتداء) تكون كحجة وبرهان لسامعها.

ومن الأمثال التي تحمل الحجّة والبرهان قوله -تعالى-: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٥٣]

هذا المثل يُخاطَب به المشركون، وقد كان عندهم أنفَة من مشاركة ملكِ اليمين، فكان الأشراف لا يرضى الواحد منهم أبدًا ولا يقبل أن يكون له شريكٌ في ماله من ملك اليمين، لأنهم يرون أنفسهم أسيادًا وأهل شرف وحسب ونسب، فالخطاب لهم بما هو متقرّر عندهم، يعني: إذا كنتم تأنفون من مشاركتهم وهم بشرٌ مثلكم، فكيف تجعلون لله –تعالى– شريكًا من هذه الأحجار والأوثان؟! فهذه حجّة عقليّة فيها التقرير والإقناع.

ولهذا: مَن فتحَ الله عليه في هذا الباب، وأعطاه مَلَكةً في الفهم والعقل، مع النّية الصادقة؛ فإنه يستفيد من أمثال القرآن ومن قوارع الآيات وحجج القرآن قوةً في الحجة والإقناع والمحاورة والمجادلة ما لا يأخذه في كتبٍ ودورات...

٣) الفائدة الثالثة: العِظة والعبرة: كالأمثال المضروبة للحياة الدنيا؛ كقوله -تعالى-: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

---

[٥١] [يس : ٧٧-٨١]
[٥٢] [الروم : ٢٧]
[٥٣] [الروم : ٢٨]

يَتَفَكَّرُونَ}[54] هذا مثلٌ ضربه الله للحياة الدنيا، فيه العظة؛ يعني لا تغرّك بهجة الدنيا، وهذه الزينة والزخرف، والمباني الشاهقة، والمراكب الفاخرة، والبيوت المترفة... هذا كلُّه إنما هو مثل هذا المشهد (كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) لكن مآله حصيدٌ وهشيم!

٤) الفائدة الرابعة إقامة وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، ومخاطبة الناس:

فالداعية لما يتحدّث –سواء في مجلس بين الناس أو على منبر في المسجد– يستفيد من هذه الوسيلة (ضرب الأمثال)، فلا يكون طرحه واحدًا وإنما يطعّم الكلام بمَثَلٍ أو حكمة او بيتٍ من الشعر، أو بطرح سؤال... وهكذا.

فهذا مما يشدّ الانتباه، وهو أدعى لقبول المستمع.

٥) الترغيب والترهيب:

ففي الترغيب: استمع مثلًا إلى قوله –تعالى–: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[55]

فأيهما مؤثر أكثر؟ لو سمعتَ هذا الخطاب؟ أم لو قلتَ: أنفِق في سبيل الله فإنّ الله يضاعف لمن ينفق أضعافًا كثيرة؟ المعنى واحد لكن الأسلوب مختلف، وبالتأكيد المثل فيه ترغيبٌ وفيه حثّ أكثر.

واستمع في الترهيب: قال –تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[56]

هذا مشهدٌ مَن فَهِمَه فالصورة تبقى عالقةً في ذهنه ومنفّرة له عن هذا الفعل (الإنفاق رئاء الناس)، فهناك فرقٌ بين أن أقول: لا تُنفِقْ مالك رياءً ومَنًّا فإنّ هذا مما يحبط العمل، وبين طرح هذه الصورة من خلال طرح المثل؛ صورة الصفوان

[54] [يونس : ٢٤]
[55] [البقرة : ٢٦١]
[56] [البقرة : ٢٦٤]

(الحجر الأملس) وعليه تراب، فأصابه وابل (هطل عليه مطر)، فالتراب الذي عليه لا يبقى منه شيء، فتركَه صَلدًا (أملس لا شيء عليه).

وكذلك عمل الرياء هذا؛ إذا جاء الحساب اضمحلّت أعمال المُرائين،كالتراب الذي نزل عليه المطر، فأفاد المثل أنّ عملهم باطلٌ حابط لا يجدون شيئًا من الثواب عليه، ولذلك فإنّ هذا المثل يبعث في النفس الترهيب من هذا العمل.

٦) **المدح والذمّ**: فمثلًا قوله –تعالى– في المدح: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[٥٧]

ومن الأمثال في الذمّ: قوله –تعالى–: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٥٨]

هذا مثالٌ تشبيهيٌّ قبيحٌ لحالهِم، قد جاءهم العلم ولكنهم لم يتحمّلوه (لم يعملوا به ولم يأخذوا بحقّه) فهؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذي يُحمَّل من أنفس الكتب، ولكن لا ينتفع بها، وهذا مثالٌ ضُربَ للذمّ.

٧) أمثال القرآن أصولٌ وقواعد لعلم تعبير الرؤيا:

وهذا العلم إلهامٌ من الله –عز وجلّ– لبعض الناس ممن يفتح الله عليه، ويعطيه مفاتيح فيستطيع أن يُعبّر الرؤى، لكن ممكن للإنسان أن يتعلمه، ومن وسائل تعلمه ومفاتحه: التأمّل والتدبّر في أمثال القرآن.

ولهذا: قال ابن القيم –رحمه الله– لما ذكر أمثال القرآن وتكلم عنها: "وبالجملة فما تقدم من أمثال القرآن كلها أصول وقواعد لعلم التعبير (تعبير الرؤى) لمن أحسن الاستدلال بها، وكذلك مَن فهم القرآن فإنه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن".

---

[٥٧] [الفتح : ٢٩]
[٥٨] [الجمعة : ٥]

ثم ضرب أمثلةً.. وكلامه يطول في "أعلام الموقعين"، قال: "فالسَّفينة تُعبَر بالنَّجاة؛ لقوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ}، وتُعْبَرُ بالتِّجارة، والخشب بالمنافقين، والحجارة بقساوة القلب، والبيض بالنساء، واللِّباس أيضًا بهنَّ، وشرب الماء بالفتنة، وأكل لحم الرجل بغيبته، والمفاتيح بالكسْب والخزائن والأموال..." إلى آخر كلامه.

٨) **استنباط الأحكام**: **فأمثال القرآن والسنّة تفيد في استنباط الأحكام**: قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه "الإمام في أدلّة الأحكام": "إنّما ضرب الله الأَمثال في القرآن، تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنّه يدل على الاحكام".

فهذه أيضًا فائدة أصولية؛ أنه ممكن مَن تعمَّق أن يستفيد منها في مسائل الأحكام الشرعيّة.

٩) **الأمثال المضروبة في القرآن من أسباب الهداية**، فإنّ الله –سبحانه– يهدي بها كثيرًا ممّن تدبَّرها وانتفع بها، ويُضلّ كثيرًا ممّن أعرض عنها، وهذا في القرآن جملةً كما قال –تعالى–: {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[٥٩]

وفي الأمثال خاصّةً؛ قال –تعالى–: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}[٦٠]

فهذه تسع فوائد يجنيها الدارس –بإذن الله– من دراسة الأمثال، وهي فوائد عزيزة وشريفة تستحقّ أن يبذل الإنسان من جهده ووقته في دراسة الأمثال وفهمها لتحصيلها.

---

[٥٩] [الإسراء : ٩]

[٦٠] [البقرة : ٢٦].

❖ المبحث الخامس: المؤلَّفات في الأمثال القرآنيّة:

ومنها كتاب "**الأمثال من الكتاب والسنّة**" للحكيم الترمذيّ المتوفى سنة ٣٢٠ هـ، وهذا أقدم مؤلَّفٍ وصل إلينا في هذا الباب وهو مطبوع.

ومنها: "**أمثال القرآن**" لابن القيم، وهو في الحقيقة جزء مُستلّ من كتابه "**أعلام المُوَقّعين**" إذ أنه لما تكلم في "أعلام الموقعين" عن القياس؛ ذكر أنّ الأمثال القرآنية مبنيّة على مقاييس، ثم استطرد وصار يتكلم عن أمثال القرآن، وأطال، فأُفرِد هذا الجزء من كتابه، وجُعِلَ كتابًا مستقلًّا مطبوعًا بعنوان: "أمثال القرآن".

وكُتبُ المعاصرين كثيرة؛ منها "**الأمثال في القرآن الكريم**" للدكتور محمد جابر الفياض، وهو رسالة علميّة اجتهد فيها في تأصيل الموضوع وجمع أطرافه.

ومنها: كتاب "**الأمثال في القرآن؛ أنواعها وموضوعاتها، وأسلوبها**" للدكتور حمد المنصور.

ومنها: "**أمثال القرآن؛ وصور من أدبه الرفيع**" للشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة -رحمه الله- وهذا له عناية بالجوانب البلاغية والبيانية في الأمثال القرآنية.

وهناك رسائل علمية في الجامعة الإسلامية اعتنت أيضًا بالأمثال القرآنية المتعلقة بالعقيدة، فسُجلت وكتبت عدة رسائل في قسم العقيدة (الأمثال المتعلقة بالإيمان بالله، المتعلقة بتوحيد العبادة، باليوم الآخر... وهكذا).

عدد الأمثال القرآنية:

قال ابن القيّم -رحمه الله- في "مفتاح دار السعادة": "وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا" وكرّر العبارة نفسها في كتابه "الكافية الشافية"

وعقد ابن الجوزي -رحمه الله- في كتابه "المدهش" فصلًا؛ فقال: "فصلٌ في ذكر أمثال القرآن". قال: "وفي القرآن ثلاثة وأربعون مثلًا" فحدَّد العدد ثمّ ساقها.

والحقيقة: عند التأمل والدراسة نجد أنّ حصر الأمثال القرآنية في عدد محدد أمرٌ ليس باليسير، وذلك لتعدُّد معاني المثَل، فمعاني المثل متعددة، وهناك تفاوت في النظر، فبعض الآيات واضحة لا يختلف اثنان على المثل فيها، وبعضها يختلف.

ثمّ هناك تفاوُت التشبيهات وضوحًا وخفاءً، والتردُّد في العدّ؛ فمثلًا في قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[٦١]

بعضهم يقول: إن فيها مثلين؛ الأول: تشبيه المانّ بالمرائي، والثاني: تشبيه المرائي بالصفوان.

والبعض يقول: بل فيها مثل واحد هو تشبيه المانّ والمرائي بالصفوان. فالقضية اجتهاديّة.

والخلاصة أن حصر الأمثال في عدد معيّن أمرٌ فيه صعوبة، ولا ينبغي للإنسان أن يتكلّف فيه ويتقحّمه، وإنما نذكر الأمثال ذكرًا بحسب ما يتيسر.

[٦١] [البقرة : ٢٦٤]

((ثانيًا : الجانب التطبيقيّ))

ننتقل إلى الجانب الثاني –وهو بيت القصيد– وهو دراسة هذه الأمثال، والنظر فيها، والاتعاظ والاهتداء بهديها انطلاقًا من قوله –تعالى–: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}[62]

وهناك منهجان (طريقتان) للكلام على هذه الأمثال:

➢ **الطريقة الأولى**: الكلام على الأمثال بحسب ترتيبها في سور القرآن؛ بحيث يُبدَأ من سورة البقرة وأول مثلٍ ورد فيها: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ..}[63] الآية، ثم المثل الثاني: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ..}[64].. وهكذا ...

➢ **الطريقة الثانية**: الكلام على الأمثال من ناحية الوحدة الموضوعية؛ بمعنى أن تُجمَع هذه الامثال ثمّ يُنظَر في موضوعاتها وتصنف إلى موضوعات، ويُدرَج تحت كل موضوع الأمثالُ الواردة فيه. وهذه الطريقة في نظري أحسن وأنفع؛ لأنها تشكّل الوحدة الموضوعية التي يجتمع شتاتها ومتفرقها في سور القرآن.

يعني مثلًا: موضوع معيّن من الموضوعات –موضوع النفقة مثلًا والإنفاق– وردَ فيه مثلٌ هنا، ومثل هناك.. فتُجمع في سياقٍ واحدٍ وترتيب متسلسل، وبه نأخذ لمحة عن هذا الموضوع وعن الأمثال التي وردت فيه، وما الجديد في الثاني ولم يذكر في الأول، وما المشترك.. وهكذا...

فالدراسة الموضوعية لعلّها تكون أنفع؛ وهي التي سنعتمدها –بإذن الله– ولعلّي أذكر لكم **الموضوعات التي اجتهدتُ في جمعها والتي اندرجت تحتها الأمثال القرآنية:**

١– التوحيد والشرك.
٢– الحقّ والباطل.
٣– المؤمن والكافر.
٤– النفقة والمنفقون.
٥– نور الهداية.
٦– النفاق والمنافقون.
٧– الحياة الدنيا.
٨– الإعراض عن آيات الله.
٩– أعمال الكفار.

وتحت كل موضوع يختلف عدد الأمثال.

---

[62] [العنكبوت : ٤٣]
[63] [البقرة : ١٧]
[64] [البقرة : ١٩]

❖ نبدأ بالموضوع الأول: التوحيد والشرك:

القضية العُظمى التي جاء بها الشرع الحنيف وجاء بها كتاب الله؛ فهذا الموضوع جاء فيه عدة أمثال قرآنية.

المثل الأول: قوله –تعالى–: **{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}**[٦٥]

هذه آية في سورة الرعد، وهذه الآية عبارة عن مثل من الأمثال القرآنية؛ وسندرس هذا المثل في عدة مباحث:

المبحث الأوّل: سياق المثل:

هذا المثل جاء بعد آياتٍ زواجر في بيان عظمة الله وتمام ربوبيته على خلقه.

يقول الله –عز وجل–: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)}[٦٦] بعد هذا السياق جاء المثل: **{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ...}**

وهذه الآيات إذا تأملناها نجد أنها أظهرت كمال علم الله بالخفيات؛ ومن ذلك علمه بالأجنة في بطون الإناث؛ الجنين الذي في بطن المرأة وهو مستخفٍ في ظلماتٍ ثلاث؛ فهو يعلم هذا الجنين على صغره، وشدة خفائه، واجتنانه بهذه الظلمات؛ يعلم جنسها –أي: الأجنة– ونقصها وزيادتها على نصاب الحمل (تسعة أشهر)، ويعلم أيضًا صحة هذه الأجنّة ومرضها، وكل شيء عنده مقدّر ومضبوط، لا يختلّ شيء.

وكمال علم الله يشمل الغيب والمحسوس، وهو الكبير المتعالي على جميع خلقه، المتعالي بذاته، وبقدره، وبقهره؛ فله جميع أنواع العلوّ.

---

[٦٥] [الرعد : ١٤]
[٦٦] [سورة الرعد]

ويستوي في علم الله مَن أسرَّ القَول، ومَن جهر به، ويستوي عنده أيضًا من استتر بعمله في ظلمة الليل، ومَن جهر به في وضح النهار {سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}.

ثمّ انتقل –جلّ وعلا– في بيان ملكه وتدبيره إلى أنه سخّر ملائكة يتعاقبون على الإنسان يحفظونه بأمر الله، ويحصون ما يصدر عنه من خيرٍ أو شرّ: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}.

ثمّ انتقل إلى مشهد آخر من بديع آياته ومخلوقاته؛ وهو البرق، وهو النور اللامع في السماء الذي يسطع بين السحاب، فهذا البرق فيه خوف ورجاء، كما قال: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا}؛ خوفًا من الصواعق المحرقة، والصواعق: جمع صاعقة؛ وهي النار التي تنزل من السماء عند اشتداد الرعد، فتقتل الأنفس والبهائم، وتتلف المحاصيل، وطمعًا أن يكون معها مطرٌ بقدرته –سبحانه وتعالى–.

وأيضًا بقدرته يوجِد السحاب المحمّل بالماء الكثير لمنافعنا.

ثمّ انتقل إلى مشهدٍ آخر فقال –جلّ وعلا–: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ}؛ فذكر أن الرعد –هذا الصوت المزمجر– يسبّح بحمد الله تسبيحًا وتنزيهًا يدلّ على خضوعه لربّه، وكذلك الملائكة تنزّه ربّها خوفًا منه وإجلالًا وتعظيمًا.

وهو –جلّ وعلا– يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، ويهلك بها من يشاء من خلقه.

والكفار {يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}؛ يجادلون في وحدانيته، وفي قدرته على البعث، وهو –جلّ وعلا– شديد الحول والقوة، شديد البطش لمن عصاه.

- ✓ كل ما سبق في بيان كمال علم الله وكمال قدرته.

بعد هذا التمهيد يأتي تقرير استحقاق الله للألوهية بهذا المثل، وأنّ صاحب هذه الصفات (كل ما سمعناه من آيات تبيّن كمال العلم في الخفيات والجليّات وكمال قدرته في الأمور العلويات العظيمات) كلّ هذا تمهيد لتقرير **توحيد الألوهية**.

وهذا من طريقة القرآن (تقرير الألوهية عن طريق الربوبية) يعني يثبت ويقرر توحيد الألوهية، وأنه –جل وعلا– المستحقّ للعبادة وحده عن طريق الربوبية، ويصلح أن يكون هذا منهجًا دعويًّا لمن يناقش في مثل هذه الأمور.

فهنا قرر آياتٍ وقوارع وحججًا وبراهين وعلاماتٍ كلّها في توحيد الربوبية، ثم استدلّ بها على إثبات توحيد الألوهية، وعلى تقرير أنه -جلّ وعلا- المستحقّ للعبادة، لكن هذا التقرير جاء هنا بصورة مَثَل.

المبحث الثاني: معنى المثَل:

{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ}: أي: لله -سبحانه وتعالى- دعوة الحقّ، والحقّ هنا التوحيد، أي: دعوة التوحيد (لا إله إلا الله) يعني: لا معبود بحقّ إلا الله.

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ}: يعني الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تجيب دعاء من دعاها {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ}

ثمّ ضرب الله مثالًا لهذا الأمر، وأن حال هؤلاء المشركين مع آلهتهم كحال إنسان واقف على البئر -مثلا- ظمآن، وقد بسط كفيه يريد ماءً ليشرب، فهل يطير الماء من البئر ويأتي إلى الكف؟! ثمّ لو وُضع الماء على الكف فهل يستقرّ الماء في الكف المبسوطة؟! لا، لا يستقر.

وهل يمكن أن يصل الماء إلى الكفّ ثم ينتقل إلى الفم؟! لا يمكن {وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ}، لأنّ الماء جماد، لا يمكن أن يجيب من دعاه، فلو وقف أحدهم على البئر وقال: يا ماء أنا عطشان؛ هل يمكن أن يقفز الماء من البئر؟! لا يمكن، ولا أحد يفعل ذلك لأن الكل يعلم أن الماء جماد لا يسمع ولا ينفع ولا يجيب من دعاه، ولا يشعر بعطش أحد.

فكذلك المثال ينطبق تمامًا على حال من يعبد تلك الآلهة؛ فهو يدعوها ولا يمكن أن تستجيب له؛ مثل هذا الذي بسط كفيه يريد ماءً، فهذه الآلهة لا تنفعه ولا تستجيب له، ولا تملك شيئًا؛ لأنها جمادات.

فسؤال هؤلاء في غاية البعد عن الصواب {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

وهذا المثل يقرّر بطلان دعاء غير الله، وأنّ دعاء هذه الآلهة من دون الله ضلال، لا يفيد صاحبه شيئًا.

التحليل اللفظي للآية:

{لَهُ}: اللام للاستحقاق، والهاء ضمير يعود على الله -سبحانه-، وتقديم الجار والمجرور على المبتدأ {دعوةُ} لإفادة التخصيص؛ (يعني له لا لغيره).

فهناك قاعدة بلاغية: تقديم ما حقه التأخير يقتضي التخصيص.

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ}: الضمير (الواو) يعود على المشركين.

{مِن دُونِهِ}: الضمير (الهاء) يعود على الله –عز وجل–.

{لَا يَسْتَجِيبُونَ}: الضمير (الواو) يعود على الأصنام؛ وتحدّث عنها بضمير العقلاء من باب المجاراة لأولئك المشركين، لأنّ الاستعمال الشائع في كلام العرب أنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء، فكان هذا من باب المجاراة والتنزُّل مع الخصم.

والاستجابة: هي إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي، وهذه الاستجابة منفية عن معبودات المشركين بأيّ شيء كان صغيرًا أو كبيرًا: {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ}: نكرة في سياق النفي، والنكرة إذا وقعت في سياق النفي تفيد العموم.

ثمّ استثنى حالةً –وهذا من براعة اللغة ولكن نحن لأننا بعيدون عن اللغة العربية وتذوق جمالياتها نقرأ القرآن ولكن لا تستوقفنا هذه المعاني– يعني هو –سبحانه– يقرر أن هؤلاء الذين يدعون أصنامًا منحوتة من حجر لا تستجيب ولو دعوها الليل والنهار، سرًّا وجهارًا، ولو امتدوا أعوامًا فلا يمكن أن تستجيب لهم بشيء.

ثم الاستثناء هنا يشدّ السامع يقول إلّا في حالٍ؛ وهي حال داعٍ بهذه الصورة: باسط كفيه إلى الماء... فهو ينادي الماء وهذا من تأكيد نفي الشيء بما يشبه ضدّه، فهذا يؤول إلى نفي الاستجابة، وهذا أبعد الأحوال.

الخلاصة: أنه لا يمكن أبدًا ذلك، بل هو من أبعد المستحيلات.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثّل به والممثل له:

هذه صورة تمثيلية شبَّهَ فيها حال المشركين في دعائهم الأصنام، واستجلاب نفعهم، وعدم استجابة الأصنام لهم؛ بحال هذا الظمآن الذي بسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء إلى كفيه، لأجل أن يروى ويشرب، وهذا بعيدٌ جدًّا، فمطلبه هذا ضائع.

وكذلك هذه الصورة تنطبق تمامًا وتنزل على حال أولئك الذين يدعون الأصنام، يدعونهم مثل هذا الذي يريد الماء، ولكن لا يمكن أن تجيبهم بشيء، ولا تدرك، ولا تشعر بشيء، كحال ذلك الذي طلب الماء، فالماء لا يأتيه.

قال –تعالى–: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}[٦٧]

وبهذا العرض تتضح **صورة المُمثَّل به، والمُمَثَّل له، ووجه الشبه بينهما**.

المُمثَّل به: باسط كفيه إلى الماء..

والمُمَثَّل له: المشركون الذين يعبدون الأصنام.

وجه الشبه: استحالة الاستجابة.

---

[٦٧] [الأحقاف : ٥]

المثل الثاني في هذا الموضوع **(التوحيد والشرك)** هو قوله -تعالى-: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}**[٦٨]

هذا مثالٌ جليلٌ عظيم ضربه الله لكلمة التوحيد، وسنتكلم عليه في مباحث:

المبحث الأوّل: سياق المثل:

جاء هذا المثل في هذه سورة إبراهيم بعد عرضٍ تصويريٍّ لحال الأشقياء وحال السعداء؛ فلو رجعنا إلى الآيات التي قبل هذا المثل نجد أنّ الله -تعالى- يقول: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ}[٦٩]

ثمّ قام فيهم إبليس وخطب خطبته: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٧٠]

هذا حال الأشقياء -نعوذ بالله من حالهم ومآلهم-، حينما يستقرّون في النار ويتلاومون، ويندمون، ثم يقوم فيهم إبليس متنصّلًا، ويلقي باللائمة عليهم: {فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم} فيزيدون حسرة على حسراتهم وما هم فيه من العذاب، نعوذ بالله من حالهم.

ثمّ ذكر الصنف الآخر -وهم السعداء-: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}[٧١]

فلمّا ذكر هذا المشهد في حال الأشقياء وحال السعداء جاء هذا المثل لبيان هؤلاء وأولئك لكن بصيغة المثل الذي يُظهِر المعاني في قالب المحسوس؛ وهذا من فوائد المثل -كما ذكرنا فيما مضى-.

---

[٦٨] [إبراهيم: ٢٤-٢٥]
[٦٩] [إبراهيم: ٢١]
[٧٠] [إبراهيم: ٢٢]
[٧١] [إبراهيم: ٢٣]

المبحث الثاني: المعنى الإجمالي للمثل:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَة}

يقول الله -تعالى- مخاطبًا نبيه ﷺ: {أَلَمْ تَرَ}: أي: ألم تعلم؟ لأنّ الرؤية هنا علمية.

ألم تعلم يا محمد كيف ضربَ الله مثلًا وشبَّهَ شبهًا؟

شبَّه الكلمة الطيبة -وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرةٍ طيبة الثمرة (لأنّ أطيب ما في الشجرة الثمر)

وهذه الشجرة راسخة جذورها، ثابتة في الأرض، وأغصانها مرتفعة باسقة في السماء، تعطي ثمرها كاملًا طيبًا كثيرًا في كلّ وقت، لا ينقطع، بل هو دائمٌ مستمرّ؛ وهذا بمشيئة ربّها.

وكذلك كلمة التوحيد؛ فإنها راسخة، وأغصانها (الأعمال الصالحة) مرتفعة، ولا تزال هذه الكلمة تثمر الثمار اليانعة من الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، والأفعال الجميلة للمؤمن في كل وقت.

فالمؤمن حالهُ حالٌ طيّبة في قوله وعمله ونيّته، في كل وقته، ليلًا ونهارًا، ولا يزال يُرفعُ له عملٌ صالح آناء الليل وأطراف النهار.

فهو يتقلب في رياض الأعمال الصالحة؛ بين ذكرٍ وعملٍ صالحٍ، وعبادةٍ ونفعٍ، وإحسان، ومقصدٍ حسن.. وغير ذلك من أصناف الخيرات؛ فهو مثله كمثل هذه الشجرة التي تؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ بإذن ربّها.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ} ما الفائدة؟ {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون} يعني: لعلّهم يتذكّرون حجّة الله عليهم، ويتّعظون ويمتثلون بفعلِ أوامره واجتناب نواهيه.

المبحث الثالث: البيان التحليلي للمثل، ووجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

{أَلَمْ تَر} هذا استفهام، والاستفهام هنا إنكاريّ؛ حيث نزَّلَ المـُخاطَب منزلة مَن لم يعلم، فأنكرَ عليه عدم العلم. والرؤية علمية -كما ذكرنا-.

{كَلِمَةً طَيِّبَةً} هي كلمة التوحيد، وقد اتفق المفسّرون على أنها "لا إله إلا الله" [وهذا الممثَّل له

{كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ}: أكثرُ المفسّرين على أنها النخلة؛ واستدلّوا على ذلك بحديث ابن عمر المشهور؛ أن النبي ﷺ قال لأصحابه: "أخبروني عن شجرةٍ هي مثل المؤمن"[72]، فوقع الصحابة في شجر البوادي، قال ابن عمر –رضي الله عنهما–: "ووقع في نفسي أنها النخلة"، لكنه لم يُجِب لأنه كان أصغر الحاضرين، فبيَّنَ النبي ﷺ أنها النخلة.

وقيل: الشجرة الطيبة المؤمن، ومعنى أصلها ثابت وفرعها في السماء: لأن المؤمن أصله –الذي هو عمله– في الأرض، ولكنّ هذا العمل يبلغ عنان السماء، فعمله يصعد إلى السماء باستمرار، فهو يعمل العمل الثابت في الأرض، وأثر هذا العمل يصعد إلى السماء.

وقد جاء تفسير هذه الشجرة الطيبة بالنخلة في حديثٍ مرفوعٍ لكن فيه ضعف، وإلّا فلو صحَّ الحديث لكان قاضيًا في المسألة.

هذا الحديث هو حديث أنس –رضي الله عنه– قال: أُتِيَ النبيّ –ﷺ– بقناعٍ عليه رُطَب –والقناع يعني الطبق–، فقال: "مثلُ كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" قال: "هي النخلة"[73]

ثم قال –تعالى–: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}

أصل الشجرة: جذرها، وفرعها: أغصانها.

والمعنى: أنّ جذور هذه الشجرة الطيبة ثابتةٌ في الأرض، وأغصانها مرتفعة نحو السماء.

وكذلك كلمة التوحيد؛ أصلها ثابت، وراسخ في قلب المؤمن؛ لأنها متجذرة في قلبه، فهو يقولها عن عقيدةٍ –ومعنى العقيدة مأخوذٌ من العقد وهو الشدّ والإحكام–. فكلمة التوحيد أصلها ثابت راسخٌ قد عقد المؤمن عليها قلبه، فهو ثابتٌ في هذا الأصل.

وفروعها: الأعمال الصالحة.

---

[72] [صحيح مسلم]
[73] الحديث رواه الترمذي ولكنّ المحفوظ فيه أنه موقوف وليس مرفوعًا

هذه الكلمة العظيمة تثمر ثمارًا عظيمة يانعةً هي الأعمال الصالحة، وهذه الأعمال تصعد إلى السماء وترتفع إلى الربّ -جلّ وعلا-.

قال: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} الأُكُل: أي: المأكول، أي: تؤتي مأكولها.

والمعنى: أنّ هذه الشجرة الطيبة تخرج ثمرها كاملًا كثيرًا طيبًا في كلّ وقتٍ -بمشيئة الله الذي هو خالقها- **كذلك كلمة التوحيد**؛ لا تزال تثمر وتخرج هذه الأعمال الصالحة للمؤمن في كل وقت، ولا يزال يرفع للمؤمن عملٌ صالح، فهو في الليل والنهار في خيراتٍ وأعمالٍ طيّبة.

وهذا **وجهُ الربط** بين الممثل به والمُمثَّل له، ونلاحظ في هذا المثل أنّ هذه الشجرة وُصفَت بأربع صفات -وهذا معنى التدبّر: أن يتدبَّر الإنسان ويتأمّل في ألفاظ الآية وما اشتملت عليه-:

الصفة الأولى: كونها طيّبة: طيّبة في منظرها، طيّبة في ثمرها، في منفعتها، فالنخلة -التي هي المثل المضروب على قول جمهور المفسرين- هي من أطيب الأشجار، يعني لا يكاد جزء منها إلا وينتفع به.

- أما ثمرتها: فهي أفضل الثمار؛ فاكهة وحلوى، يُتفكَّه بها، ويحلّى بها، وهي غذاء أيضًا.
- وأما عسيبها، وكربها، وليفها.. فينتفع بها أيضًا (يُصنع منها الخوص والسِّلال ويستفاد منها في أشياء كثيرة) فهي شجرة مباركة طيبة.

الصفة الثانية: أَصلُهَا ثابِت: يعني ضاربٌ بعروقه في الأرض، فهذه الشجرة لا تزعزعها الأعاصير حينما تهبّ الرياح العاتية في حين أن بعض الأشجار تنكفئ وتسقط.

فكذلك كلمة التوحيد ثابتة لا تزعزعها أعاصير الباطل، ولا تعصف بها معاول الطغيان والصوارف والمثبطات.

وهذه الكلمة في قلوب العباد تتفاوت؛ فبعض الناس في قلبه كالجبل الراسخ، وبعضهم أضعف وأضعف -بحسب إيمانه وتحقيقه لكلمة التوحيد-.

الصفة الثالثة: فرعُها في السّماء: سامقٌ، شامخٌ عالٍ، وكذلك كلمة الحقّ (كلمة التوحيد) تعلو ولا يُعلى عليها {وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}[٧٤]

الصفة الرابعة: أنها تؤتِي أكلَها كُلَّ حينٍ بإِذنِ ربِّهَا: يعني ثمرتها لا تنقطع، فهي تثمر وتثمر ثمرًا حسنًا كثيرًا دائمًا طيّبًا، وكذلك كلمة التوحيد فإنها تُثمر من هذه الخيرات والأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، والأعمال الزاكية، والمقاصد الحَسَنة.

وابن القيم –رحمه الله– تكلَّم على هذا المثل بكلامٍ جميل في كتابه "أعلام الموقّعين" والذي أُفرِد –أي طُبع مفردًا– باسم: "أمثال القرآن".

يقول –رحمه الله–: "شبَّه –سبحانه– شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها".

فإذًا: موضع المثل: أنّ الإيمان ثابتٌ في القلب راسخ (هذا الجذر)، والعمل صاعدٌ إلى السماء (هذه أغصان وفروع الشجرة).

يقول ابن القيّم –رحمه الله–: "وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته، فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المُشبَّه المشبَّه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدَّلّ المرضي، فيُستدلّ على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقًا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدي والدلّ والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ عُلم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في

[٧٤] [التوبة : ٤٠]

السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها -أي: من اللطائف والأسرار في هذا المثل-: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس".

يعني تصوّر أنك كالشجرة؛ تحتاج هذه الشجرة إلى ماء تسقى به، ولو تركتَ سقيها لذبلت حتى ماتت.

وأيضًا: تحتاج أن تنظفها؛ فلا يكفي فقط أن تسقيها، بل لا بدّ أن ترعاها وتنظفها من الدغل والشوائب والحشرات وغيرها..

فكذلك أنت -أيها المؤمن-؛ شجرة الإيمان في قلبك تحتاج أن تسقيها بالماء الذي هو العلم النافع؛ ولهذا يحرص الإنسان على تعلُّم العلم وحضور مجالسه، لأن هذه المجالس ماءٌ تسقى به هذه الشجرة فتنمو وتزكو.

ثمّ أيضًا لا يكفي الماء؛ بل لا بدّ من المحافظة على هذه الشجرة من الشوائب والعوارض، فقد يُبتلى الإنسان بالشبهات والشهوات، والقواطع والصوارف، والإنسان ضعيفٌ بنفسه، والفتن تُعرض على القلب عودًا عودًا -كما جاء في الحديث- بحسب تشرّب القلب لهذه الفتن وتأثره بها.

إذًا: نحن نتمثل أنفسنا بمثل هذه الشجرة، وشجرتنا هي الإيمان والتوحيد، فنتعاهد هذه الشجرة **بالسقي والرعاية**؛ **السقي** بالماء الذي هو العلم والعمل، **والرعاية** بأن نتعاهدها من كلّ ما يؤذيها أو يفسدها، أو يؤثر عليها.

المُمثَّل به: شجرة طيّبة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء (والجمهور على أنها النخلة)

والمُمَثَّل له: كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"

وجه الشبه: كونها طيّبة، وثبات الأصل (الجذر)، وعلوّ الفَرع، وإيتاؤها أُكُلها كلّ حين بإذن ربّها.

المثل الثالث: في موضوع **التوحيد والشرك** قوله –تعالى–: **{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**[٧٥]

المبحث الأوّل: سياق المثَل:

لو استعرضنا الآيات السابقة لهذا المثل؛ لوجدنا أنه جاء بعد عرض حال الأشقياء والسعداء، فقد ذكر الله حالهم ثمّ ضرب مثلين؛ الأول: مثل الكلمة الطيبة (كشجرةٍ طيّبة الثمرة، جذورها ثابتة في الأرض، وأغصانها مرتفعة باسقة في عنان السماء) وهذا سبق الكلام عليه.

ثمّ المثل الثاني الذي تلاه: مثل الكلمة الخبيثة، –وهذا الذي بين أيدينا– فإذًا: هذا المثل لا بدّ أن نربطه بما سبق من الآيات حتى تكون الصورة واضحةً تمامًا.

المبحث الثاني: المعنى الإجماليّ العام للمثل:

يضرب الله –عز وجل– مثلًا للكلمة الخبيثة (فالممَثَّل له: الكلمة الخبيثة) وهي كلمة الشرك والكفر، ضرب الله مثلًا لها بشجرةٍ خبيثة، كريهة الطعم، (وقد ذكر المفسرون أشجارًا هي كالمثال لها، فقالوا: الحنظل وقالوا غير ذلك)، المهم أنّها شجرة موصوفة بالخبث، وهذه الشجرة اجتُثَّت أي: استُؤصِلَت، واقتُلعَت من الأرض، ولا أصلَ لها فيها، وليس لفروعها ارتفاع في السماء، وليس لها ثمرة ولا منفعة.

فكذلك الممثَّل له؛ أي: كفر الكافر والكلمة التي ينطق بها، فهذه الكلمة لا ثبات لها، ولا خير فيها، ولا يصعدُ له عملٌ صالح إلى السماء ولا يُتقبَّل منه.

يعني كما أنّ الشجرة الخبيثة هذه أخبث الأشجار؛ فكذلك الشرك والكفر أخبث الكلمات، وكما أنّه لا يُنتَفَع بتلك الشجرة، كذلك الشرك لا ينتفع صاحبه به.

---

[٧٥] [ابراهيم: ٢٦-٢٧]

ثمّ عقَّبَ بعد هذين المثلين بتعقيبٍ جميل فقال الله –عز وجل–: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}[76]

يعني المسألة مسألة ثبات، فكما أنّ الأشجار تحتاج إلى ثبات؛ فالإنسان أيضًا يحتاج إلى ثبات، والثبات يكون من الله (يُثَبِّتُ اللَّهُ...).

– وما هو القول الثابت؟

– هو القول الصادق الحقّ الثابت في قلوب المؤمنين، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

فيثبتهم الله بهذا القول الثابت في موضعين:

- في الحياة الدنيا على الإيمان: لأن الإنسان يحتاج إلى ثبات في الدنيا؛ فهو تتصارعه وتتقاذفه أمواجٌ من الشبهات والشهوات، وما أكثر الذين يتساقطون ويتهاوَون أمام هذه المغريات والصوارف والقواطع!
- الموضع الثاني للتثبيت: في الآخرة: والمقصود بالآخرة –كما قال المفسّرون ودلَّت عليه الأدلة–: عند سؤال الملَكَين، إذ الآخرة تبدأ منذ أن يرحل الإنسان عن الدنيا، فإذا مات فقد قامت قيامته (ولذلك فالإيمان باليوم الآخر يبدأ من لحظات الموت، وحتى القرار الأخير في الجنة أو النار).

فالإنسان يحتاج إلى ثباتٍ عند الممات؛ لأنّ هذه اللحظات والسكرات لحظات عصيبة، ولهذا نعوذ بالله من فتنة المحيا ومن فتنة الممات في كل صلاة، وأيضًا الموضع المشار اليه بقوله: {وَفِي الْآخِرَةِ} هو فتنة القبر، والفتنة يعني الامتحان، والمقصود: سؤال الملَكَين؛ فإذا دُفِنَ الإنسان جاءه ملكان فأقعداه وسألاه الأسئلة الثلاثة المعروفة، وهنا يحتاج الإنسان إلى ثباتٍ، واللهُ هو الذي يُثبِّت الذين آمنوا بالقول الثابت الصادق الحقّ –وثبات أهل الإيمان كثبات الشجرة الطيّبة ذات الأصل الثابت–، ويخذل الله الظالمين: {وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} الكافرين، والمنافقين، والمشركين؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم، {وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} فله المشيئة الكاملة، والإرادة المطلقة، من هداية المؤمنين وتثبيتهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم.

فبيَّنَ الله –عز وجل– حال أصحاب الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، وأنه يثبّت المؤمنين في حياتهم الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، ويحفظهم ويسلّمهم من عواصف الفتن وعوادي المغريات، ويسلّمهم من فتن الشبهات والشهوات، ويثبتهم أيضًا في الآخرة في قبورهم حينما يتعرضون للفتنة (سؤال الملكين).

---

[76] [ابراهيم:٢٧]

وفي المقابل: يخذل الله المنافقين والكافرين بسبب ظلمهم لأنفسهم فيجعلهم في حيرة وعماية، لا يوفّقون إلى الحقّ، ولا يهتدون إلى الصواب.

وجاء في حديث البراء بن عازب –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: "المسلم إذا سُئِلَ في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وذلك قوله: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}"[٧٧]

وجاء تفصيل ذلك في أحاديث أخرى كحديث أبي سعيد وغيره في صفة الفتنة، وسؤال الملَكَين.

إذًا: الخلاصة: أن الناس ينقسمون إلى قسمين؛ الأول موفّق بالتثبيت، والثاني مخذولٌ بالتَّرك.

وكما قلنا؛ الإنسان يحتاج بل يضطر ضرورةً إلى معية الله وإمداده له بالتثبيت، فما منا أحدٌ إلا ويتعرض لشيء من الضعف بطبيعة النفس، ويصيبه شيء من الفتور، ويرى الإنسان المتساقطين حوله هنا وهناك، فيعلم ضرورة الثبات على دين الله، وخطر النكوص، فيسعى بكل وسيلة ممكنة إلى الثبات على هذا الطريق حتى يتوفاه الله وهو عليه، وكذلك يحتاج إلى التثبيت في ساعة الرحيل، حينما تنزع الروح في موقف عصيب (سكرات الموت) وفي رحلة البرزخ حينما يوضع في قبره ويأتيه الملكان.

ومادة التثبيت هي من الله –عز وجل– وهي القول الثابت الصادق الحق، وهي كلمة التوحيد ولوازمها وما يتعلّق بمكملاتها ومقتضياتها.

ولا غنى للعبد عن تثبيت الله له طرفة عين، فإذا كان الله –تعالى– قد قال لرسوله ﷺ وهو رسول الله المؤيد بالوحي: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}[٧٨]؛ فنسأل الله أن يثبّتنا وإياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ولعلّنا نتذاكر **بعض وسائل الثبات** بمناسبة ذكر هذه الآية، فأعظم ما يُعين الإنسان على الثبات –بإذن الله–:

① **الصلة مع القرآن**؛ فهو وسيلة الثبات الأولى، قال –تعالى–: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}[٧٩]

وكلما كان الإنسان على صلة به؛ فبقدر صلته به تزداد قوّة الثبات.

---

[٧٧] [متفق عليه].
[٧٨] [الإسراء:٧٤]
[٧٩] [الفرقان : ٣٢]

② **الاستقامة على الدين**؛ قال –تعالى–: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}[80]

فالاستقامة هي فعل الأوامر، واجتناب النواهي، وعلى المؤمن أن يستقيم ولا يروغ ويزيغ يمنةً ويسرة. وكلّما كان مستقيمًا كان هذا سببًا في ثباته.

③ **الدّعاء**: فعلى المسلم أن يلهج ويتضرّع إلى ربّه أن يثبّته؛ {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...}[81]، {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا...}[82]

والقلوب –كما جاء في الحديث– بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهذا الخبر يدعو الإنسان إلى الخوف؛ ولهذا كان أكثر دعاء النبيّ ﷺ: "يا مقلّب القلوب؛ ثبّتْ قلبي على دينك"[83] وهو رسول الله!

فاجعل هذه الكلمة وردًا في سجودك، اجعلها وظيفةً ثابتةً لك أن تدعوَ الله بهذا الدعاء في سجودك حيث يكون العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

④ **تدبّر قصص الأنبياء**: فهم الرمز والمثَل في الثبات، أصابتهم فتن وشدائد، وامتحانات وبلاءات، مواقف عصيبة قوليةٌ وفعليّة ونفسيّة... ومع ذلك كانوا مثلًا في الثبات على دين الله والثقة بما عند الله. ولهذا قال –تعالى– مخاطبًا رسوله ﷺ: {وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ} –أي في هذه السورة– {وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}[84]

فأيضًا هذا باب من أبواب العلم، وتدبر القرآن، وهو باب عظيم (باب التفقُّه في القصص القرآنيّ)، والقصص القرآنيّ يدخل فيه الأنبياء وغيرهم من الصالحين والدعاة والأمم السابقة وما في ذلك من العبر.

⑤ **ذِكر الله –عز وجل–**؛ وله أثر عجيب في ثبات القلب، وقوّته وشجاعته، فالذكر مادة حياة القلب، وكما قال ابن القيم وغيره: الذكر للقلب كالماء للسمك، وقال النبي –ﷺ–: "مثلُ الَّذي يذكُرُ ربَّه والَّذي لا يذكُرُ ربَّه مثلُ الحيِّ والميِّتِ"[85]، فأكثِر من ذكر الله.

---

[80] [النساء : ٦٦]
[81] [آل عمران : ٨]
[82] [البقرة : ٢٥٠]
[83] أخرجه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي"
[84] [هود : ١٢٠]
[85] [رواه البخاري]

ونلاحظ أنّه في القرآن حينما يُذكر ذِكر الله يقيّد بالكثرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}[86]، {..وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ..}[87]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[88] فلا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله.

⑥ **مجاهدة النفس**: فالطريق ليس مفروشًا بالورود والرياحين! بل فيه عقبات، وشهوات تدعو النفس، فطريق الجنة محفوف بالمكاره؛ يعني الأشياء التي تكرهها النفس، وطريق النار محفوف بالشهوات؛ يعني ما تهواه النفس وتشتهيه وتميل إليه.

وطريق الجنة فيه مشقة في البداية (مجاهدة النفس على العبادة وترك الأشياء التي تميل إليها) فهو يحتاج إلى مجاهدة، لكن مَن جاهد نفسه فهو موعودٌ بوعدٍ حقّ، والله لا يخلف الميعاد؛ قال –تعالى-: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[89] يهديك الله إلى الطريق، ويثبّتك عليه، وتكون لك معيّته الخاصّة، لكن هذا الأثر والجزاء العظيم مشروطٌ بأمرين هما:

١) المجاهدة (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا)

٢) أن تكون في الله ولله (فِينَا)

يعني أن يكون القصد والنية في الله ولله.

ولهذا تلاحظون أن المتساقطين أخلّوا بهذا، يعني أحدهم إذا كانت الأمور طيّبة يسير ويثبت، ولكن لما يتعرض لأيّ هزّة يسقط! ما عنده صبر وجلَد ومجاهدة للنفس!

والإنسان في حياته يواجه فتن وامتحانات ليميز الله الصادق من الكاذب، وهذه سنّة الله؛ {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[90]

---

[86] [الأحزاب : ٤١]
[87] [الأحزاب : ٣٥]
[88] [الأنفال:٤٥]
[89] [العنكبوت : ٦٩]
[90] [العنكبوت:٢]

والفتنة تكون أحيانًا بالسراء وأحيانًا بالضرّاء، قال –تعالى-: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[٩١]، وأحيانًا تكون فتنة السراء والخير والنعمة أشدّ من فتنة الضرّاء؛ يعني مثلًا قد يبتلى الإنسان بالفقر ويصبر، وقد يُبتلى بمالٍ كثيرٍ وينحرف! قال –تعالى-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ}[٩٢]

⑦ **الصحبة الصالحة**: اجعل لكَ صاحبًا صالحًا؛ فهذا الصاحب –بإذن الله– يعينك على الثبات؛ إن ضعفتَ قوّاك، وإن نسيتَ ذكَّرَك، وإن ذكرتَ أعانَك، وإن أخطأتَ صوَّبَك، وهذا في الحقيقة مغنم؛ ولكن أين هو؟ الصاحب المُعِين هذا يُعَضُّ عليه بالنواجذ، ولو كان يُشترى لبذل الإنسان فيه أنفسَ الأثمان.

وإذا كان الله –عز وجل– قد قال لرسوله ﷺ –وهو رسول الله ويأتيه الوحي–: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[٩٣]

فنحن أولى أن يكون لنا إخوة مثل هؤلاء، وأن نصابر للزوم صحبتهم لما فيها من الخير والثبات على هذا الدين.

والواقع الآن –والله المستعان–: صارت عامة مؤاخاة الناس على الدنيا، لكن أين الأخ الذي يعينك في دينك؟! هذا قليلٌ، لكن ابحث عنه، ومتى ما وجدتَه؛ فاحمد الله والزم غرزه.

⑧ **تذكُّر الآخرة**: وما أعظمه من سبب! واللهِ لو تذكّر الإنسان الآخرة لهانت عليه الدنيا بما فيها.. فالدنيا محدودة مهما طالت، وهذه المدة فيها منغّصة بمنغّصات ومكدرات، وهي مزرعة للآخرة، ومرحلة مؤقتة.

فكلما تذكّر الإنسان الآخرة؛ زهد في الدنيا، وكان هذا سببًا في ثباته؛ لأنه يعلم أنه ينتظره شيءٌ لا ينقطع، ولهذا شرع الإكثار من ذِكر الموت هادم اللذات، وشرع زيارة المقابر فإنها تذكّر الآخرة.

والحاصل: أنّ مسألة التثبيت والثبات مسألةٌ عظيمة، يحتاج الإنسان أن يجلس مع نفسه فيها علمًا وعمَلًا. نسأل الله أن يثبّتنا وإياكم.

---

[٩١] [الأنبياء:٣٥]
[٩٢] [العلق : ٦-٧]
[٩٣] [الكهف : ٢٨]

ونختم الكلام بالتذكير ب**الممثل والممثل له ووجه الشبه في هذا المثل**:

الممَثَّل به: شجرةٌ خبيثة.

الممَثَّل له: كلمة الكفر والشرك.

وجه الشبه: الخبث والضعف وعدم الثبات (كلاهما ضعيف خبيث لا يثبت)

المثل الرابع -في موضوع **التوحيد والشرك**: قول الله -تعالى-: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**[٩٤]

المبحث الأول: سياق المثل: لو رجعنا إلى الآيتين قبل هذه الآية؛ نجد أن الله -سبحانه وتعالى- قال: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٩٥]

هنا يُخبر الله -عزّ وجَلّ- أنّ المشركين يعبدون أصنامًا لا تملك أن تعطيهم شيئًا من الرزق، فوصف هذه الآلهة المعبودة الباطلة بأنها لا تملك أن تعطي عابديها شيئًا لا من رزق السماء (كالمطر)، ولا من رزق الأرض (كالزرع والنبات)، فهي عاجزة عن الرزق العلوّي والسفليّ، وكذلك هذه الآلهة لا تقدر على شيء، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن نقل ذلك لغيرها، فإذا كانت هذه صفتها؛ فكيف تُعبَد من دون الله؟!

فلا تجعلوا -أيها الناس- لله أندادًا وأمثالًا من خَلقِه تُشركونهم معه في العبادة، فإنه -سبحانه- لا مِثلَ لهُ ولا نظير {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}؛ أي: لا تجعلوا لله أندادًا وشركاء.

فهذا التقرير كالتمهيد للمثَل.

المبحث الثاني: بيان معنى المثل:

هذا المثل عبارة عن مقارنة بين رجلين؛ الأول: عبد مملوك، لا يملك شيئًا، وعاجز عن التصرّف،

والثاني: رجلٌ حرّ عنده مالٌ طيّب رزقه الله إياه، ويملك التصرف فيه، ولهذا فهو يعطي وينفق في السرّ والعَلَن.

فهل هناك مجال للمقارنة بينهما؟ أبدًا.

[٩٤] [النحل:٧٥]
[٩٥] [النحل : ٧٣-٧٤]

إذًا: هذا المثل يُقرّب التقرير السابق؛ **والمعنى**: أنّ الله -تعالى- هو المالك لكلّ شيء، وهو الذي ينفق كيف يشاء على عبيده سرًّا وجهرًا، ليلًا ونهارًا، يمينه ملأى لا تغيضها (لا تنقصها) النفقة، سحّاء الليل والنهار -كما جاء في الحديث-، بينما هذه الأوثان المعبودة مملوكة وعاجزة، ولا تملك شيئًا، ولا تقدر على شيء.

فهل من المعقول أن تكون هذه أندادًا وشريكةً لله مع هذا التفاوت العظيم، والبَون الشاسع، والفَرق الكبير؟!

من الجهل الكبير أن تُجعَل أندادًا لله، ولهذا حَمِدَ الله نفسه بعد ذلك فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} فهو وحده المستحقّ للحمد والعبادة، ولكنّ أكثر هؤلاء المشركين في الواقع لا يعلمون ذلك.

هذا هو المعنى الذي عليه جماهير المفسّرين.

وإذا كانت المساواة -في المثل- بين هذين الرجلين مُستبعدة؛ رغم اشتراكهما في البشرية (فكلاهما بشر مخلوق مكوّن من نفس التكون البشريّ) والفرق كبير؛ فكيف بمَن أشرك بالخالق الذي له القدرة التامة، والغنى الكامل، والـمُلك الـمُطلَق؟! كيف بمن أشرك به مخلوقًا ضعيفًا فقيرًا عاجزًا؟!

إذًا: هذا المثل يقرّر مسألة شناعة الشرك، فإذا كانت مساواة البشر بالبشر هنا مستبعدة ومستنكرة؛ فكيف إذًا بمن يساوي الحجر أو الشجر برب البشر؟!

الـمُمَثَّل به: الرجلان؛ الأول العبد الفقير العاجز، والثاني الحرّ المالك القادر.

الـمُمَثَّل له: الآلهة الباطلة، والله -عزّ وجل-.

وجه الشبه: القدرة والملك في مقابل العجز والفقر

(يعني ذلك الرجل الحر الذي عنده مال وينفق منه عنده قدرة ومُلك، والثاني عبدٌ مملوك عاجز، فكذلك الله -عزّ وجلّ- مع الآلهة الباطلة).

المثل الخامس – وقد ذُكر في الآية التي بعدها مباشرةً-: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}**[٩٦]

هذه الآية تاليةٌ للآية المذكورة في المثل السابق؛ **فسياقهما واحد**، وكلا المثالين واردان لتقرير الحقيقة السابقة (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..).

بيان معنى المثَل:

هذا المثل هو أيضًا مقارنة بين رجلين، لكن العرض هنا يختلف؛ فهنا الأول: رجل أبكم (أخرس)، لا يَعقل، لا يفهم، لا يُفهِم، ولا يقدر على منفعةِ نفسهِ فضلًا عن غيره، وهو مع ذلك عِبءٌ ثقيل على مَن يتولّى أمره ويعوله، إذا أرسلَه لقضاءِ أمرٍ فلا ينجح ولا يُفلح، ولا يأتِ بخير.

والثاني: رجلٌ سليم الحواس، ينفع نفسه، وينفع غيره، وهو يأمر بالعدل والإنصاف، ويسير على طريقٍ واضحٍ لا عوج فيه.

لا يختلف اثنان في البون الشاسع بين هذين الرجلين؛ فإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يساوي المشركون بين الصنم الأبكم الأصم ذي الكلفة والمشقة على من يعبده؛ وبين الله عزّ وجل؟!

فالعابد من هؤلاء المشركين هو مَن يتولّى أمر معبوده، فهو الذي ينحت إلهه، ثم يحمله، ثم يضعه، ثمّ يقوم على خدمته، وتنظيفه وتطييبه، ثمّ التقرُّب إليه بأنواع العبادات كالسجود والنذور... وغيرها.

ويُذكَر أن بعض عقلاء الجاهلية أنِفَ من عبادة الأصنام، حيث كان عنده صنم يعبده، وهو حجر، فأصبحَ ذاتَ يومٍ فوجدَ على رأس هذا الصنم بولًا (وجد أنه قد جاء حيوان وبالَ على رأسه) ففزع وغسله ونظّفه وطيّبه. وحدث في اليوم الثاني كذلك، وكذلك نظّفه، وفي اليوم الثالث... فقال:

أرَبٌّ يبولُ الثعلبانُ برأسه!   لقد خاب من بالت عليه الثعالبُ

---

[٩٦] [النحل : ٧٦]

والحاصل: أنه لا مجال للمقارنة بين هذه الآلهة الباطلة (الأصنام) التي حالها كحال الرجل الأول (الأبكم الذي لا يقدر على شيء ولا يفهم ولا ينجح ولا يقضي حاجة) وبين الله عز وجل.

فكما أنه لا مجال للمقارنة بين الرجلين (المذكورين في المثال)، فكذلك لا مقارنة بين المعبودات الباطلة، وبين الله المعبود الحقّ القادر القائم بالقسط، المُنعِم بكلّ خير.

المُمَثَّل به: الرجلان (الأول الأبكم، والثاني الذي يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم)

المُمَثَّل له: الآلهة الباطلة، والإله الحقّ سبحانه.

وجه الشبه: العجز والنقص (للمعبودات الباطلة) في مقابل القدرة والكمال (في حقّ الله تعالى).

وكلّ هذه الأمثال تقرّر مسألة توحيد العبادة، وبطلان المعبودات من دون الله.

المثل السادس: في الموضوع نفسه **(التوحيد والشرك)** هو قوله –تعالى–: **{وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}**[٩٧]

المبحث الأول: سياق المثَل:

جاء هذا المثل بعد قوله –تعالى–: {ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ...}[٩٨]

فبعد أن أمر الله عباده بالابتعاد عن الرجس (الشرك) -والمقصود بالرجس هنا: النجاسة المعنوية للشرك-، أمرَهم بتوحيده والإخلاص في عبادته، وضرَب لذلك مثلًا عظيمًا لحال المشرك تنفيرًا وترهيبًا منه.

إذًا: جاء هذا المثل بعد الأمر باجتناب عبادة الأوثان، والأمر بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، لبيان شناعة الشرك، وأن حال المُشرِك مثل حال هذا المُمَثَّل به.

المبحث الثاني: معنى المثَل: أن الله لما أمر بالابتعاد عن الخبث والرجس والنجس –المعنوي– الذي هو عبادة الأصنام، وأمر بإخلاص العبادة له والإعراض عمّا سواه ونبذ الشرك؛ ضرب هذا المثل؛ فمَثَلُ مَن يُشرك بالله شيئًا في بُعده عن الهداية وفي هلاكه وسقوطه كمثل مَن سقَط من السماء، فهذا إما أن تخطفه الطير (والخطف هو أخذ الشيء بسرعة) فتقطّع أعضاءه، وتنهشه، وتجعله مزقًا، أو أن تأخذه ريحٌ عاصفة فتقذفه في مكانٍ بعيد.

وهذا المثل فيه **إشارة لطيفة** وهي أن الثابت على الإيمان والتوحيد في مكان رفيع؛ لأن الله جعله في السماء، بخلاف الذي عَدَلَ عن التوحيد فكأنما خرَّ منها، وانتقل من العلوّ والرفعة إلى السفل والانحطاط.

فهذا المثل فيه تشبيه أمرٍ معنويّ بأمرٍ حسّي، وأنَّ مَن دخل دائرة الشرك فقد أهلك نفسه غاية الهلاك، وهوى من سماء العبودية والشرف، إلى سحيقٍ مهلك.

---

[٩٧] [الحج : ٣١]
[٩٨] [الحج : ٣٠-٣١]

والمشرك يعاني نفسيًّا بتسلّط الشيطان عليه، كما أنّ الذي سقط من السماء تخطفه الطير، وهو في عاقبة أمره في مكان سحيق من العذاب الأليم.

الممثل به: الساقط من السماء
الممثل له: المشرك بالله.
وجه الشبه: التردّي والضلال والهلاك.

◁ وهذا المشهد يعطي تنفيرًا وتشنيعًا على حال المشرك، وفيه أبلغ واعظٍ وزاجر.

أما المؤمن الموحّد فهو في غاية الثبات، كما قال –تعالى-: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[99]

فهذه إذًا **خلاصة المثل**: بيان حال المشرك وخطر الشرك.

ومما يدل على خطر الشرك:

١) **أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله** –إلا بالتوبة-؛ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...}[100]

٢) **أنّ الله حرّم الجنة على المشرك**؛ {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}[101]

٣) **أن عمل المشرك حابط**، فلا ينتفع مهما عمل من أعمال؛ {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[102]

٤) **أنّ الله وصف الشرك وأهله بالنجاسة**؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}[103]

---

[99] [البقرة:٢٥٦]
[100] [النساء : ٤٨]
[101] [المائدة:٧٢]
[102] [الأنعام : ٨٨]
[103] [التوبة : ٢٨]

٥) أن الشرك مُذهِبٌ للأمن جالب للخوف؛ {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[١٠٤]

✷ وهنا **فائدة بلاغية في هذا المثل:**

في قوله -تعالى-: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ...}[١٠٥]: إظهارٌ في موضع الإضمار، فالسياق كان ممكن أن يكون: (حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك به...) أو (ومن يشرك فقد خرّ..)

لكنّ الله قال: **{ومن يشرك بالله}** فهذا يسميه العلماء: الإظهار في موضع الإضمار، أي جاء بالاسم الظاهر في موضع الضمير.

والإتيان بالظاهر في موضع الضمير له نكتة بلاغية هي أنّ إظهار اسم الله الجليل هنا لبيان قبح الإشراك بالله؛ فهذا المشرك أشرك بمَن؟! لم يشرك بوزير ولا أمير، بل أشركَ بالله العظيم! وفي هذا تأكيدٌ على شناعة هذا الأمر وعِظَمه.

نسأل الله العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يرزقنا الفهم في كتابه والعمل به، وأن يحيينا على التوحيد ويميتنا عليه.

---

[١٠٤] [الأنعام: ٨١-٨٢]
[١٠٥] [الحج: ٣١]

المثل السابع في موضوع **التوحيد والشرك** هو قوله –تعالى–: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}**[106]

والكلام على هذا المثل في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المَثَل:

هذا المثل جاء بعد جملةٍ من القوارع والحجج في تقرير توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، ومن ذلك قوله –تعالى–: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[107]

وقوله: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ}[108]

فبعد هذا التقرير لهذا الأصل؛ جاء المثل لبيان عجز هذه المعبودات من دون الله –تعالى–، وتصوير هذا العجز بمثالٍ حسّيٍّ مُدرَك مما يعرفه المستمعون.

المبحث الثاني: معنى المَثَل:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} يعني تدبّروه وتعقَّلوه وتفهَّموه.

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَه} هذه الأصنام والأنداد التي تعبدونها من دون الله لن تقدر مجتمعةً على خلقِ ذبابةٍ واحدة.

يعني لو جمعنا هذه المعبودات (الأصنام والأوثان والأحجار والأشجار...) وطلبنا منها جميعًا أن تخلق ذبابةً واحدةً فلن تستطيع أبدًا، وهي عاجزة عنه، فكيف بِخَلق ما هو أكبر من ذلك؟! هي عنه أعجز وأعجز.

وإذا كانت عاجزةً مع اجتماعها؛ فهي بانفرادها أشدُّ عجزًا، ثمّ أيضًا لو أنّ هذا الذباب استلبَ شيئًا؛ فهذه الآلهة لن تستطيع أن تستخلص ذلك من الذباب.

[106] [الحج : ٧٣]
[107] [الحج : ٦٢]
[108] [الحج : ٧١]

فيا لله العجب! هل بعد ذلك عجزٌ وضَعفٌ أكثر من هذا؟! فكيف تُتخذ آلهةً وهي لا تستطيع أن تستنقذ ما أخذه الذباب؟

ولذلك جاء التعقيب بعد ذلك بقوله: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}، والمفسّرون لهم رأيان في المشار إليه بالطالب والمطلوب:

الرأي الأول: أنّ الطالب هو المعبود من دون الله (الصنم أو الوثن)، والمطلوب هو الذباب؛ أي: ضعفَ هذا الوثن والصنم أن يستنقذ ما أخذه الذباب منه، فالصنم طالب، والذباب هو المطلوب.

الرأي الثاني لأهل العلم: أنَّ الطالب هم العابدون، والمطلوب هو تلك الآلهة المعبودة من دون الله، يعني انتقل الخطاب -بعد أن بيَّن عجز هذه الآلهة وضعفها وأنها لا تملك شيئًا- التفت إلى هؤلاء العابدين وقال: ضعف الطالب (أي: أنتم الذين تطلبون من هذه الآلهة) يعني: أرأيتم عجزها؟ أرأيتم ضعفها؟ أرأيتم حالها وأنها لا تملك لأنفسها ضرًّا ولا نفعًا؟ {ضعف الطالب} يعني أنتم حينما تطلبون من هذه الآلهة، وضعف {المطلوب} الذي تطلبونه وهو تلك الأصنام وتلك الأوثان.

- يقول الإمام القرطبي -رحمه الله- **نكتة** في هذا: وهي: **لماذا خصَّ الذباب من بين سائر الحيوانات والحشرات؟**

يقول: خص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته.

- **ومن اللطائف**: قالوا: هذه الحشرة سمّيت ذبابًا لأنه كلّما ذُبَّ آب (يعني كلما طُرد يرجع ويعود)، فنُحِتَ الاسم منه فقيل: ذُباب.

- وذكر أهل العلم أيضًا **فائدة في هذا** أن الله -تعالى- **ذكر أمر سَلْبِ الذباب** لماذا؟

قالوا: إنّ المشركين كانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب (يعني أهل الشرك في الجاهلية كانوا يطيّبون آلهتهم)، وكان الذباب يأتي على هذا الصنم ويذهَب بالطيب، فكانوا يتألمون من ذلك؛ فأُخذ هذا وجُعل مثَلًا: {وإن

يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه}، وهذا يدل على ضعف عقولهم؛ إذ كيف يتخذون مثل هذه الأحجار والأوثان آلهة يعبدونها!

وقد أنِفَ بعض عقلائهم –وهم قلة– من عبادة الأصنام حتى قبل الإسلام، وذُكِر أن رجلًا كان عنده صنم في بيته يعبده، وكان من عادته أنه إذا أصبح يأتي إلى هذا الصنم ويسجد له.

وفي يوم من الأيام على عادته ذهب إليه ليسجد له فرأى أن حيوانًا (ثعلبًا أو كذا) جاء وبالَ على رأسه، فتعجب من هذا المنظر وأنّ هذا الإله الذي يعبده على رأسه بول الثعلب! فغضب وأصابه ما أصابه وغسله بالماء ونظفه وطيّبه.

في اليوم الثاني لما أصبح وذهب رأى المشهد نفسه كالسابق (البول وقد لطخ به هذا الصنم)، ففعل كذلك.. وفي اليوم الثالث ذهب إليه فوجده كذلك فغضب وقال:

أربٌّ يبول الثعلبان برأسِهِ ... لقد خاب مَن بالَت عليه الثعالبُ

فأدرك أن هذا أمره خائب، ولا يصلح أن يكون إلهًا هذا الذي لا يدفع عن نفسه أن يُبال على رأسه.

قوله: {فاستمعوا له} تدبّروا وتعقلوا هذا المثل: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}: أي: هذه المعبودات والآلهة الباطلة مهما كانت من أحجارٍ وأشجارٍ أو نجوم أو كواكب..

{لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له} لو جمعناهم جميعًا عن بكرة أبيهم من أولهم إلى آخرهم ما استطاعوا أن يخلقوا ذبابة واحدة!

بل أشدّ من ذلك: ما يسلبه الذباب منهم لا يستطيعون أن يستنقذوه ويعيدوه، فإذا كانوا على هذا القدر من العجز والضعف فلا يصلح أن يكونوا آلهة.

وهذا المثل أقرب إلى معنى الصفة كما قرره جماعة من أهل العلم (كالزمخشري وغيره).

المبحث الثالث: وجه الشبه: العجز والضعف عن أخصّ صفات الإله وهي الخلق والإيجاد، لأن الإله من صفاته أنه يخلق، ولهذا قال الله –عز وجل– في خطاب عقلي: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ}[109]؛ فإذا كانت تلك الآلهة المعبودة عاجزة عن خلق هذا الحيوان الضعيف، بل على استنقاذ ما أخذه منه؛ فهي عن غيره مما هو أكبر وأشدَّ قوةً أعجزُ وأضعف.

- قال بعض أهل العلم: لو حققتَ لوجدت أنّ الصنم أضعف من الذباب، لأن الذباب حيوان والصنم جماد، والحيوان أقدر من الجماد، فدلَّ هذا على أن الأصنام في أحطّ رتبة وأخسّ منزلة.

[109] [النحل : ١٧]

المثل الثامن: ويندرج أيضًا تحت موضوع **التوحيد والشرك** قوله -تعالى-: **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}**[١١٠]

المبحث الأول: سياق المثل: والسياق في علم التفسير مما يعين على فهم المعنى، وما يعين على حسن تصور المعنى في سياقه ضمن آيات السورة.

فإذا استعرضنا هذه السورة التي ورد فيها هذا المثل -وهي سورة العنكبوت- نجد أن الله ذكر في هذه السورة عرضًا وإشارةً للأمم السابقة؛ فذكر قصة نوح، وأنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم انتقل إلى قصة إبراهيم مع قومه، ثم لوط مع قومه، ثم أصحاب مدين (طبعًا بعضهم إشارة، وبعضهم ذكر بعض المحاورات وما جرى منهم).

ثم قارون وفرعون وهامان؛ وهذه الأمم جميعًا اشتركوا في: الشرك بالله؛ فعبدوا أصنامًا وآلهةً تعلقوا بها فلم تغنِ عنهم شيئًا.

وذكَرَ الله بعد ذلك ما حلَّ بهم من العذاب والنكال كفاء ما نكبوا عن عبادة الله وحده وأشركوا به غيره.

فبعد هذا العرض؛ جاء هذا المثل في موقعه البديع تعقيبًا عامًا لكل مَن تعلق بغير الله ممَّن سبق وممن لحق، فكلُّ مَن تعلَّق بغير الله وطلب منه جلب النفع ودفع الضر فينطبق عليه هذا المثل.

المبحث الثاني: معنى المثل:

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ} يعني: مثل الذين عبدوا من دون الله أولياء يرجون نفعهم ونصرهم ويستدفعون الضر بهم مهما كانوا (سواء كانوا من جماد أو إنسان أو حيوان وسواء كان حيًا أو ميتًا اتخذوه وليًا يُعبَد من دون الله) فمثَل هؤلاء كمثل العنكبوت -والعنكبوت حشرة معروفة تنسج حول نفسها بيتًا لأجل أن يحفظها لكن بيتها أوهن البيوت، لا يغني عنها شيئًا عند الحاجة إليه-

فإذا هجمَ عليها شيء مهما صغر -ولو حشرة- فهذا البيت سرعان ما ينهار ويزول؛ فكذلك حال هؤلاء المشركين لا تغني عنهم آلهتم التي أمّلوا فيها والتي اتخذوها آلهة يعبدونها يرجون نفعها ونصرها عند الحاجة لا تغني عنهم شيئًا بل تتلاشى وتذهب في مهبّ الريح كبيت العنكبوت لا ينفع شيئًا، فحالهم كحالها.

---

[١١٠] [العنكبوت : ٤١]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به: الوهن والضعف والعجز عن الحماية.

فكما أن بيت العنكبوت لا يغني عنها شيئًا لضعفه ووهائه فهو يتمزق ويتلف لأدنى تحريكٍ، بل حتى نسمة هواء! فكذلك عابد الصنم وطالب الوثن الذي يطلب منه النفع ودفع الضر لا يحصل له شيء من ذلك.

- وهناك **لفتة أخرى** رأيت من أشار إليها من أهل العلم قال: كما أن بيت العنكبوت إذا هبَّت ريح لا يُرى منه عين ولا أثر وإنما يصير هباءً منثورًا؛ فكذلك أعمال المشركين التي تعبوا فيها فإنها عند الحاجة إليها تصير هباءً منثورًا {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}[111]
- **لفتة لغوية**: تنبيهٌ على خطأ قول مَن يقول: "أوهن من بيت العنكبوت"!، والله يقول: {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ} وقد أكدها بالمؤكدات، فالأفضل من باب التأدب مع القرآن وعدم الاستدراك عليه ألا يقال هذا.

المُمَثَّل به: العنكبوت وبيتها.

والممثل له: المشركون مع آلهتهم.

وجه الشبه: الوهن والضعف والعجز عن الحماية.

[111] [الفرقان:٢٣].

المثل التاسع: ضمن الموضوع الأول **(التوحيد والشرك)** قوله -تعالى-: **{ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}**[١١٢]

المبحث الأول: سياق المثل: لو استعرضنا السورة نجد أن هذا المثل جاء بعد آياتٍ جليلة وقوارع عظيمة تقرر أصلين عظيمين.

الأصل الأول: **تقرير الوحدانية والربوبية** من خلال آيات الله في النفس والكون، في قوله —تعالى-: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١١٣] واستمر ذكر الآيات بعد ذلك (ومن آياته.. ومن آياته..).

الأصل الثاني: **تقرير البعث بعد الموت وأنه أهون على الله من ابتداء الخلق**، وهذا أيضًا تكرر قبل المثل قال -تعالى-: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[١١٤] ثم قال بعدها: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[١١٥]

إذًا: هذا المثل جاء في هذه السورة بعد تقرير هاتين القضيتين الكبريين (تقرير الوحدانية والربوبية من خلال آيات الله في النفس والكون، وتقرير البعث بعد الموت وأنه أهون على الله من ابتداء الخلق).

المبحث الثاني: معنى المثل: يذكر الله أنه ضرب مثلًا: {ضرب لكم} والمخاطَب هم المشركون به في ذلك العهد من باب الإقناع بالحجة، يعني هذا المثل من واقعكم، من أنفسكم، مما تعايشونه، وهو أقرب شيء إليكم وأوضحه.

---

[١١٢] [الروم:٢٨]
[١١٣] [الروم : ١٩-٢١]
[١١٤] [الروم : ١١]
[١١٥] [الروم : ٢٧]

{هل لكم مما ملكت أيمانكم..} طبعًا في السابق كان الناس عندهم العبيد والإماء (المماليك)، فيقول الله لهم: هل لكم من عبيدكم –الذين هم معكم في بيوتكم– هل لكم من يشاركم في رزقكم وفي أموالكم بحيث ترون أنكم وإياهم متساوون في هذا المال، وأنكم تخافونهم كما تخافون الأحرار الشركاء في التقابل بالمال.

يعني: هل تتصورون وتقبلون أن يكون لكم شركاء في أموالكم من مماليككم كما يكون شريك الرجل الحرّ فيتحرّز منه ويتوقى في التعامل؟! هل تقبلون هذا؟

فالمراد نفي الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم وبين المملوكين، ونفي الاستواء معهم (التساوي)، ونفي خوفهم المماليك.

كل هذه الأشياء منفية عندهم ويأبونها أشدّ الإباء؛ فلا يرضون أن يشاركهم المماليك في أموالهم، ويرون هذا بعيدًا غير مقبول، ولا يرون أنهم يتساوون معهم، ولا يخافون المماليك كما يخافون الأحرار في شركتهم المالية.

فيقال لهم: فكيف ترضون بهذا الأمر في جنب الله؟! بأن تجعلوا له شريكًا مِن خلْقِه!

إذًا: المراد بهذا المثل: إقامة الحجّة على المشركين؛ لأنهم حين يطرح عليهم هذا المثل الذي هو عبارة عن سؤالٍ موجّهٍ إليهم: {هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}؟ سيكون جوابهم: لا، لا نرضى بذلك ولا نقبل.

فمن باب الإقناع بالحجة يقال لهم: إذا كنتم لا تقبلون بذلك ولا ترضون، وتنزّهون أنفسكم عن مشاركة المماليك –مع أنهم أمثالكم في البشرية–؛ فكيف تجعلون لله شركاء من خلقه؟ يعني أنتم جعلتم منزلتكم فوق منزلة الله –جل وعلا–!! أنتم تأبون مشاركة المماليك، لكن تجعلون لله شريكًا من خلقه!

- ومن وجه آخر: هؤلاء العبيد والمماليك ملكُ اليد عليهم قابل للنقل وقابل للزوال، يعني الرجل مثلًا إذا كان عنده مملوك فإن هذا الملك عرضة للزوال (إما الانتقال أو الزوال) ببيع، أو هبة، أو عتق.. أما مملوك الله فلا يمكن أن يخرج من هذا الملك والعبودية بوجه من الوجوه.
- وأيضًا هنا لفتة لطيفة: تأمل في قوله في المثل: {هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ **فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ**}[١١٦] يعني أنهم يأنفون أن يكون لهم شريك من المماليك في رزق الله، فالله هو الذي ساق إليهم هذا الرزق ومع ذلك يأبى أحدهم أن يشاركه فيه مخلوق.

[١١٦] [الروم: ٢٨]

وهذا يشير إلى أن الرزق الذي معهم ليس لهم في الحقيقة بل هو من الله، فهو في الحقيقة له، فإذا لم يجُز أن يكون لكم شريك في مالكم الذي هو مالكم اسمًا لكن حقيقة هو لله؛ فكيف يجوز أن يكون لله شريك فيما هو له من حيث الحقيقة؟!

ثم ختم الآية بقوله: {كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يعني: بمثل هذا البيان نبيّن البراهين والحجج لأصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

وفي هذا تعريض بالمتعنّتين في شركهم بأنهم ليسوا من أهل العقول وليسوا ممن ينتفعون؛ كما قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[١١٧]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الإنكار والاستبعاد والنفور؛ وذلك بتنزيل صورةٍ مما يأبونه ويرون شناعته بل لا يتصوَّرون وقوعه أصلًا على ما هم عليه.

يعني إذا كانوا ينكرون أن يكون لهم شركاء من عبيدهم في أموالهم يتحرزون حين التصرف في الأموال منهم كما يتحرزون من مشاركة الشرفاء الأحرار أصحاب الأموال؛ إذا كانوا يأبون وينكرون ذلك أشد الإنكار –مع أنهم مشتركون معهم في البشرية والعقل وكونهم مخلوقين– فكيف يجعلون لله –الذي له القدرة والغنى والملك والعلم المطلق– كيف يجعلون له شريكًا مخلوقًا عاجزًا فقيرًا من حجرٍ أو شجر! الاستبعاد شديد.

الممثل به: شراكة المملوك مع الحر في ملكه.

الممثل له: الشرك بالله وعبادة غيره.

وجه الشبه: الإنكار والاستبعاد.

[١١٧] [البقرة : ١٧١]

المثل العاشر ورد في سورة الزمر، يقول الله –تعالى–: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**[118]

المبحث الأول: سياق المثَل:

حينما ننظر فيما قبله نجد أن الله –تعالى– قال قبل هذه الآية: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[119]

فهذا إجمالٌ جاء بعده هذا المثل في أهمّ الأمور وأعظمها خطرًا وهو قضية التوحيد والشرك.

المبحث الثاني: معنى المثَل:

يقول الله –تعالى–: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ} يعني: أن الله –تعالى– ضرب مثلًا عبدًا مملوكًا لشركاء متنازعين، (والشركة في المملوك الواحد ممكن أن تكون بالشراء أو بالإرث –مثلًا– أو غيره، فيشترك في العبد مالكان أو ثلاثة.. أو أكثر).

فيضرب الله –عز وجل– مثَلَ هذا العبد المملوك الذي يملكه شركاء عدة، وليست القضية فقط في أن يملكه أكثر من مالكٍ واحد، لكن الإشكال أيضًا أنهم شركاءُ متشاكسون متنازعون، غير متسامحين ولا متفقين، فهم يشقّون على العبد في كثرتهم، كلُّ واحدٍ يريد حقه، وكل واحد لا يرضى ولا يتسامح بما يريد، فهذا العبد منهم في عنَتٍ ومشقة، كلما أرضى واحدًا غضِب عليه الآخر!

ولو قُدِّر أنه احتاج في أمرٍ مهمٍّ إليهم؛ فكلُّ واحدٍ يحوّله على الآخر، فهو في تعب، حيران في إرضائهم، وهو منهم في عنَتٍ ومشقة.

◁ في المقابل: تصوروا عبدًا له مالكٌ واحد، وهذا العبد يعرف سيده، ويعرف مراده، ويعرف ما يرضيه، فهو يخدمه بما يحب، وهو في تؤدة من أمره وطمأنينة وراحة.

فالعبد الأول والعبد الثاني لا يستويان مثلًا، ويا بُعد ما بينهما!

---

118 [الزمر:29]
119 [الزمر:27-28]

والمُمَثَّل له: هو المشرك، فهو في حيرة وشك، مشتَّتٌ، معذَّبُ الفكر بآلهته، فإذا تقرَّب إلى صنمٍ بالذبح؛ تفكَّر فيما يصنع للصنم الآخر، فهو في ضلالٍ من أمره، وهو في أمرٍ مريج، يبقى متحيّرًا ضالًا لا يدري أيّ هؤلاء الآلهة يعبد؟! وعلى ربوبية مَن يعتمد! ويطلب رزقه ممَّن؟ وممَّن يلتمس رفقه؟!

أمّا المؤمن الموحد فهو في راحة واطمئنان، تفرَّغ لعبادة مولاه وحده لا شريك له، فهو منشرح الصدر، قرير العين، وربه يغفر زلّته، ويشكره على عمله.

ثم قال بعد ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} يعني: الثناء الكامل التام لله وحده، بل المشركون لا يعلمون الحق فيتبعونه.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثل به: العبد المملوك لشركاء متشاكسين، والعبد المملوك لمالك واحد.

الممثل له: المشرك بالله آلهة أخرى، والموحِّد.

وجه الشبه: التشتت والعَنَت والمشقّة عند الأول، في مقابل الطمأنينة والراحة عند الثاني.

ويمكن القول إن وجه الشبه: كثرة الشركاء وحيرة قلبه بينهم، لأن الشرك يولّد الحيرة، والاضطراب والتعب.

وفي هذا المثل: تقبيح الشرك، وأنّ حال المشرك في تشتُّت وفي عَنَتٍ وفي مشقة، وفي المقابل: تحسين التوحيد وأن الموحد في حال اطمئنان وراحة.

بهذا نكون قد انتهينا من الموضوع الأول من الموضوعات التي قلنا إن الأمثال القرآنية أتت عليها وهو التوحيد والشرك، ونكون أتممنا دراسة عشرة أمثال قرآنية كلها تدور في دائرة هذا الموضوع.

❖ ننتقل الآن إلى **الموضوع الثاني** وهو: **الحق والباطل:**

والمثل الأول في هذا الموضوع هو قول الله -تعالى-: **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}**[١٢٠]

هذه الآية الواردة في سورة الرعد هي مثلٌ قرآني في هذا الموضوع، نتكلم عنه في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

لو رجعنا إلى سورة الرعد التي ورد فيها هذا المثل نجد أن هذا المثل جاء بعد قوله تعالى -: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}[١٢١] وهو أول مثل بدأنا به- حيث ذكر الله -تعالى- أن هناك دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أن دعوة الله هي الحق، ودعوة الشركاء من دونه هي دعوة الباطل، ثم قال بعدها: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[١٢٢]

يعني أن الله -تعالى- يقرر أنّ هناك باطلًا وحقًا، والباطل: هو ضلالُ جعل الشركاء معه، والحق: هو استحقاقه العبادة وحده لا شريك له، يقرّر ذلك من خلال تقرير ربوبيته وأنّ المؤمن الموحد كالمبصِر في بهاء النور، والمشرك كالأعمى الذي يتخبط في غياهب الظلام، لاحظ قال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ}[١٢٣] فالأعمى المشرك، والبصير: الموحد.

{أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} الظلمات: هي الشرك، والنور: هو التوحيد.

---

[١٢٠] [الرعد:١٧]
[١٢١] [الرعد : ١٤]
[١٢٢] [الرعد : ١٦]
[١٢٣] [الرعد:١٦]

ثم بعد ذلك جاء هذا المثل في موقعٍ حَسَنٍ في تشبيه صورة الحق والباطل بأمرٍ محسوسٍ مُشاهَد عند الناس.

المبحث الثاني: معنى المثل:

في هذه الآية (آية المثل) ضرب الله –تعالى– مثلًا للحق والباطل بمثَلَين، فهذه الآية في الحقيقة يمكن أن تُعدَّ مثَلَين: المثل المائي، والمثل الناري:

- **المثل المائي**: وذلك صورة ما أنزله الله من السماء، فتصوَّر مطرًا نزل من السماء؛ فجَرَت به أودية الأرض؛ وهذه الأودية تجري بحسب حجمها صغرًا وكبرًا، والسيل حينما يجري في الوادي يتجمع حوله وفوقه الغثاء (الزبد الذي يكون كالرغوة) ويتجمع خشاش الأرض، وهذا الغثاء يكون طافيًا فوقه، أي أنّ هذا السيل يحمل الغثاء فوقه زبدًا رابيًا، وهذا الزبد لا نفع فيه.

فالماء الصافي العذب هو الحق الناصع، والغثاء هو الباطل الذي يغرّ الناس بظهوره لكنه سرعان ما يتلاشى ويذهب ويبقى الماء الصافي.

والحق هو الوحي الذي ينزل على القلوب كما ينزل المطر على الأرض، فالمطر ينزل على الأودية، وفي المقابل: الوحي ينزل على القلوب؛ فالقلوب مشبهة بالأودية؛ لأنّه كما أن الوادي يشتمل على الماء فالقلوب تشتمل على الوحي، وكما أن المياه تستقر في الأودية وكذلك الوحي يستقر في القلوب، وكما أن الأودية متفاوتة ففيها الضيّق وفيها الواسع، فكذلك القلوب يحصل فيها من أنوار الوحي وهدايات الحق بحسب هذا القلب طهارةً وخبثًا، وبحسب قوة فهمه أو قصور فهمه.

وكما أن الماء الجاري في الأودية يعلق به ما يحمله من الغثاء والزبد؛ فكذلك الحق في القلب يخالطه شكوك، وشبهات، وشهوات من باب الابتلاء والامتحان ليتميز الحق صافيًا نقيًا.

- **ننتقل إلى الشق الثاني وهو المثل الناري** في قوله تعالى: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ}[١٢٤]: يعني المعادن التي يُوقَد عليها في النار لصهرها (مثل الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص..) إما طلبًا للزينة (كالذهب للنساء)، أو طلبًا لمنافع ينتفعون بها كالأواني والدروع وغيرها.

---

[١٢٤] [الرعد: ١٧]

فالحديد –مثلًا– يُعرض على النار فيذهب خبثه، ويبقى الباقي يصنع منه ما يحتاجه الناس من أشياء كثيرة (أوانٍ وأدوات، سيوف، دروع...).

فحينما تُعرض هذه المعادن على النار تخرج خبثها، أي: يخرج الخبث والدغل الذي لا فائدة منه، يخرج منها كالزبد الطافي على الماء؛ فهذا الخبث هو الباطل المزيف، وأما ما يبقى بعد صهر النار في المعدن فهو النقي النافع، وكذلك الحق يبقى وإن تلبَّس به الباطل وَشَوَّش عليه لكن سرعان ما يَميزُ الله الخبيث من الطيب.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[125] يعني كما بيَّن الله لكم هذه الأمثال؛ يضربها للناس ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

إذًا هذه الآية تضمنت مثلين: مثلًا مائيًّا، ومثلًا ناريًّا، وكلاهما في تصوير الحق والباطل.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الثبات والبقاء، في مقابل الاضمحلال والذهاب؛ وكما تحيا الأرض بالماء تحيا القلوب بالعلم.

فمثَل الحقّ في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض وينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء فهو وإن علا وربا أول الأمر، إلا أن الماء يقذف به فيتلاشى ويضمحل.

كذلك في الجانب الناري؛ ما يخلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس ونحوها هو الحق، وما يذهب في الدخان فهذا مثله مثل الباطل.

الممثل به: ماء السيل في الوادي والزبد عليه (المثل المائي)،

والمعادن في النار وخبثها الخارج منها والباقي النقيّ (المثل الناري).

الممثل له: الحقّ والباطل.

وجه الشبه: ثبات الحقّ، واضمحلال الباطل وزواله.

[125] [الرعد : ١٧]

ولعلنا نختم الكلام على هذا المثل **بوقفة** وهي أنّ الصراع بين الحق والباطل قضية قرآنية تعدَّد ورودها وتنوَّعَ في ثنايا القرآن على وجوهٍ شتى، ويضيق المقام عن شرح ذلك وتفصيله لأنه ليس هذا محل الكلام عليه، لكن لا ينبغي – بما أننا ضربنا المثال وتكلمنا عليه– أن نُفَوِّت التذكير ببعض آيات القرآن الخالدة في هذا الباب. فهذه يجب أن تكون على ذكرٍ منّا؛ ومنها قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}[١٢٦] يعني ذاهب زائل.

وفي قوله –تعالى-: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[١٢٧]

وفي قوله –تعالى-: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[١٢٨]

وقوله: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}[١٢٩]

وأيضًا لو استعرضنا قصص الأنبياء والصالحين في مواجهة المعرضين والمكذبين نجد أن هذه شواهد حيَّة في تقرير الصراع بين الحق والباطل، ومهما طال الصراع وقوي إلا أن الوعد الإلهي يجيء بلسمًا للنفوس حينما يُداخلها شيء من اليأس والإحباط.

فكثيرًا ما يدب في نفوسنا –خاصة في ضغط الأوضاع وتمكُّن أهل الباطل وتسلط أهل الشر– هنا النفوس يداخلها شيء من اليأس، ويصيبها شيء من الإحباط، لكن هناك بعض الآيات يحسُن أن يسلي الإنسان نفسه بها: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}[١٣٠]

وكقوله –تعالى-: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[١٣١]

الحق واحد والباطل متعدد، فلا تغرنّك كثرة الأقوال، ولا تغرنّك زخرفة أصحابها وإن زخرفوه لك بالقول وحسنوه في العرض فالباطل أودية وشعاب؛{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}[١٣٢] فاثبت على سبيل الله الصراط المستقيم ولا تتخطفنّك هذه السبل {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}[١٣٣]

---

[١٢٦] [الأنبياء : ١٨]
[١٢٧] [الإسراء : ٨١]
[١٢٨] [الأنفال : ٨]
[١٢٩] [سبإ : ٤٩]
[١٣٠] [الصافات : ١٧١-١٧٣]
[١٣١] [الروم : ٤٧]
[١٣٢] [الأنعام : ١٥٣]
[١٣٣] [الأنعام : ١٥٣]

ثم أيضًا هنا **فائدة أخرى**:

وهي أن الصراع بين الحق والباطل له ميدانان؛ الميدان الأول داخلي، والميدان الثاني خارجي، يعني هناك صراع بين الحق والباطل **في داخل نفسك**: وهذا يجده الإنسان حين يتجاذبه أحيانًا داعي الحق والرحمن، ويأتيه أيضًا داعي الشيطان؛ لأن النار حُفّت بالشهوات يعني ما تشتهيه النفوس، فالإنسان يشتهي بعض الأشياء التي تهواها نفسه لكنها تحيد به عن طريق الحق، وهذا عند الرجل وعند المرأة، فالرجل عنده أشياء تخصه، والمرأة عندها أشياء تخصها، وهناك أشياء مشتركة بينهما، والإنسان تحدّثه نفسه أن يفعل كذا أو أن يجري مع الناس.. كل الناس كذا... يأتيه أحيانًا صراع بين الحق والباطل مكانه وميدانه داخل النفس.

والميدان الآخر معروف هذا **خارج النفس**: يعني في المجتمع صراع بين أتباع الرحمن وأتباع الشيطان، صراع بين المسلم والكافر، صراع بين المؤمن والمنافق، صراع بين أصحاب الإيمان وأصحاب الشهوات والشبهات، هذا كثير ومتنوع، والمجالات في هذا كثيرة.

نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت على الحق، وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله ملتبسًا علينا فنضلّ، وأن يهدينا سواء الصراط وأن يشرح صدورنا بالإيمان ويرزقنا الفقه وفهم القرآن وأن ينفعنا بما سمعنا إنه سميع مجيب.

❖ **الموضوع الثالث** وهو: **المؤمن والكافر:**

● **المثَل الأول** فيه: هو قوله -تعالى-: **{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[١٣٤]

هذا المثَل ذكره الله -عز وجل- وضربه في سورة الأنعام لبيان حال المؤمن وحال الكافر، والكلام عليه في ثلاثة مباحث كما تعودنا:

المبحث الأول: سياق المثَل:

وفهم السياق مُعِين على فهم الآية سواء كانت مَثَلًا أو غير مثل وهو مما اعتنى به أهل العلم والتفسير، وهذه الآية (آية المثَل) مسبوقة بآياتٍ ذكرَ الله -تعالى- فيها الصراعَ بين الحق والباطل، وأنه لم يسلم حتى الأنبياء من عداوة شياطين الإنس والجن، الذين يزيّنون باطنهم بزُخرف القول، {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[١٣٥] لأجل أن يخدعوا به الناس ويلبِّسوا عليهم.

ثم بيّن الله -تعالى- في الآيات السابقة لهذا المثَل أنَّ أكثر أهل الأرض ضالّون متَّبعون للظن، وأنَّ كثيرًا منهم يُضِلُّون غيرَهم بأهوائهم بغير علم؛ وأمامَ هذا الابتلاء تمايَزَ الناس إلى مؤمنٍ وكافر، وجاء هذا المثَل مُجَلِّيًا الفرق الكبير والبون الشاسع بينهما (بين المؤمن والكافر) ترغيبًا وتثبيتًا على الإيمان، وتحذيرًا وتنفيرًا من الكفر وأهله.

المبحث الثاني: المعنى الإجمالي للمَثَل:

يقول الله -تعالى- في هذا المَثَل: هل يستوي من كان كافرًا هالكًا حائرًا في الضلالة فهداه الله للإسلام وأحيا قلبه بالإيمان والقرآن وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأصبحَ يعيشُ في أنوارِ الهداية ويميّز الحقَّ والباطل، مَن كانت هذه صفته هل يستوي هو ومن كان في ظلمات الكفر والضلالات {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك؟!

والجواب: لا يستويان ويا بُعدَ ما بينهما!

---

[١٣٤] [الأنعام: ١٢٢]
[١٣٥] [الأنعام: ١١٢]

وهذه الآية قيل في سبب نزولها: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب –رضي الله عنه– وأبي جهل، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله –ﷺ– بفرثٍ، وحمزة (كان لم يؤمن بعد) وكان غائبًا فلما حضر أُخبِرَ بما فعله أبو جهل فأقبلَ حتى علا أبا جهل بالقوس، فقال له أبو جهل: أما ترى ما جاء به؟ سَفَّهَ عقولنا وسَبَّ آلهتنا! فقال حمزة –رضي الله عنه–: ومَن أسفهُ منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فنزلت هذه الآية.

وعلى هذا: يكون الذي كان ميتًا فأحياه الله هو حمزة، والذي هو في الظلمات ليس بخارجٍ منها أبو جهل.

◁ وفي حال ثبت هذا السبب أو لم يثبت؛ فالآية أعمّ، وهي **تشمل كل كافر هداه الله إلى الإيمان، والكافر الذي بقيَ في رجسه وفي ظلمات الكفر والضلال**. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ونظير هذه الآية: قوله –جل وعلا–: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}[١٣٦]

وقد تكرر وصفُ الكفار بأنهم أموات، وهذا كثير في القرآن منه قوله –تعالى–:{إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ}[١٣٧]، وقوله –سبحانه–: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ}[١٣٨].

المبحث الثالث: وجه الشبه بين المُمَثَّل به والمُمَثَّل له:

نورُ الحياة وظلمة القبر يقابلها نور الإيمان والهداية وظلمة الكفر والغواية، وهذا يدعونا إلى تذكُّرِ أوّل هذه السورة (سورة الأنعام) التي افتُتحت بقوله –تعالى–: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[١٣٩]

الممثل به: الحي الذي يمشي في النور، والميت في الظلمات.

الممثل له: المؤمن، والكافر.

وجه الشبه: النور، والظلمات

[١٣٦] [البقرة : ٢٥٧]
[١٣٧] [النمل : ٨٠]
[١٣٨] [فاطر : ٢٢]
[١٣٩] [الأنعام : ١]

نتحدث الآن حول هداياتٍ من وحي المثَل لأنَّ هذا المثَل كما قلنا مضروبٌ للإيمان والمؤمن وما يقابله، وهنا **بعض الوقفات والهدايات حول هذا المثل:**

◀ **الوقفة الأولى:** أنَّ الله –جل وعلا– خلقَ الإنسانَ وركَّبه من روحٍ وجسد، ولكلٍّ منهما خصائص تختلف عن الآخر، كما أنَّ كلًّا منهما (الروح والجسد) يحتاج إلى غذاء يُمِدُّه لأجل أن يبقى حيًّا، فالجسد غذاؤه الطعام والشراب المعروفَين ولو تركهما لمات، والروح غذاؤها الإيمان الذي يُمِدُّها بالحياة الحقيقية، الحياة الطيبة التي هي النور والسعادة والطمأنينة كما قال –جل وعلا– في الآية: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[١٤٠]

والإيمان هو أعظم المطالب وأجلُّ المواهب، به تطمئنُّ النفوس وتطيب الحياة، وتنبعثُ الهِمم، ويأنسُ الضعيف ويسلو المهموم، وبه تُنالُ سعادة الدنيا والآخرة.

وحينما يتحدث الناس ويتفنَّنون في أصناف المطاعم والمشارب فثَمَّةَ حاجةٌ بنا إلى الحديث عن طعام الروح، وعن غذائها والتعرُّف على أصناف هذا الغذاء، وإحياء المجالس بمذاكرته ومباشرته، فالناس الآن يتهافتون في الطعام المعروف (طعام الجسد)، وأصبحت هناك المطاعم الكثيرة، والناس يتناقلون الصور والمقاطع وما إلى ذلك في هذا، لكن لا يوازي هذا عنايتهم بطعام الروح وغذائها!

وحينما تتطلع النفوس أيضًا إلى الحلويات من الأطعمة فإنَّ الإيمان أيضًا له حلاوة، وله طعم؛ يقول النبي ﷺ في الحديث: "ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا"[١٤١].

وأيضًا في الحديث المشهور يقول –ﷺ–: "ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهُما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفرِ كما يكرهُ أن يُقْذَفَ في النارِ"[١٤٢]

و**حلاوة الإيمان** هي استلذاذ الطاعات، وتحمُّل المشقّات في رضا الله –عز وجل–، هي انشراح الصدر، ولذَّة القلب، يتذوَّقُها مَن حقّق المحبة؛ فهذه الثلاثة المذكورة في الحديث نجد أنها تجتمع في المحبة؛ محبة الله ورسوله، ومحبة المؤمنين، ومحبة الدين (أن يكره أن يعود في الكفر لأجل محبته لهذا الدين الذي هو عليه).

---

[١٤٠] [الأنعام : ١٢٢]
[١٤١] صحيح مسلم
[١٤٢] أخرجه البخاري ومسلم

- ولهذا يصف بعض الصالحين الذين تذوّقوا هذه الحلاوة فيقول: "إنه ليمرُّ بالقلب ساعات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي نعيمٍ طيّب".

- ويقول آخر: "إنَّ في الدنيا جنةً مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة" وهي جنة الإيمان بما فيه من السَّعة والانشراح والطيب.

الوقفة الثانية: **ثمرات الإيمان**: وهذا المثَل فيه إشارة إلى بعضها، فمِن ثمرات الإيمان: **الحياة الطيبة**: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[١٤٣] حياةً بعدَ موت، فالحياة الطيبة وطيب العيش وسعادة المرء في أيامه ولياليه، هذه ثمرة من ثمرات الإيمان كما قال –جل وعلا– في الآية الأخرى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}[١٤٤]

ومن ثمرات الإيمان: **الأمنُ والهداية**، وبحسب الإيمان يحصل الأمن والاهتداء في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[١٤٥]

ومن ثمرات الإيمان: **الاستخلاف في الأرض والتمكين والعزّة**: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}[١٤٦]

ومن ثمرات الإيمان: **دخول الجنة والنجاة من النار**، وهذه غاية ومطلب كل مسلم، كما قال –جل وعلا–: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[١٤٧]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}[١٤٨]، والآيات في هذا كثيرة.

ومن ثمراته أيضًا: **حصول وحلول الخيرات ونزول البركات** كما قال –سبحانه–: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[١٤٩]، ومن بركات السماء: هذا المطر الذي يُحيي به الأرض ويُنبت به الزرع.

---

[١٤٣] [الأنعام: ١٢٢]
[١٤٤] [النحل: ٩٧]
[١٤٥] [الأنعام: ٨٢]
[١٤٦] [النور: ٥٥]
[١٤٧] [الحج: ١٤]
[١٤٨] [الكهف: ١٠٧-١٠٨]
[١٤٩] [الأعراف: ٩٦]

ومن ثمرات الإيمان: **الهداية لكل خير**: {وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[150]، {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}[151]، قال بعض السلف في هذه الآية: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم، **فالثبات عند المصائب، والطمأنينة، والربط على القلب** ونحو هذه المعاني كل هذه من آثار الإيمان وثمراته، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ}[152] يعني: بسبب إيمانهم.

ومن ثمراته: **الفوز بولاية الله** كما قال –جل وعلا–: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا}[153] أي: أن الله –تعالى– يتولّى عباده المؤمنين وينصرهم، ومن شواهد ذلك: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[154]، {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[155]، {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ}[156]

ومن ثمراته: **السلامة من الخسارة**: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[157]

ومن ثمرات الإيمان أيضًا: **تكفير السيئات**: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[158]

ومن ثمرات الإيمان أيضًا: **الرفعة والعزة والعلوّ** كما قال –سبحانه–: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[159]، وقال –سبحانه–: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[160]

فهذه إحدى عشرة ثمرة من ثمرات الإيمان، وكلّها من وحي هذا المثل.

◣ **الوقفة الثالثة**: ما يقابل ذلك وهو **ضعف الإيمان**، قال –تعالى–: {فأحييناه وجعلنا له نورًا}؛ فهذا النور يقوى ويضعف، وكذلك الإيمان يضعف ويقوى، وهناك أسباب لزيادته وأسباب لنقصانه؛

✯ **ومن أسباب زيادته**: التعرُّف على الله –تعالى– بأسمائه وصفاته، وكلما زادت معرفة العبد بربّه زاد إيمانه به.

[150] [الحج : ٥٤]
[151] [التغابن : ١١]
[152] [يونس : ٩]
[153] [محمد : ١١]
[154] [الحج : ٣٨]
[155] [الروم : ٤٧]
[156] [يونس : ١٠٣]
[157] [العصر : ١-٣]
[158] [محمد : ٢]
[159] [المجادلة : ١١]
[160] [المنافقون : ٨]

☆ ومنها: النظر في آيات الله الكونية والشرعية، وآيات الله الكونية هي مخلوقاته، هذه المخلوقات العجيبة: الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والسماء والأشجار والبحار والأنهار والطيور والحيوانات وسائر المخلوقات... ولهذا يتكرر في القرآن الدعوة إلى النظر والتفكر: {قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ}[١٦١]، والآيات في هذا كثيرة.

وكذلك النظر في الآيات الشرعية وهي الآيات المتلوّة في القرآن.

والنظر في الآيات الكونية يُسمّى تفكُّرًا، والنظر في الآيات الشرعية يُسمّى تدبُّرًا، ولهذا لابدّ مَن أراد أن يُحيي جذوة الإيمان في قلبه أن يُعمِل هذين الأمرين (التفكُّر في الآيات الكونية، والتدبُّر في الآيات الشرعية).

ونرجو أن يكون هذا المجلس بابًا من أبواب التدبُّر، لأنّ الأمثال جزءٌ من الآيات الشرعية.

☆ ومما يزيد الإيمان: التقرب إلى الله بالعمل الصالح، فإنّ جنس العمل الصالح يزيد الإيمان كمًّا وكيفًا، وكلما أكثرَ الإنسان من العبادة والطاعة زاد إيمانه.

☒ وفي المقابل: **المعصية تُنقِص الإيمان**، وينقص الإيمان بضدّ هذه الأشياء (التي ذكرنا أنه يزداد بها).

- ومن **مظاهر ضعف الإيمان** التي نجدها في أنفسنا ونسأل الله العفو والصلاح: قسوة القلوب، وكثرة الذنوب، وقحط العيون، ضعف القلب في سيره وفي حرصه على الطاعة، وثقل الطاعات على النفوس.
- ومن مظاهر ضعف الإيمان: قلة الاهتمام لمواسم الخيرات وعدم الاكتراث لفواتها؛ تجد مثلًا الرجل تفوته صلاة الجماعة وتفوته السنن المؤكدة، ويمرّ رمضان وعشر ذي الحجة –مثلًا– والقلب بارد لا يتحرك!
- ومن مظاهر ضعف الإيمان: فقد الإحساس بلذة العبادة وحلاوة المناجاة وطول القيام والتأثُّر بقراءة القرآن.
- ومن مظاهره: الوقوع في المعاصي، وضعف جانب الحياء من الله، وضعف استشعار مقام المراقبة والقرب.

ولينظر العبد إلى قلبه في الصلاة وقراءة القرآن، وفي حال الذكر والدعاء أهو حاضرٌ حيّ أم غافلٌ لاه؟! فهذا ميزان.

- ومن مظاهر ضعف الإيمان: ضيق الصدر وسوء الخُلُق، فتجد أحدهم ضيق العطِن لا يتحمل كلمة ،ولهذا نجد كثرة شكوى الناس من ذلك، وربما سمّوه بأسماء أخرى كالطفش والضيق، وقد قال النبي –ﷺ– في الحديث: "الإيمان الصبر والسماحة"[١٦٢]، ووصف النبي –ﷺ– المؤمن أنه يألف ويؤلَف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

---

[١٦١] [يونس : ١٠١]
[١٦٢] رواه أحمد بسند صحيح

- ومن مظاهر ضعف الإيمان أيضًا: قلة الاكتراث لمصاب المسلمين وضعف التأثر مما يحلُّ بهم من كُرَب وكوارث، فتحصل النوازل العظيمة والكوارث العصيبة وهو بارد الشعور متبلد الإحساس! وقد جاء في الحديث عنه -ﷺ- أنه قال: "المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسدُ لما في الرأس"[١٦٣]
- ومن مظاهر ضعف الإيمان: الفزع والجزع عند المصائب، فإذا حصلت مصيبة أو مشكلة (مثلًا مرض في نفسه أو في ولده، أو مثلًا خسارة في مال، أو نقص في رزق، أو موت لقريب وحبيب، أو غير ذلك من صور البلاء) تجد أحدهم يفزع ويجزع وتخورُ قُواه وتضيقُ نفسه، وتسودّ الدنيا في عينيه، وتركبه الهموم، وتسوء منه الظنون، وهذا من مظاهر ضعف الإيمان، وإلا فلو كان العبد قويّ الإيمان لتَلَقَّى هذه المصائب بقلبٍ ثابت، ونفسٍ قوية رابطة الجأش، يصبر ويثبت ويحتسب؛ لأنه يوقن بإيمانه القوي أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فهذه الحقيقة نصفُ سطرٍ تعادل أدوية نفسية لا تُعدّ ولا تُحصى لكن لمن؟ لمن أيقنَ بها.

◣ **الوقفة الرابعة:** في قوله -تعالى- لاحظ تأمّل، نحاول نختم به، في قوله: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[١٦٤] يعني أنه معه هذا النور أينما حلَّ وتقلّب فهذا النور معه، وفي قوله: {فِي النَّاسِ} إشارة إلى بركة الإيمان والمؤمن، يعني أنّ نوره لا يقتصر على صاحبه فقط وإنما يتعدّى إلى مَن حوله، وهكذا المؤمن تجده مُبارَكًا لما عنده من العلم والعمل، حتى لو لم يتكلم بكلمة فَسَمْتُه وخُلُقُه وعبادته تُعتبر دعوة للناس ولو لم يتكلم بكلمة واحدة!

◣ **الوقفة الخامسة:** وهذا أيضًا ملحظ ذكره بعض المفسرين في قوله -تعالى- في هذا المثل: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[١٦٥] جاء النورُ مفردًا، والظلمات جمع، قالوا: لأنّ طريق الحق والهداية واحد، وطرق الكفر والغواية متعددة، ونظير هذا في قوله -تعالى-: {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}[١٦٦]، والسبل: الطرق؛ لأن طرق الضلالة كثيرة متعدّدة، أما طريق الحق فهو واحد.

[١٦٣] رواه أحمد بسند صحيح
[١٦٤] [الأنعام: ١٢٢]
[١٦٥] [الأنعام: ١٢٢]
[١٦٦] [الأنعام: ١٥٣]

المثل الثاني في موضوع **المؤمن والكافر**: يقول الله -عزّ وجلّ- في سورة هود: **{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}**[١٦٧]

المبحث الأول: سياق المثَل:

هذا المثل هو الآية الرابعة والعشرون من سورة هود، وقد ذكر الله قبلها حال الكفار ومآلهم في عدة آياتٍ؛ قال -تعالى-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[١٦٨] فساق عدة آيات في هذا، ثمّ أردفها بذكر حال المؤمنين أيضًا ومآلهم لكن في آيةٍ واحدة فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٦٩]

فلما ذكر حال الكافرين ومآلهم، ثمّ أتبعهم بحال المؤمنين ومآلهم؛ ضرب للفريقين مثلًا هو هذا المثل.

المبحث الثاني: معنى المثَل:

خلاصته: أن مثَل فريقَي الكُفر والإيمان، كمثل شخصٍ أعمى لا يرى، وأصمّ لا يسمع، وآخر سميع بصير يسمع ويرى، فهكذا حال فريق الكفر وفريق الإيمان، فريقُ الكفر لا يبصر الحقّ فيتّبعه، ولا يسمع داعي الله فيهتدي به، وفريق الإيمان قد أبصرَ الحقّ فاتبعه، وسمعَ داعيَ الله فأجابه.

ثم يأتي السؤال: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا}؟

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}: أفلا تعتبرون وتتفكرون!

فهذا المثل فيه تشبيه حال الفريقين: المشركين والمؤمنين بحال الأعمى الأصمّ من جهة، وحال البصير السميع من جهة أخرى.

---

[١٦٧] [هود: ٢٤]
[١٦٨] [هود:١٨]
[١٦٩] [هود:٢٣]

فشبَّهَ فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانية الله بحال الأعمى، وشبَّههم في عدم الانتفاع بأدلة القرآن الذي يُتلى عليهم بحال الأصمّ الذي لا يسمع (فهم لا يسمعون سماع انتفاع).

وهذا كما وصفهم في قوله –تعالى–: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ}[170] مع أنهم يبصرون ويسمعون ويتكلمون، لكنهم صمٌّ عن سماع الحقّ...

وفي المقابل: شبَّهَ فريق المؤمنين بضدّ ذلك تمامًا، فشبَّههم بحال مَن كان سليم البصر، سليم السمع، فهو على هدًى ويقين.

وهذا المعنى الذي يشير إليه المثل (نفي المساواة بين الفريقين) تكرَّر في القرآن، ومن شواهد ذلك: قوله –تعالى–: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ..}[171]

وقوله –تعالى–: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}[172]

وقوله: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[173]

وهذا المثل –على قصره– **يحتمل أن يكون مثَلين اثنين، ويحتمل أن يكون مثلًا واحدًا**؛ فلو أخذنا باحتمال المثلين؛ يكون المثل الأول: ضرب مثل المؤمن بالبصير والكافر بالأعمى، والمثل الثاني: ضرب مثل المؤمن بالسميع، والكافر بالأصمّ.

وعلى الاحتمال الثاني (أن الآية مثل واحد): يكون المثل مضروبًا لحال المؤمن بالبصير السميع، وحال الكافر بالأعمى الأصمّ، وعلى هذا الاحتمال يكون العَطف في قوله –تعالى–: {الأعمَى وَالأَصَمّ}، وقوله: {والسَّميع والبصير} من باب عطف الصفات، لا من باب عطف الذوات، كقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

فالملك القرم هو نفسه ابن الهمام، وهو نفسه ليث الكتيبة؛ لكن هذا يسمونه: عطف الصفات.

[170] [البقرة : ١٨]
[171] [فاطر: ١٩-٢٢]
[172] [الحشر : ٢٠]
[173] [سورة القلم: ٣٥-٣٦]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثّل به والممثَّل له: هو الانتفاع وعدمه؛ فكما انتفع السميع البصير بحواسه، بخلاف الأعمى والأصمّ؛ فكذلك حال المؤمن والكافر في الانتفاع بالدلائل والبراهين، فالمؤمن انتفع بها، والكافر لم ينتفع، فجاء المثل لبيان حال هؤلاء وحال أولئك بصيغة هذا المثل الذي يُظهر المعاني في صورة المحسوس (وهذه من فوائد المثل كما ذكرنا وتكرر معنا سابقًا).

الممثل به: الأعمى والأصمّ، والبصير والسميع.

الممثل له: فريق الكفر، وفريق الإيمان.

وجه الشبه: عدم الانتفاع عند الأول، والانتفاع عند الثاني.

❖ **الموضوع الرابع: النَّفَقة والمُنفِقون:** وهذا الموضوع ورد فيه عدة أمثال:

المثل الأول تحت هذا الموضوع: هو قوله -تعالى-: **{مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**[١٧٤]

هذه الآية في سورة البقرة عبارة عن مثل ضربه الله -تعالى- لحال المنفقين في سبيله لبيان مضاعفة أجورهم.

المبحث الأول: سياق المثَل:

قبلَ هذا المثل بآيات قال الله: -جل وعلا-: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...}[١٧٥] فجاء التعبير بأضعاف كثيرة مُجمَلًا، ثم جاء التفصيل بعد الإجمال، كأنّ قائلًا قال: ما قدر هذه الاضعاف؟ فجاءت هذه الآية في بيان تلك الأضعاف.

وهناك وجهٌ آخر: لمّا ذكر الله -عز وجل- قصّة الذي {مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا...}[١٧٦] وبعدها قصة إبراهيم -عليه السلام-: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...}[١٧٧] وهاتان القصّتان من أدلّ الأدلّة على البعث، فذكر الله -جلّ وعلا- ما يُنتفَع به في ذلك اليوم وهو الإنفاق في سبيله، لأنّ الإنسان لا يعنيه فقط مجرّد العلم أنّ هناك بعثًا، وإنما هذا البعث يحتاج إلى عدّةٍ واستعداد لذلك اليوم العظيم الذي تُنشر فيه الدواوين، ويكون الحساب والجزاء، وكلٌّ يأخذ كتابه، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، فلا بد أن يأتي عليك يوم البعث وقد حملتَ ما ينفعك من الزاد.

فبيَّنَ الله -بعد تقرير البعث- أنَّ من أفضل الزاد الذي يُنتفع به: النفقة في سبيل الله، ولذلك يقول الله -عز وجل- في آيةٍ أخرى: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ}[١٧٨] فهذا الذي جاءه الموت طلب الإنظار والتأخير لأجل هذا العمل (الصدقة والنفقة) ولم يقل: فأصلي، أو فأفعل كذا من أبواب الخير.. وإنما قال: {فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} فقدَّمَ الصَّدَقة.

---

[١٧٤] [البقرة : ٢٦١]
[١٧٥] [البقرة : ٢٤٥]
[١٧٦] [البقرة : ٢٥٩]
[١٧٧] [البقرة : ٢٦٠]
[١٧٨] [المنافقون : ١٠]

المبحث الثاني: معنى المثل: والمعنى يبدو واضحًا؛ فالله -عز وجل- يضرب هذا المثل ويقرر مضاعفة الحسنات للمنفقين في أوجه الخير، فبيّنَ مضاعفة أجورهم بمثالٍ محسوس، وهو كما لو أنّ إنسانًا بذرَ بذرةً في أرضٍ طيّبة، ووضع حبّة، وهذه الحبّة أخرجت سبع سنابل (سنابل قمح)، وفي كل سنبلة مئة حبة.

يعني: حينما تقوم الساق، تتفرع عنها سنابل، فهذه الساق حملت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فبنظرة الحسابات المادية: الحبة الواحدة نتج عنها سبعمئة! وهذا ربحٌ كبير.

فهذا يدعو الإنسان إلى البذل والصدقة؛ لأن النفس مجبولة على الشحّ وحبّ المال، كما قال -تعالى-: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[179]، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[180]

فالنفوس بطبيعتها تحبّ المال وجمعه والتكثّر منه، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب فلا يقنع، ويبتغي إليه ثانيًا وثالثًا...

فالله -جل وعلا- ضرب هذا المثل بما يتوافق مع طبيعة النفس التي تريد الأرباح، وأيّ إنسان يعمل عملًا يحسب حساباته لأجل الارباح، ويطمع في الربح الكثير، فخاطب النفس البشرية بما يوافق هذه الطبيعة والجبلة، وهذا فيه حثُّها، وإلّا فلو جاء مثلًا العرض أنّ من أنفق في سبيل الله فله أجرٌ عظيم، فهل هذا مثل ذلك في الحثّ؟

الجواب: لا، لأنّ النفس تتشوّف إلى مثل هذه الأمور المادية (حبة واحدة ينتج عنها سبعمئة) هذا شيءٌ كثير، وربح كبير.

فلو قيل لك مثلًا: ساهم بريال وسيكون مردوده سبعمئة ريال؛ فلا شكّ أنّ هذا مُغرٍ.

وهنا المثل فيه شخصٌ بذرَ بذرة؛ يقابله المؤمن الذي أنفق في سبيل الله (الباذر - المنفق)

والبذرة يقابلها: النفقة في سبيل الله.

- ولاحظ قوله: **{في سبيل الله}** هذا يفيد **فائدتين:**

الأولى: لا بدّ أن تكون النفقة خالصة لوجه الله، لا تكون رياء ليقال هذا منفق، صاحب صدقات، ومشاريع خيرية..!! هذا لا ينفع.

الثانية: أن تكون النفقة موافقة للشرع؛ لأن قوله {في سبيل الله}: "في": ظرفية، والسبيل هو الطريق، وطريق الله هو شرعه. يعني لا بدّ أن تكون النفقة في دائرة الشرع ولا يكون الإنفاق خارجها، كما لو أنّ إنسانًا أنفقَ على البدع بقصد الخير، فبذل الصدقات على البدع! فهذا لا يدخل في الآية، أو إنسانًا طبع كتب الضلال ونحو ذلك مما قد يظنه خيرًا وهو خارج عن سبيل الله.

---

[179] [العاديات : ٨]
[180] [الفجر : ٢٠]

وهذا المعنى المذكور في المثل (المضاعفة) ورد في نصوص الكتاب والسنة، فهو أمرٌ متقرّر في الشريعة، كقوله – تعالى– قبل المثل بآيات: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...}[١٨١]

وفي الحديث عن أبي مسعود –رضي الله عنه– قال: جاء رجل إلى النبي –ﷺ– بناقة مَخْطُومَةٍ، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله –ﷺ–: "لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مَخْطُومَةٍ"[١٨٢]

وقال –ﷺ–: "مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً في سبيلِ اللَّهِ كُتِبَ لَهُ سبْعُمِائةِ ضِعفٍ"[١٨٣]

وقال: "مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ –وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ– إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ"[١٨٤]

والفلوّ: هو المهر الصغير، والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل من رضاع أمه.

فالله –جلّ وعلا– يأخذ هذه النفقة –ولو كانت صغيرة حتى لو كانت تمرة– فيربيها وينميها حتى تكون كالجبل مضاعفة! وأنت تتعامل مع الكريم العظيم الوهّاب –سبحانه وتعالى–.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثّل به والممثّل له: المضاعفة والنماء والزيادة، فشبّه مضاعفة ثواب النفقة في سبيل الله بمَن زرع حبة فتضاعفت إلى سبعمئة حبة.

الممثل به: الحبة التي أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة.

الممثل له: النفقة في سبيل الله.

وجه الشبه: المضاعفة والنماء والزيادة.

---

[١٨١] [البقرة : ٢٤٥]
[١٨٢] [رواه مسلم]
[١٨٣] [رواه الترمذي وقال: حديثٌ حَسَنٌ]
[١٨٤] [والحديث في الصحيحين]

وهذا المثل -كما قلنا- يظهر الأشياء المعنوية في صورة الأشياء المحسوسة، ويبعث في النفس حماسًا، ويدفعها دفعًا للمتاجرة مع الله طمعًا في هذه العوائد والأرباح العظيمة.

وحينما يتحدث الناس عن الفرص الاستثمارية، والمساهمات التجارية؛ فإنّ هناك نوعًا من المساهمات والاستثمارات ولكنها في حسابات الآخرة، وهذا توفيقٌ من الله؛ فأكثر الناس يعرفون هذا، ولكن ليس كل من يعلم يعمل، بل هو من توفيق الله، وهو -أي: العمل- من آثار الإيمان وثمراته، فالإيمان يبعث على العمل، وكلما كان عند الإنسان إيمان ويقين؛ زاده دفعًا وانبعاثًا على العمل، لأنه موقن ومصدّق بهذا الأمر.

وهذه المضاعفة المذكورة في الآية تدل أيضًا على سعة كرم الله، وسعة جوده وعطائه، فالله -عز وجل- يده لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار.

◘ **المثل الثاني في موضوع النفقة والمنفقين**: يقول الله –تعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}**[١٨٥]

هذا مثل من جملة الأمثال التي ضربها الله في كتابه في إطار هذا الموضوع والكلام عليه في عدة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثَل:

لو تأملنا موضع المثل في السورة نجد أنه جاء بعد آيات تتعلق بهذا المعنى (النفقة والمنفقين) عمومًا، فقبل هذه الآية قال الله –تعالى-: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً}[١٨٦] ثم فصّل الله هذه الأضعاف فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٨٧]وهذا أحد الأمثال السابقة، ومن يستمع إليه يجد فيه ترغيبًا وفضلًا كبيرًا للنفقة في سبيل الله، لكن لما كانت النفقة كما أنها تنطوي على مضاعفةٍ كثيرة فكذلك قد يعتريها ما يعتريها مما يحبط ثوابها، وقد يحتف بها من الأشياء التي تبطل ثوابها؛ ناسب بيان ذلك والترهيب منه تحذيرًا وتنفيرًا، وجاء هذا الترهيب والتحذير بصورة المثل

التي تقرر المعنى وتوضحه وترسخه في النفس، فقال –جل وعلا- بعد الآية السابقة: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[١٨٨]

فإذًا: نخلص بعد هذا التسلسل في سياق الآيات إلى فائدة وهي أنه يتبين من هذا أن النفقة لها حالان:

الحال الأولى: أن يتبعها منٌّ أو أذًى

والحال الثانية: أن لا يتبعها منٌّ ولا أذًى.

فضرب الله مثلًا لكل حال من الحالين، في آيتين متتاليتين، الآية الأولى مثَلٌ لتصوير الحال الأولى، والآية الثانية مثل أيضًا لتصوير الحال الثانية.

---

[١٨٥] [البقرة:٢٦٤]
[١٨٦] [البقرة:٢٤٥]
[١٨٧] [البقرة:٢٦١]
[١٨٨] [البقرة :٢٦٢-٢٦٣]

فنبدأ بالمثل الأول وهو الذي يصور حالة المنفق مع المنّ والأذى:

المبحث الثاني: معنى المثَل:

قوله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم}: الإبطال والباطل والبطلان من المباحث الأصولية التي يتكلم عليها أهل العلم في كلامهم عن الحكم الوضعي، ويعبّر بعضهم بالباطل، وبعضهم بالفاسد؛ وهما مترادفان عند جمهور أهل العلم، يقال: فاسد، ويقال: باطل؛ فهما بمعنًى واحد.

و**الباطل**: هو ما لا تترتب آثار فعله عليه سواء كان عبادة أو عقدًا.

يعني -مثلًا- في عقد من العقود نقول: البيع باطل؛ أي: لا تترتب آثار البيع عليه، نقول هذه الإجارة باطلة يعني آثار الإجارة لا تترتب على هذا العقد لأنه باطل.

وإذا قيل في العبادة باطلة، كقولهم: الصلاة باطلة أي: لا يترتب آثارها عليها، و**آثار العبادة**: براءة الذمة وحصول الثواب والأجر (إذا كانت واجبة)، وإذا كانت العبادة نافلة فأثرها: حصول الثواب.

فإذا قلنا إن هذه العبادة الواجبة باطلة: فمعناه أن الذمّة ما برئت، وما حصل الثواب، وإذا قيل إن هذه العبادة النافلة باطلة فبالتالي لم يحصل الثواب.

وبطلان العمل له أسباب؛ منها: الإخلال بركنٍ أو شرط، ومنها: وجود مانع يؤثر على هذه العبادة فيُحكم عليها بالبطلان.

قوله: {كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ}: كالذي: الكاف هذه للتشبيه، ورئاء: مفعول لأجله (أنفق لأجل الرياء)، ورئاء مصدر راءى يرائي رئاءً.

والرياء معروف: وهو فعل العبادة ليراه ويمدحوه ويثنوا عليه بها، مأخوذ من الرؤية، كما أن التسميع مأخوذ من السماع.

قوله: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ}: الصفوان -ويقال الصفا أيضًا-: هو الحجر الأملس.

{فَأَصَابَهُ وَابِلٌ} الوابل هو المطر الغزير المتتابع.

{فَتَرَكَهُ صَلْدًا} صلدًا يعني أملس أجرد.

المعنى الإجمالي للمثل: في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى}: هذا خطاب من الله –تعالى– للمؤمنين بوصف الإيمان، يقول لهم: لا تُذهبوا ثواب ما تتصدقون به من الأموال بسبب المنّ والأذى، يعني صدقاتكم هذه عبادات تثابون عليها، لكن احذروا أن تبطلوا ثوابها بالمنّ والأذى فهذا الفعل منكم شبيهٌ بالذي يُخرج ماله رياءً، فشبَّهَ حال المتصدق مع المنّ والأذى بحال المرائي الذي أنفق وأخرج ماله لكن رياءً لأجل أن يثنى عليه وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهذه صفة المنافق لأن المنافقين هم الذين يراؤون الناس ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ثم ضرب الله مثلًا تقريبيًا لذلك فشبه حال هذا المرائي بحجر أملس عليه تراب، تخيل عندنا صخرة ملساء لكنها مغطاة بتراب، فالشيء الظاهر هو التراب، ومعروف أن التراب صالح للزرع وأنه سينبت، لكن هطل مطر غزير على هذا الحجر الأملس فأزاح التراب، وبقي الحجر أجرد أملس، فكذلك مثل المرائين؛ أعمالهم تضمحل ولا يجدون شيئًا من الثواب عليها، هذا معنى المثل بصورة إجمالية.

وهنا مسألة تكلم عليها أهل العلم في هذا المثل: هل هذه الآية عبارة عن مثل واحد أم مثلين؟

هناك رأيان لأهل العلم: فبعضهم من المفسرين يرى أن الآية عبارة عن مثلين، المثل الأول: تشبيه المتصدق مع المنّ والأذى بحال المرائي، والمثل الثاني: تشبيه المرائي بالصفوان الذي هو الحجر.

والرأي الثاني: أن الآية عبارة عن مثلٍ واحدٍ وهو تشبيه المانّ والمرائي بحالة الصفوان الذي عليه تراب، وأن المثل عبارة عن تصوير لحال الرجلين والمنافق المرائي كلاهما مثله كمثل صفوان عليه تراب.

وهل كلُّ تشبيهٍ مثَل؟ تذكرون أننا قلنا –في أول الدروس– إنّ المثل يُطلَق على معانٍ منها: التشبيه، فالمثل يفيد معنى التشبيه، لكن هل كل تشبيهٍ مثَل؟ هذا من الإشكالات في عدّ الأمثال ولهذا يصعب جدًا أن نعدّ الأمثال، لأنّ طريقة العدّ تختلف، فالبعض يقول: هذا مثَل، وبعضهم يقول: لا ليس مثلًا..

وسبق وأشرنا إلى هذا.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثّل به والممثَّل له:

المشبَّه: هو النفقة مع المنّ أو الأذى أو الرياء.

المشبَّه به: هو التراب على حجرٍ أملس، وإذا نزل عليه مطرٌ شديد أزال التراب وتركه أجرد أملس.

وجه الشبه: البطلان وعدم الانتفاع، فكما لا يُنتفع بالتراب على الحجر الأملس عند نزول المطر، فكذلك لا ينتفع المنفق مع المنّ والأذى والرياء لا ينتفع بنفقته يوم الجزاء والحساب.

التراب في الأصل: محل قابل، قابل للبذر ويُنبت الزرع، لكن وُجد مانع منع من أثره ونفعه وإنباته (وهو الحجر الذي تحته)، وكذلك الصدقة عملٌ صالح مُثمِر للثواب والأجر، لكن وُجد مانع يمنع من أثرها (حصول ثوابها) وهذا المانع هو المنّ أو الأذى أو الرياء.

وتأمل في أثر الإخلاص في النفقة: فإذا وُجد الإخلاص: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فالنتيجة أن هذه النفقة تكون {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}[189]

وإذا فُقد الإخلاص: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ...}[190]

نتكلم عن **بعض الفوائد تتعلق التي هي من وحي هذا المَثَل وهداياته:**

الفائدة الأولى: نتكلم عن المنّ والأذى في ثلاث مسائل:

١- المسألة الأولى: معنى المنّ والأذى:

المنّ في اللغة يطلق على معنيين، **المعنى الأول**: الإنعام، تقول: منّ الله عليّ بكذا يعني أنعم عليّ، أو تقول: فلان له عليَّ منّة يعني نعمة، ومنه قوله -تعالى-: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا}[191]، وقوله -ﷺ-: "إنه ليس من الناس أحدٌ أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر"[192] يعني أكثر إنعامًا، ومن أسماء الله -تعالى- المنان وهو المنعم المعطي.

[189] [البقرة:٢٦١]
[190] [البقرة:٢٦٤]
[191] [آل عمران:١٦٤]
[192] صحيح البخاري

المعنى الثاني: المنّ بمعنى النقص من الحق كما في قوله -تعالى-: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ}[١٩٣]، يعني غير منقوص وغير مقطوع، ومنه سُمّي الموت مَنونًا، قالوا: لأنه يُنقِص الأعمار.

والمنّ المذكور هنا في الآية هو المعنى الثاني؛ لأن المنّ يُنقص النعمة ويكدّرها، فحينما تنعم على فلان وتتصدق عليه، وتعطيه مالًا ثم تمنّ عليه، فأنت أنقصت! إذًا: حينما نقول تصدّق بلا منّ معنى المنّ على من يُتصدّق عليه: هو تذكيره بالنعمة، وتعديد النعمة، وإظهار الإحسان إليه، وأثره خطير مُبطل للعمل!

والمنّ قد يكون مقارِنًا للصدقة وقد يكون متراخيًا، يعني مثلًا قد يعطي المتصدق بالصدقة ويقول: هذه ألف ريال والعام الماضي أعطيتك ألف! هذه منة مقارنة للصدقة، وقد تكون متراخية -وهو أكثر- فيعطي المُتصدق عليه، لكن فيما بعد يذكره يقول: أنا أعطيتك، تذكر أنك تأتيني وأعطيك وتذكر..!

والأذى معروف، وهو كل ما يؤذي الإنسان، ومن صوره -على سبيل المثال- أن يوبّخ المُعطَى، أو يسخر منه أو يزدريه، من صور الإيذاء في الصدقة أن يذكر المعطي عطيّته عند الناس، فيتكلم عليه ويقول: فلان جاءني وأعطيته! ربما يصبر الفقير على الفقر والحاجة ويكون هذا أهون عليه من أن يُشاع أمره بين الناس!

ويُذكر أن الإمام محمد بن سيرين من كبار التابعين -رحمه الله- سمع رجلًا يقول لرجل: فعلتُ إليك وفعلتُ إليك وفعلت إليك، فقال له: اسكت، ولا خير في المعروف إذا أُحصي.

ويُذكر عن الإمام الشافعي من أبيات تُنسب إليه أنه قال:

منن الرجال على القلوب أشدُّ من وقع الأسنّة   فاختر لنفسك حظّها واصبر فإنّ الصبرَ جُنّة.

٢- المسألة الثانية: حكم المنّ والأذى:

دلَّ قوله -تعالى-: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ}[١٩٤] على تحريم المنّ والأذى في الصدقة، ودلَّ أيضًا على أنه من كبائر الذنوب لأنه رتّب عليه عقوبة خاصة وهي إبطال العمل، وشبّهه بحال المنافق المرائي،

ودلّت الآية أيضًا على أنَّ المنّ والأذى بالصدقة يُبطل ثوابها، فقوله: {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ} الباء سببية، أي: بسبب المنّ والأذى، وهذا البطلان شبيهٌ ببطلان نفقة المنافق الذي إنما يعطي رياء.

[١٩٣] [القلم:٣]
[١٩٤] [البقرة:٢٦٤]

ومن النصوص الواردة في المنّ حديث أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يُزكيهم ولهم عذاب أليم، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ فقال: المسبل والمنان –وهذا هو الشاهد– والمنفق سلعته بالحلف الكاذب"[195]

– وهل المنهيّ عنه في قوله –تعالى–: {لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى} هو الجمع بينهما؟ أم أن كلًّا منهما منهي عنه على سبيل الانفراد؟

– الجواب: إنّ المنهيّ عنه هو كلٌّ من المنّ والأذى على انفراده، يعني المقصود ألا يقع من المنفق لا هذا ولا هذا.

إذًا: يستفاد من هذا أن قبول الصدقة لا بد له من فعل الشروط واجتناب الموانع، فالشروط مثل الإخلاص، والموانع مثل المن والأذى.

٣– المسألة الثالثة: بين مِنّة الله ومِنّة المخلوق:

طبعًا المِنَّة التي تُكَدِّر النعمة هي مِنَّة المخلوق على المخلوق، وأما مِنَّة الخالق على المخلوق فهذه بها تمام النعمة ولذتها وطيبها؛ لأنها مِنَّة حقيقية، أما المخلوق إذا تصدق على فلان فهذا ليس له مِنَّة بل المِنَّة لله، وحتى قد يكون للفقير المِنَّة أن ساقه الله إليك وجعله بابًا من أبواب الخير، لكن المِنَّة الحقيقية لله ولهذا قال الله –تعالى–: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[196]

وقال جل وعلا: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ}[197]

وقال أهل الجنة: {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}[198]

وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}[199] الآية.

وغيرها من الآيات التي تدل على أن هناك مِنَّة من الله على خلقه، وهذه المِنَّة هي التي يحصل بها تمام النعمة، وهل المِنَّة بل كل المِنَّة إلا لله المنَّان؟ المان بفضله على خلقه، وهي من صفات الله، لكن مِنَّة المخلوق تَقبُح

---

[195] [رواه مسلم]
[196] [الحجرات : ١٧]
[197] [الصافات : ١١٤]
[198] [الطور : ٢٧]
[199] [آل عمران : ١٦٤]

لأنها مِنَّةٌ منه بما ليس منه، وهي مِنَّة يتأذى بها المخلوق الممنون عليه، لكن مِنَّة الله علينا لا يتأذى الممنون عليه؟ لا وإنما تَقَرُّ عينه بذلك ويرى أن هذا من تمام ربوبية الله سبحانه وتعالى.

طيب هذه الفائدة الأولى المن والأذى تحدثنا فيها عن ثلاث مسائل.

الفائدة الثانية: هل تشبيه المتصدق مع المن والأذى بالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يقتضي التساوي بينهما؟

الجواب: لا، وقد ذكرت هذه الفائدة لأنه قد يقع الوهم ويسبق الفهم إلى هذا المعنى وهو معنى غير وارد، فتشبيه هذا بهذا لا يعني تساويهما في الدرجة والمنزلة، وشتان بينهما فهذا مسلم وهذا كافر.

لا شك أنّ الذي ينفق مع المنّ والأذى عاصٍ، لكنه ما زال في دائرة الإسلام، لكن المنافق الذي ينفق ماله رياء لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وهذا خرج عن دائرة الإسلام، والكلام هذا في النفاق الاعتقادي، لذلك فهما ليسا متساويين في الدرجة والمنزلة.

لكن هناك قدر يشتركان فيه وهو **عدم الانتفاع بالنفقة** ،فكلاهما أنفق في وجه الخير، لكن لم تنفعه نفقته لأنه أتى بمبطل، هذا فعل المن أو الأذى، وذاك فعل الرياء مع عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، فالقصد من التشبيه في هذه النقطة هو أيضًا من باب تشنيع هذا الفعل.

الفائدة الثالثة: نعلم جميعًا أن الحسنات تُكفِّر السيئات أي تمحوها كما قال –تعالى-: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}[٢٠٠]، وفي الحديث: "وأتبع السيئة الحسنة تمحُها"[٢٠١]

والأعمال الصالحة للمسلم لا تحبط كلها إلا بالكفر، فالذي يحبط الأعمال جميعًا هو الكفر كما قال –تعالى-: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}[٢٠٢] كما أن الأعمال لا تُقبل مع الكفر، فكذلك لا يحبطها جميعًا إلا الكفر.

الآن ننتقل إلى المسألة المقصودة وهي: **هل تُحبط السيئاتُ الحسنات؟** هذه مسألة فيها كلام لأهل العلم ولهم قولان في ذلك وفي الحقيقة ما زالت المسألة تحتاج المزيد من التحرير، لكن القول بأن المعاصي والبدع –عمومًا– يعني جنس المعصية عمومًا يحبِط أجر ما يقابلها من الحسنات على سبيل الجزاء: هذا قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم بل نسبه ابن تيمية –رحمه الله– إلى أكثر أهل السنة، واستدلوا على ذلك بأدلة

---

[٢٠٠] [هود: ١١٤]

[٢٠١] أخرجه الترمذي وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[٢٠٢] [الزمر: ٦٥]

منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ}[٢٠٣] وهذا هو الشاهد، لأن هذا الرجل فعل الصدقة بشروطها يعني مخلصًا، وهي صدقة مشروعة، فبعد ذلك (بعد الصدقة) حصل منه مَنٌّ أو أذى فأبطل وأحبط ثواب الصدقة السابقة.

وأيضًا استدلوا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}[٢٠٤]

وفي الباب أحاديث وآثار عن السلف يضيق المقام عن ذكرها، وقد بوّب الإمام البخاري –رحمه الله– في صحيحه في كتاب الإيمان عقد بابًا فقال: باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

وقال ابن رجب –رحمه الله–: "الآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جدًا يطول استقصاؤها".

وقال ابن القيم: "ومُحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تُحصر"

الفائدة الرابعة: قوله –تعالى– في ختام هذا المثل: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[٢٠٥] يعني لا يهدي الكافرين هداية توفيق، أما هداية الدلالة والإرشاد فإن الله –سبحانه– لم يدع أمةً إلا أرسل إليها رسولًا أو بعث فيها نبيًّا، لكن الكافر لا يُوفَّق لقبول الحق، والمقصود بالكافرين في الآية يعني الذين حقت عليهم كلمة الكفر وقضي عليهم بالكفر، وهذا كما قال –تعالى–: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[٢٠٦]

وليس معنى قوله: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} أنّ الكافر لا يمكن أن يهتدي، وأننا نغلق باب الدعوة! لا، وإنما المقصود {لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} الذين حقت عليهم كلمة الكفر ونحن لا نعلم أن هذا حقت عليه أم لا، ولهذا نحن نسعى في هدايته ودعوته، وهذا لا يخالف الآية.

---

[٢٠٣] [البقرة : ٢٦٤]
[٢٠٤] [الحجرات: ٢]
[٢٠٥] [البقرة: ٢٦٤]
[٢٠٦] [يونس:٩٦-٩٧]

المثل الثالث ضمن هذا الموضوع **(النفقة والمنفقين)** وهو المثل الخامس عشر ضمن سياق الأمثال القرآنية من البداية؛ يقول الله –تعالى–: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**[207]

هذه الآية في سياق الآيات السابقة نفسه في سورة البقرة والتي تتحدث عن موضوع النفقة، والكلام عنها أيضًا في مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

قبل هذه الآية قال الله تعالى –كما أسلفنا–: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[208]

فأفاد هذا أن النفقة لها حالان –كما قلنا–؛ الحال الأولى: أن يتبعها مَنٌّ وأذًى، والحال الثانية: ألّا يتبعها مَنٌّ ولا أذًى.

وذكرنا أنّ الله –تعالى– ضرب مثلًا لكلّ حال؛ فضرب للنفقة التي فيها مَنٌّ وأذًى مثلًا هو: {كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ...} الآية، وضرب للنفقة المحبوبة لله التي ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى مثلًا لبيان ما بين النفقتين من البَون الكبير، وللثناء على المنفقين بإخلاص، وهذا من أساليب فصاحة القرآن وبلاغته (أن يأتي بذكر الشيء وما يقابله) فحين يذكر الجنة يذكر النار، وحين يذكر المنعمين يذكر المعذبين، وهذا معنى قول الله –تعالى–: {مَثَانِيَ}[209]

المبحث الثاني: معنى المثل:

ولعلنا نبيّن بعض الكلمات:

في قوله: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِم}: معنى تثبيتًا من أنفسهم: أي تصديقًا ويقينًا، يعني أنهم يثبّتون أنفسهم فتطمئنّ ولا تتردّد في الإنفاق، ولا تشكّ في الثواب؛ لأنّ الإنسان حين يريد أن

[207] [البقرة:٢٦٥]
[208] [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣]
[209] [الزمر:٢٣]

ينفق نفقةً في سبيل الله قد يعتريه مانعان: إما التردُّد وعدم استحضار الثواب، أو قد يداخله شيء من الشكّ أو الريب ونحو ذلك.

فالمهم أن هذا المُنفق (المذكور في الآية) ينفق ابتغاء مرضاة الله، وأيضًا {تثبيتًا} يعني عن تصديق ويقين، وهذا يدلّ على أنّ نفوسهم تطيب بالنفقة فينفق أحدهم وهو طيب النفس.

وهناك فرقٌ بين مَن ينفق ونفسه طيبة بالنفقة، وبين من ينفق وفي نفسه شيء من الحرج، وحتّى مَن يُنفق وفي نفسه شيءٌ من الحرج صورته تختلف عن صورة المنافق الذي ينفق رياءً لا يحتسب ولا يؤمن بالثواب، قال — تعالى– (عن المنافقين): {وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}[٢١٠]

قوله {كمثل جنّةٍ}: الجنة هي البستان.

{بربوةٍ}: الربوة هي الأرض المرتفعة.

{أصابها وابل}: هذه الجنة المرتفعة أصابها وابل، والوابل المطر الغزير.

{فآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَين}: أُكُلها: ثمرها الذي يؤكل، ضِعفين: أي مثلين (الأصل ومثله معه)، وهذا قول أكثر المفسرين (لأن بعض المفسرين يقول إن المقصود بالضعفين التكثير ولا يراد حقيقة العدد اثنين، لكنّ الذي عليه أكثر المفسرين أن ضعفين يعني مِثلين: الأصل ومثله).

{فإن لم يُصِبها وابلٌ فَطَلٌّ}: الطلُّ: المطر الخفيف.

المعنى الإجمالي لهذا المثل: هذا مثل ضربه الله –جل وعلا– لـمَن يبذلون أموالهم في وجوه البر والخير دون مَنٍّ ولا أذى، وإنما مقصودهم أن ينالوا مرضاة الله —تعالى–، فهم قد بذلوا أموالهم عن إيمانٍ ويقين بوعدِ الله —تعالى– على إثابته للمنفقين، هؤلاء ضرب لنفقتهم مثلًا كمثل بستان كثير الأشجار والظلال، وهذا البستان الجميل فيه أشجار وارفة على تلٍّ من الأرض (ربوة) أي: مكان مرتفع، والمكان المرتفع –يقولون– تكون تربته أخصب ونتاجه أفضل، وسقيُ هذه الربوة يكون من ماء السماء، فهي إما أن يصيبها مطر غزير فيتضاعف نتاجها من الثمر، أو يصيبها مطر خفيف فيكفيها أيضًا لتؤتي ثمارها.

فينتج هذا البستان بسبب كرم المنبت وطيب المغرس، وهذا هو حال نفقة المؤمن والله يضاعفها قلّت أو كثرت.

---

[٢١٠] [التوبة:٥٤]

ما دام أن هذا الرجل أنفقَ ابتغاء مرضاةِ الله وعن إيمانٍ ويقينٍ بموعود الله؛ فهذا يتعامل مع ربٍّ كريمٍ يضاعف النفقة أضعافًا مهما قلّت أو كثرت فعلى كل حال هو رابح.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

المشبَّه (الممثّل له): هو النفقة التي احتفّ بها الإخلاص والتصديق واليقين، فانطوت على إخلاصٍ لله وتصديقٍ ويقين بوعد الله.

المشبّه به (الممثّل به): بستان في مُرتَفَعٍ من الأرض، فهذا البستان إن أصابه مطر غزير تضاعف نتاجه، وإن أصابه مطر خفيف كفاه للنتاج والإثمار.

وجه الشبه: طيب المحل وحصول الثمرة والمقصود.

فقارن بين هذه الجنة المثمرة المباركة، وبين ذلك التراب على الصفوان بعد أن أصابه المطر، تراب الجنة لما نزل عليه المطر أثمر وأنتج وأينع -سواء كان المطر كثيرًا أو قليلًا-، والتراب الذي على الصفوان لما نزل عليه المطر ذهب وتلاشى، والصفوان بقي حجرًا أملسَ أجرد لا يُنبت شيئًا!

هذا تراب وهذا تراب، لكنّ التراب هنا أثمر وأينع لأنّ النفقة خالصة وعن إيمان وتصديق، وذاك التراب تلاشى وذهب؛ لأن النفقة فيها مبطِلٌ أبطلَ ثوابَها.

بعض الفوائد من وحي المثل -باختصار-:

الفائدة الأولى: أن يحرص المسلم على تحقيق الإخلاص في النفقة، ويحذر غاية الحذر من الرياء والسمعة، وتعلمون الحديث المشهور (أوّل من تسعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، أحدهم: رجلٌ كان ينفق في وجوه الخير لكن ليُقال: هو جواد.. فقد قيل) أمّا يوم القيامة: فهو (أوّل من تسعَّر بهم النار)!

الفائدة الثانية: أن النفقة في أبواب الخير يعترضها آفتان:

- الآفة الأولى: طلب الثناء من الناس، وهذا العمل الصالح بالذات (النفقة) ترِد عليها هذه الآفة كثيرًا، وطلب المحمدة شهوة في النفس، أي: كون الإنسان يُثنى عليه ويُمدح بين الناس هذه غريزة في النفس، لهذا على الإنسان أن يحذر.

- والآفة الثانية: ضعف النفس وتقاعسها عن النفقة، فبعض الناس قد يكون مخلصًا، لكنه يتقاعس، قال الله -تعالى-: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ}[٢١١] يقول: عندك كذا.. عندك التزامات.. تحتاج... فيتقاعس الإنسان!

ولهذا جاء في الحديث عن النبي -ﷺ-: "مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثديّهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبَغَت، أو وَفَرَت على جلده حتى تخفيَ بنانَه وتعفوَ أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع"[٢١٢]

الفائدة الثالثة: أن الإنفاق لابتغاء مرضاة الله له ثوابٌ عظيم، وهو مع ذلك متفاوت بحسب تفاوت الإخلاص والتثبيت كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكائها وإنتاجها، فالمزارع والبساتين ليست على درجة واحدة، لكنها على كل حال لا تخيّب صاحبها فهي تثمر، ومقدار الثمر يختلف، كما أن المنفق ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا هذا ثوابه حاصل، لكن مقدار الثواب يتفاوت، لأن هذا التضعيف يبدأ من عشرة إلى سبعمئة، وهذه المنازل بحسب العامل.

---

[٢١١] [البقرة:٢٦٨]

[٢١٢] صحيح البخاري

المثل الرابع في موضوع **النفقة والمنفقين**، وهو السابع عشر في سياق الأمثال من البداية؛ قوله –تعالى–:
{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[٢١٣]

هذه الآية تابعة لما قبلها، فلا حاجة لأن نعيد سياق المثل، كلّ الآيات هذه متتالية، فالأمثال متتاليةفي الآيات: ٢٦٤، ٢٦٥، وهذه ٢٦٦.

فندخل مباشرة في معنى المثل:

هذا مثلٌ ضربه الله –تعالى–؛ يقول: {أيودُّ أحدُكم} يعني أيرغب أحدكم..؟ –يا مَن تمنّون وتؤذون في صدقاتكم (لأن الآية في سياق النفقة)– فأنتم يا مَن تتصدقون مع المنّ والأذى أيحب أحدكم أن يكون له بستان يملكه فيه من أشجار النخيل والأعناب (وهذه من أفضل المزروعات لأن كلًّا منهما –التمر والعنب– عبارة عن حلوى وفاكهة وقوت)، تجري فيه الأنهار المتدفقة والجداول التي تنساب من هنا وهناك، وقد اشتمل على أنواع الثمار، ففيه من الفواكه وأنواع وأشكال والخضروات والطيبات...

فهذا البستان إذًا موصوف بهذه الصفات الثلاثة (من نخيل وأعناب، تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كل الثمرات)؛ والنتيجة: حينما تقرأ هذه الصفات الثلاث تستنتج أن هذا البستان فخم، وفي الغاية مما يطلبه الناس فهذا مشهدٌ عجيب متكاملٌ من جميع نواحيه.

ثم انتقل إلى صفة صاحب البستان: رجل كبير في السن، أصابه الكبر وضعف؛ فازداد حرصه عليه، وأيضًا هذا الرجل له ذرية (أولاد) ضعفاء إما لصغرهم أو لعجزهم.

فإذًا: بستان في الغاية من الجمال والكمال والتمام، وصاحب البستان في غاية الضعف والحاجة، فهو ضعيف كبير، وعنده ذرية أيضًا لا يستطيعون القيام بأمورهم لضعفهم.

إذا جمعت الصورة من هنا وهناك؛ يتبين لك شدة حاجة الرجل إلى هذا البستان، فما الذي حصل؟ الذي حصل أنه في لمحة بصر نزلت كارثة وحلّت مصيبة، فاجتاحت رياحٌ قويةٌ فيها نار (إعصار) هذا البستان، فأحرقته كله، فتَلِف! فما ظنكم بحال صاحبه؟ لا شك أنه في أقصى درجات الغبن والحزن والهم والحسرة بسبب ما حصل له.

---

[٢١٣] [البقرة:٢٦٦]

هذه الصورة لهذا البستان وصاحبه هي حال من أنفق لوجه الله أولًا (أنفق نفقاتٍ لله فنال بها أجورًا عظيمة)، لكنه هدمَ هذه الأجور وأفسدها بالمنّ والأذى؛ فحينما يأتي يوم القيامة وينتظر هذه الخيرات الطيبة في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها؛ يُفاجأ بأنها تتلاشى بين عينيه وتذهب سدًى! لماذا؟ لأنه قد نزل على هذه الحسنات إعصار فأُحرِقَت! وما هو هذا الإعصار؟ هو المُبطِل (شيء فعله فأبطل عمله).

والمفسرون –في الكلام على هذا المثل– لهم اتجاهان:

الاتجاه الأول: ربط هذا المثل بموضوع النفقة؛ يعني يفسرونه وينزّلونه على موضوع النفقة؛ قالوا: لأنّ الآية في سياق آيات النفقة، ولما ضرب الله –تعالى– مثلًا قبلها بمن ينفق ماله مخلصًا لله بلا منٍّ ولا أذًى وما يجده من عاقبة ذلك وثمرته (المثل السابق)؛ ناسب أن يُثَنِّيَ بما يجده مَن أنفقَ مَعَ المنِّ والأذى وعاقبة فعله، وهذه هي طريقة القرآن (أنه يذكر الشيء وما يقابله).

فهذا تنزيلٌ على موضوع النفقة، إذ إنّ الآية لو قرأناها فلن نجد فيها ذكرًا للنفقة (في لفظ المثل) لكن فسروها ونزلوها على صورة النفقة لسياقها.

الاتجاه الثاني: أن المثل عامٌّ في كلِّ مَن عمل صالحًا ثم أفسده بمُفسِد؛ قالوا: لأنّ لفظ الآية عامٌّ، والعام يُحمل على عمومه، فليس في الآية تخصيص: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[٢١٤]

فهذه الآية ليس فيها ذكرٌ لمسألة النفقة والإنفاق، لذلك قالوا إن هذا المثل عام في كل من عمل صالحًا ثم أفسده، ويدخل في ذلك مَن تصدق مع المنِّ والأذى كما يدخل غيره.

فإذًا هؤلاء الذين عملوا أعمالًا صالحة ثم هدموها بمبطلٍ مِن مُبطِلات الأعمال يظنون أنهم ينتفعون بعملهم، فإذا قدم أحدهم على الله –وكان في وقت هو أحوج ما يكون إلى الحسنة الواحدة– فيُفاجَأ أن هذه الأعمال تذهب وتضمحل سدًى وتذهب هباءً منثورًا.

---

[٢١٤] [البقرة:٢٦٦]

فهؤلاء مثلهم كمثل حال الجنة وصاحبها الذي كانت عنده بهذه الصفة، ثم ذهبت وتلفت بتمامها في لمحة بصر في وقتٍ هو أحوج ما يكون إلى هذه الجنة والبستان.

يقول الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي –رحمه الله– (وكلامه يشير إلى هذا الاتجاه): "وهذا المثل مضروبٌ لمَن عمل عملًا لوجه الله –تعالى– من صدقةٍ أو غيرها ثم عمل أعمالًا تفسده".

وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

المشبَّه (الممثَّل له): من عمل عملًا صالحًا ثم أتى بما يفسده، يوم القيامة فيرى عمله هباءً في وقت أحوج ما يكون إليه.

المشبَّه به (الممثّل به): رجلٌ كبير له ذريَّةٌ ضعفاء بسبب صغرهم أو عجزهم، وهذا الرجل عنده بستان من أحسن ما يكون في أشجاره وثماره ومياهه، ويتلف هذا البستان في لمحة بصر –كما قلنا– في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليه.

وجه الربط (وجه الشبه): شدة الحسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة والفاقة إليها.

يعني أنّ من أتى بأعمالٍ صالحة (حسنات)، لكنه قرن بها أو أتى بعدها بأمور تبطل ثوابها؛ فإنه حين يقدم يوم القيامة وهو في غاية الحاجة إلى الحسنة الواحدة، وأيضًا هو عاجز عن أن يزيد في عمله، يُفاجأ بأن حسناته وأعماله طاشت هباءً أمام عينيه فما أعظم حسرته! وما أشد غبنه وحزنه!

ونظير هذه الآية –يعني هذا يذكرنا في المعنى– قوله –تعالى–: {وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}[٢١٥]

وقوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}[٢١٦]

وهنا تنبيه نبّه عليه بعضُ المفسرين: أن هذا المثل ينطبق على صورة من يتبع نفقته بالمن والأذى، لا على المرائي؛ لأن المرائي لم يغرس شيئًا أصلًا أمّا المتصدق فهذا بنى ثم هدم بالمن والأذى!

---

[٢١٥] [الزمر:٤٧]
[٢١٦] [الفرقان:٢٣]

ونختم الكلام بفائدة من وحي هذا المثل وهي: الحذر من **محبطات الأعمال** فكما أنّ على المسلم أن يجتهد في عمل الصالحات وأن يسعى ويبادر أيامه وساعاته ودقائقه في زيادة رصيده من الحسنات الباقيات الصالحات؛ فكذا عليه أن يحرص على المحافظة عليها من أن تحبط أو يخسر هذا الرصيد، وكما أن التاجر يجمع، وأيضًا يحرص غاية الحرص ويخاف أن يخسر ويذهب جهده الذي جمعه في سنوات بخسارة؛ فكذلك أنت تتعامل في تجارةٍ مع الله.

ومن الأمثلة على ذلك (ممّا يحبط العمل ويهدمه ويذهب بالحسنات):

الرياء: يقول الله –تعالى– في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[217]

ومن ذلك **العُجب**؛ وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاث منجيات وثلاث مهلكات" وذكر المهلكات قال: "هوى مُتَّبع، وشُحٌّ مُطاع، وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدّهن"[218]

ومن الأمثلة: **ظلم الناس أو الاعتداء عليهم**؛ ونعرف جميعًا حديث المفلس: قوله ﷺ: "أتدرون ما المفلس؟" قالوا: المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع فقال: "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، و ضرب هذا؛ فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيتْ حسناتُه قبل أن يُقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحَت عليه ثم طُرح في النار"[219]

ولهذا يقول –عليه الصلاة والسلام– أيضًا في الحديث الصحيح: "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه"[220]

يوم القيامة الحساب يكون حسنات وسيئات، فهذا يوجب للمرء أن يحتاط ويحرص على عمله، عملك هذا كنز فحافظ عليه، ازدد عملًا صالحًا، والأهم أن تحافظ عليه، احذر أن تذهب منك حسنة من هنا أو حسنات من هناك.

---

[217] رواه مسلم
[218] رواه البيهقي في الشعب]
[219] رواه مسلم
[220] رواه البخاري

المثل الخامس ضمن الموضوع المتعلق **بالنفقة والمنفقين**، وهو المثل الثامن عشر من البداية؛ يقول الله –تعالى–: **{مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}**[٢٢١]

هذا المثل وردَ في سورة آل عمران ونتكلم عنه –كما جرت العادة– في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل: إذا رجعنا إلى هذه الآية في موضعها من السورة نجد أن الله –تعالى– قال قبلها: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٢٢٢] في هذه الآية يخبر الله –تعالى– أن الكفار لا يفيدهم ما معهم من أموالٍ وأولاد، ولا ينفع، ولا يغني عنهم من عذاب الله شيئًا، بل هم أصحاب النار الخالدون الملازمون فيها أبدًا.

ولما كان الكافر قد ينفق ماله في بعض وجوه الخير من نصرة المظلوم، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك؛ فربما خطر في الذهن أن هذه المصارف قد تنفعهم، وأن المحذور الذي وردَ عليه الوعيد إنما هو مُنصَبٌّ فيما أنفقوه في الصدِّ عن دين الله ومُحاربة أوليائه؛ فأزال الله –تعالى– هذه الشبهة بهذا المثل، وبيَّنَ أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات وإن كانوا قصدوا بها الخير والبرّ، فهي لا تنفعهم في الآخرة.

المبحث الثاني: معنى المثل: هذا المثل فيه بعض الكلمات التي تحتاج إلى بيان؛ فقوله –عز وجل–: {كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}: الصِرّ هو البرد الشديد،

{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ} الحرث هو الزرع، وأصل الحرث إلقاء البذر في الأرض وتهيئتها للزرع؛ فالحرث هنا في الآية مصدر بمعنى المفعول، والمعنى: أصابت محروثَ قوم، والمراد هو ما ينتج عن الحرث من الزروع والثمار، لأنّ الأرض حينما تُحرث فلِأَجلِ أن تُزرعَ فيخرج ما تنبته من زروعٍ وثمار.

---

[٢٢١] [آل عمران:١١٧]
[٢٢٢] [آل عمران:١١٦]

وفي قوله –تعالى– في آخر الآية: {ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}؛ نجد أنه قد تكرر ذِكرُ الظلم ثلاث مرات، وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وهؤلاء ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية.

والله –تعالى– مُنزَّهٌ عن الظلم: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}[٢٢٣]، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا}[٢٢٤]

والمعنى: أن الله لم يظلمهم حين لم يتقبّل نفقاتهم، لأنهم هم الذين تسبَّبوا في ذلك، فشرطُ قبول العمل الإيمان، وهؤلاء لم يأتوا بهذا الشرط.

إذًا: رَدُّ أعمالِهم، وعدمُ قبولها، وعدمُ ترتّب الثواب عليها بسبب ظلمهم أنفسهم حيث لم يؤمنوا بالله –جل وعلا–.

المعنى العام للمثل: ضربَ الله هذا المثل لما يُنفقه الكافرون في وجوه الخير في هذه الحياة الدنيا وما يؤمِّلونه من ثواب، وأن هذا مَثَله كمثل مَن زرعَ زرعًا يرجو منفعته، لكن لما خرج الزرع وأينعت وأنبتت الأرض من خيراتها؛ أصابتها ريحٌ عاصفٌ شديدة البرود، فأهلكت ذلك الزرع برمَّته، فما ظنكم بحسرته وقد تعب عليها سنة كاملة، وهو يحرث ويسقي ويعمل عليها ويراعيها ويشرف عليها ويبذل فيها، فلم يستفد من ذلك التعب كله إلا المشقة، وانقلب عمله ورجاؤه حسراتٍ وزفرات!

فكما أتلفت هذه الريح الشديدة الباردة الزروعَ فلم ينتفع صاحبها بها، فكذلك الكفر يُتلف ويُبطل ثواب أعمال الكفار التي يرجونها ويؤملون خيرها، فإذًا: هم يعملون كالمُزارِع الذي يعمل في أرضه، وإذا جاء وقت الحصاد –كما أن تلك الريح أتلفت الزرع– فكذلك في الآخرة لا يجد هؤلاء الكفار ثوابًا لأعمالهم، فهي تضمحلّ وتذهب. ولم يظلمهم الله ولكن هم من ظلموا أنفسهم بكفرهم وعدم إيمانهم.

إذًا: لو أردنا أن ننزّل المثل؛ **فالنفقة** التي ينفقها الكفار يقابلها في المثل: **الزرع**،

وبطلان ثواب النفقة في الآخرة بسبب الكفر يقابله: **الريح القوية الباردة التي تهلك الزرع**.

[٢٢٣] [النساء:٤٠]
[٢٢٤] [يونس:٤٤]

يقول أهل المعاني: إنّ في هذا حسرة شديدة لهؤلاء المُنفقين؛ يعني مصيبة عظيمة تنزل عليهم لأنهم كانوا يرجون عائدة هذه النفقات ويرجون فائدتها؛ فانقلبت إلى خسارة ومصيبة، كحال المزارع؛ فإنه كان يرجو ثمرة هذا الزرع وعائدته وإنتاج ومحصوله، لكن في لمحة بصر ذهب هذا كله بريحٍ هبَّت عاصفةٍ قوية باردة.

ونظير هذه الآية قوله -تعالى-: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}[٢٢٥] وقوله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}[٢٢٦]

والمفسرون -رحمهم الله- فيما رأيتُ؛ لهم اتجاهان في هذا المثل:

- الاتجاه الأول: أنّ المثل مضروبٌ في نفقات الكافرين في وجوه الخير.
- الاتجاه الثاني: أن المثل عامٌّ في نفقاتهم في وجوه الخير، وفي الصدّ عن سبيل الله ومعاداة أوليائه، يعني نفقاتهم عمومًا.

لكن يحتمل أن نجمع بينهما فنقول: إن المثل في نفقات الكفار فيما يرونه هم من أعمال الخير والقُرَب، وهم لا شكّ يرون الأمرين كليهما خيرًا وقربةً (بالنسبة لهم).

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثّل به والممثَّل له:

الممثل له هنا: هو عاقبة نفقات الكفار فيما يرونه من أعمال الخير، **والممثل به:** الزرع الذي أصابته ريح عاصفة شديدة البرودة.

ووجه الشبه: الهلاك والضياع والبوار والتلف.

---

[٢٢٥] [الفرقان:٢٣]
[٢٢٦] [الأنفال:٣٦]

الممثل به: الزرع الذي أصابته ريح عاصفة شديدة البرودة فأهلكته.

الممثل له: عاقبة نفقات الكفار فيما يرونه من أعمال الخير.

وجه الشبه: الهلاك والضياع والبوار والتلف.

✓ نختم الكلام على هذا المثل بالإشارة إلى **بعض هداياته وفوائده:**

الأولى: الحذر من الكفر؛ فينبغي للإنسان أن يحذر غاية الحذر ولا يقول: "أنا إنسان مؤمن -والحمد لله- والكلام هنا عن الكفر"!! لا، بل إذا كان إبراهيم الخليل -عليه الصلاة و السلام- وهو شيخ الموحدين ومن أولي العزم من الرسل قال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ}[٢٢٧] فخاف على نفسه أن يقع في عبادة فعلى الإنسان أن يخاف على نفسه، وينأى ويجاهد حتى لا يقع في شيء من خصال الكفر أو النفاق، فالحذر من الكفر لأنّ الكافر لا ينتفع بشيء من أعماله في الآخرة كما قال -تعالى-: {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٢٢٨]

الفائدة الثانية من وحي هذا المثل: أنّ الإنسان قد يظلم نفسه، مع أنه ما من إنسان إلا وهو حريص على نفسه، لكن قد يظلم المرء نفسه كما في الآية: {أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٢٢٩] والعلماء يقولون إنّ **الظلم نوعان:**

١- **ظلم النفس**؛ وهذا درجاتٌ أعظمها الشرك والكفر؛ كما قال -تعالى-: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[٢٣٠] فالمشرك وضع الشيء في غير موضعه حيث جعل المخلوق في منزلة الخالق! وقد قال -جل وعلا-:

---

[٢٢٧] [إبراهيم:٣٥]
[٢٢٨] [البقرة:٢١٧]
[٢٢٩] [آل عمران:١١٧]
[٢٣٠] [لقمان:١٣]

{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[231] فهذا أعظم الظلم، ثم يليه: المعاصي على اختلاف درجاتها؛ كبائر، وصغائر، وحتى الكبائر درجات، وهذا كله من ظلم العبد لنفسه.

٢- النوع الثاني: **ظلم العبد لغيره**؛ وذلك بأن يتعرّض لغيره إما في بدنه، أو ماله، أو عرضه بالأذى والسوء. وقد قال النبي -ﷺ-: "إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"[232] فليحذر العبد من الظلم بنوعيه ظلم النفس وظلم الغير.

بهذا نكون انتهينا من موضوع **(النفقة والمنفقين)** وقد اندرج تحته خمسة أمثال، ولعلّنا نختم بخلاصةٍ حول هذا؛ فبعد هذه المسيرة العلمية الإيمانية من خلال خمسة أمثال قرآنية في موضوع النفقة والصدقة؛ يحسن أن نقف حيال هذا الموضوع قليلًا من باب التذكير والتحفيز من خلال **بعض الخلاصات السريعة** -إن شاء الله-:

الخلاصة الأولى: منزلة الصَّدَقة:

فالصدقة من أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله -تعالى- كما قال النبي -ﷺ-: "إن أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن، تكشف عنه كربًا أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا"[233]

والمتصدّق هو صاحب اليد العليا في الحديث: "اليد العليا خير من اليد السُّفلى، فالعليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة"[234]

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "إن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم"[235]

[231] [البقرة:٢٥٤]
[232] صحيح البخاري
[233] أخرجه الطبراني وحسَّنه الألباني
[234] أخرجه البخاري ومسلم
[235] رواه ابن خزيمة والحاكم

الخلاصة الثانية: أجر الصدقة العظيم، وثوابها الكبير عند الله:

فالله –تعالى– يربي الصدقات ويضاعف لأصحابها المثوبات؛ {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[٢٣٦]

وسبق معنا كما تذكرون أن الله –تعالى– ضرب مثلًا في هذا الموضوع في مضاعفة الصدقة فقال: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٢٣٧] فالصدقة ماءٌ زلال يُطفِئ نيران الخطايا ويغسل أدرانها كما جاء في الحديث عنه –ﷺ– أنه قال: "تصدَّقوا ولو بتمرة؛ فإنها تسدّ من الجائع، وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار"[٢٣٨]

وبعض أهل العلم التمسَ معنًى لطيفًا من قصة الرجل الذي سقى كلبًا فغفر الله له؛ فقال: إذا كان الله –تعالى– غفر لهذا الرجل الذي سقى كلبًا على شدة ظمئه؛ فكيف بمن سقى العطاش من المسلمين، وأشبع الجياع، وكسا العراة؟!

ولهذا أيضًا استحب بعض أهل العلم الصدقة عقب كل معصية؛ لأنه قد تكاثرت النصوص في كون الصدقة مكفرة للذنوب تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار.

الخلاصة الثالثة: بركة الصدقة والنفقات في وجوه الخير: ويدلّك على هذا تعدُّدُ الأمثال في هذا الموضوع، فهي بركة على المال وعلى صاحبها؛ تحفظ المال من الآفات والهلكات، وتجلب له البركات؛ قال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[٢٣٩]

وفي الحديث القدسي يقول الله –تعالى–: "يا ابن آدم انفق أُنفِق عليك"[٢٤٠]

وفي الحديث المشهور يقول النبي –ﷺ–: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وينزل فيه ملكان يقول أحدهما اللهم أعطِ مُنفقًا خلفًا، ويقول الأخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا"[٢٤١]

---

[٢٣٦] [الحديد:١٨]
[٢٣٧] [البقرة:٢٦١]
[٢٣٨] صحيح الجامع:٢٩٥١
[٢٣٩] [سبأ:٣٩]
[٢٤٠] صحيح البخاري ومسلم
[٢٤١] [متفق عليه]

والصدقة –كما هو معلوم– تُنمِّي المال وإذا كان الإنسان يخشى أن ينقص ماله بالصدقة فليستمع إلى هذا الحديث وهو قوله –ﷺ–: "ثلاثٌ أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه؛ فأما الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة.." الحديث[٢٤٢]

ويُذكر عن الحسن البصري –رحمه الله– أنه قال: "من أيقن بالخَلَف جادَ بالعطية".

والحقيقة أننا نشتكي جميعًا –إلا من رحم الله– من قلة البركة في أموالنا، فترى أحدنا يتقاضى راتبًا جيدًا لكن لا يأتي آخر الشهر إلا وقد نفد هذا الراتب أو أوشك على النفاد، أين تذهب هذه الأموال؟

وفي المقابل ترى مَن هو أقل راتبًا من الأول وربما أكثر صرفًا، عائلته أكبر ومسؤولياته أكثر؛ لكن ماله أكثر بركة، تجده ينفق وينفق ويبقى معه شيء، يوفّرُ، والقليل يكفيه.

من أسباب ذلك: حسن تدبير المال، وأيضًا: تعاهد الصدقة فهذا –بإذن الله– من أسباب حلول البركة.

الخلاصة الرابعة: الصدقة تدفع البلاء:

وهذا دلّت عليه النصوص، وأظهرته الوقائع والتجارب، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات"[٢٤٣]

فالصدقة سبب لدفع البلاء من الأمراض والأسقام، وقد جاء في حديثٍ أيضًا حسّنه بعض أهل العلم: "داووا مرضاكم بالصدقة" ومِن ذلك الإمام الحاكم، والحاكم –رحمه الله– وهو إمامٌ من أئمة المحدّثين له الكتاب المشهور (المستدرك) لأبي عبد الله الحاكم، هذا الرجل يقولون إنه أصابته في يوم من الأيام قُرحة ظهرت في وجهه وكانت القرحة مشوِّهة، وبقيت فيه ما يقارب السَّنَة، فسأل أهل الخير فدعوا له، ثم تصدَّق على المسلمين، أي: هداه الله إلى هذا الأمر فوضع سقايةً (يعني مثل برادة ماء) ووضع هذا الماء على باب داره، فكان الناس يشربون منها، فما مرّ عليه أسبوع إلا وظهر الشفاء وزالت تلك القروح وعاد وجهه إلى أحسن ما كان!

---

[٢٤٢] رواه الترمذي وقال: حديث صحيح
[٢٤٣] رواه الحاكم وصححه الشيخ الألباني وغيره من أهل العلم

🔹 **الخلاصة الخامسة: الصدقة برهان:** وهذا حديث عن النبي -ﷺ- قال: "الصدقة برهان"[244] يعني أنها دليل على إيمان فاعلها؛ لأنّ المنافق يتكاسل عن الصدقة، فإذا رأيت الرجل يُرخي يده بالصدقة فهذه علامةٌ على صدق إيمانه، والصدقة بطيب نفسٍ تورث القلب حلاوة الإيمان وترسّخ اليقين وتُخلص التوكل، وتوجب الثقة وحسن الظن بالله -تعالى- وأيضًا تذكرون سبق معنا من ضمن الأمثال قوله -تعالى-: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ..}[245] الآية.

وقد تجلّى هذا المعنى في قوله تعالى: {لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[246] وقد ذكر أهل العلم قصصًا هذه الآية.

🔹 **الخلاصة السادسة: الصدقة تهذيبٌ وتزكية:**

قال الله -تعالى-: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}[247] هذا فيه جمعٌ بين التخلية والتحلية ففي قوله: {تُطَهِّرُهُمْ} إشارة إلى مقام التخلية، أي: التخلّي من الرذائل والذنوب والأخلاق السيئة، وفي قوله: {تُزَكِّيهِم} إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات والأعمال الصالحة، فالصدقة تطهّر النفس من الرذائل، وتنقّيها من الآفات، ومن ذلك مثلًا أنها تُبعد عن العبد صفة البخل وتُخلّصه من داء الشح؛ {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[248]

🔹 **الخلاصة السابعة: الصدقة استثمارٌ رابح:**

فالناس الآن يتطلعون إلى الاستثمارات التي تُدِرّ الأرباح، والحقيقة أن الصدقة تأتي في مقدمة هذه الفرص الاستثمارية وهي خير ما يُدَّخر للمستقبل، وفي حديثٍ عن النبي -ﷺ- أنه حدّث أصحابه يومًا فقال لهم: "أيُّكم مال وارثه أحب إليه من مالِه؟" فقالوا: يا رسول الله ما منّا أحدٌ إلا ومالُهُ أحب إليه من مال وارثه، فقال: "فإنَّ ماله ما قدّم، ومال وارثه ما أخَّر"[249]

[244] [صحيح مسلم]
[245] [البقرة : ٢٦٥]
[246] [آل عمران : ٩٢]
[247] [التوبة : ١٠٣]
[248] [الحشر: ٩]
[249] [رواه مسلم]

وقرأ عليه الصلاة والسلام يومًا {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} فقال: "يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت؟"[٢٥٠]

الخلاصة الثامنة: الحذر من مُبطلات الصدقة: فعلى المسلم أن تكون صدقته بإخلاصٍ –كما سبق معنا في الأمثال السابقة–: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[٢٥١]، {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}[٢٥٢] في هذه الأمثال جاء النص على قضية الإخلاص في النفقة.

وليحذر العبد في نفقاته مما يبطل الصدقة أو يُخل بثوابها كالرياء، والمنّ، والأذى.

الخلاصة التاسعة: الصدقة الجارية: فهناك صدقة جارية وصدقة غير جارية، والصدقة الجارية هي التي تبقى مدّة طويلة ويستمر ثوابها بعد موت الإنسان؛ مثل بناء مسجد، أو حفر بئر، أما الصدقة التي لا تبقى فمثل إنسان يتصدق بطعام على فقير؛ فهذه صدقة لا شك، وفيها ثواب وأجر –بإذن الله–؛ لكن لا تسمى صدقة جارية لأنها لا تبقى (أي لا يستمر أجرها بعد موت الإنسان) والأصل في هذه الصدقة قوله –ﷺ–: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية.."[٢٥٣] الحديث

هذه الصدقة الجارية أنواعها كثيرة مثلما ضربنا بعض الأمثلة، ومثل أيضًا: غرس الأشجار، وطباعة المصحف وتوزيعه، ونشر العلم بطباعة الكتب سواء الكتب المقروءة أو الوسائط المسموعة والمرئية ونحو ذلك وقد جاء في الحديث: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علّمَه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته"[٢٥٤].

فلنحرص بما نستطيع أن نجعل لنا نصيبًا من هذه الصدقة الجارية بشيء مما يتيسر.

---

[٢٥٠] [رواه مسلم]
[٢٥١] [البقرة:٢٦١]
[٢٥٢] [البقرة:٢٦٥]
[٢٥٣] أخرجه مسلم
[٢٥٤] رواه ابن ماجه بسند حسن

❖ **الموضوع الخامس: نور الهداية:** وقد جاء في هذا الموضوع مثلٌ عظيم وهو قوله -تعالى-: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**[٢٥٥]

هذا مثلٌ عظيم وقد أطال بعض أهل العلم في الكلام عليه حتى أنّ الإمام أبا حامد الغزالي -رحمه الله- صنَّف في هذه الآية كتابًا سمَّاه "مشكاة الأنوار"، ولخَّصه الإمام الرازي -رحمه الله- في تفسيره (مفاتح الغيب).

والكلام على هذا المثل في مباحث:

المبحث الأول: معنى المثل: نبيّن بعض المفردات الواردة في هذا المثل وهي قوله:

{كَمِشْكَاةٍ}: المشكاة هي الكوَّةُ في الحائط غير النافذة، فتحة لكنها ليس لها نفوذ ليست نافذة إلى الخارج، فهي شيءٌ داخل في الحائط، وتوجد في بعض البيوت القديمة.



(المشكاة)

{دُرّيّ}: متلألئ.

➘ **نعود إلى تصوير المثل:**

{اللهُ نورُ السَّمَاوَاتِ والأرضِ} يدبّر الأمر فيهما ويهدي أهلهما، فاللهُ نور السماوات والأرض، هذا النور يشمل النور الحسي، والمعنوي، فهو -سبحانه وتعالى- نورٌ، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه

---

[٢٥٥]

ما انتهى إليه بصره مِن خلقه، وبه استنارت السماوات والأرض وما فيهما، وأيضًا كتابُ الله نور، وهدايته نور، فلولا نوره -تعالى- لتراكمت الظلمات بعضها فوق بعض.

ويوم القيامة حينما تذهب الأنوار الحسية التي كانت في الدنيا (كالشمس والقمر والنجوم..) -حيث تكوَّر (تُلَفّ) الشمس كما قال -تعالى-: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}[٢٥٦]، ويُخسَف القمر كما قال -تعالى-: {وَخَسَفَ الْقَمَرُ}[٢٥٧]، والنجوم تتناثر ويذهب ضوؤها، فيجيء الرب -جل وعلا- لفصل القضاء بين العباد؛ {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}[٢٥٨]، فهو -سبحانه وتعالى- نورٌ، وهو منوِّر السماوات والأرض.

ثم ضَرَبَ الله -تعالى- مثلًا لهذا النور في قلب المؤمن، لأنّ قلب المؤمن فيه نورٌ هو نور الإيمان، فهذا النور الإيمانيّ الذي يشعُّ في قلب المؤمن ضرب الله له هذا المثل فقال: {مَثَلُ نُورِهِ} أي: الذي يهدي إليه عبده -وهو الإيمان في قلب المؤمن- {كَمِشْكَاةٍ} والمشكاة -كما قلنا- هي الكوّة في الحائط التي ليست بنافذة، وهذه الكوة أو المشكاة فيها مصباح، -والكوة إذا صار المصباح فيها تحفظ الضوء حيث يجتمع نور المصباح فلا يتفرّق- وهذا المصباح في زجاجة، وهذه الزجاجة من شدة صفائها كأنها كوكبٌ مضيء كالدّرّ يتلألأ.

يعني عندنا الآن كوة وفيها زجاجة وهذه الزجاجة فيها مصباح. هذا المصباح يستمدّ وقوده ومادته التي يضيء بها من زيتٍ هو أفضل الزيوت؛ زيت شجرةٍ مباركة (شجرة الزيتون)، وهذه الشجرة لا شرقية فقط فلا تصيبها الشمس في آخر النهار، ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس في أول النهار، ولكن هي متوسطة، في مكانٍ من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، ولا يسترها عن الشمس شيءٌ فهي قد استمدّت من نور الشمس في جميع الوقت لا في بعضه دون بعض، ولهذا كان زيتها من أحسن ما يكون ومن أصفى ما يكون، حتى أنه يكاد يضيء قبل أن تمسّه النار، فكيف إذا مسَّته؟! وهذا مبالغة في وصف صفاء الزيت وحُسنه وجودته.

ثم قال: {نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ} يعني اجتمع نورٌ على نور، نور إشراقِ الزيت على نور إشعال النار في المصباح، فعندنا مصباحٌ يضيء، وعندنا زيتٌ يُشرق ويتوقَّد صفاءً وحُسنًا ونقاءً.

---

[٢٥٦] [التكوير:١]
[٢٥٧] [القيامة:٨]
[٢٥٨] [الزمر:٦٩]

فكأن المعنى أنّ قلب المؤمن هكذا إذا أشرقَ فيه نور الهداية، فالله -تعالى- يهدي ويوفِّق للإيمان والقرآن من يشاء.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ} ليعقلوا عنه أمثاله وحِكَمه {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} لا يخفى عليه شيء.

فإذًا **الخلاصة**: أن هذا مثلٌ ضربه الله -تعالى- لنور الإيمان في قلب العبد وهذا النور الذي أنزله -جل وعلا- على عباده هو الحياة، وأصلُ هذا النور في القلب، ثم تقوى مادته فيتزايد حتى يظهر على الوجه والجوارح، ولهذا جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "إنّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعةً في الرزق، وقوّةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق..".

إذًا هذا المثل مركب يحتاج تأمُّلًا؛ فنعيد باختصار ونلخّص:

عندنا مشكاة، وهذه المشكاة فيها زجاجة، وهذه الزجاجة فيها مصباح، وهذا المصباح يوقد من زيت الزيتون المبارك، أربعة أشياء.

الآن نريد أن **ننزّل المثل على الممثَّل له**:

المشكاة يقابلها: **الصدر**، و**الزجاجة** التي في المشكاة يقابلها: **القلب**؛ لأن القلب في الصدر؛ {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٢٥٩]

ولاحظ أنّ القلب شُبِّه بالزجاجة لأن الزجاجة تجمع أوصافه، تجمع: الصفاء، والرقة، والصلابة، وكذلك القلب؛ فهو يرى الحقّ والهدى ويميّز بصفائه، وتحصل في هذا القلب الرحمة والرأفة والشفقة والتأثُّر والاتعاظ برقّته، وهو أيضًا ينطوي على الشدّة لأعداء الله وجهادهم والغلظة عليهم بما فيه من صفة الصلابة (الصلابة وليس القسوة).

[٢٥٩] [الحج:٤٦]

ونور **المصباح الحسيّ**، يقابله **نور الإيمان المعنوي في القلب**، فقلب المؤمن فيه مصباحٌ يضيء بالإيمان والهدى، وأيضًا كما أن ذلك المصباح يستمدّ مادته ووقوده من **زيتٍ** هو من أحسن الزيوت وأنقاها وأصفاها؛ فكذلك نور القلب المعنويّ، يستمدّه من وقودٍ هو أحسن الوقود وهو شجرة **الوحي** المباركة.

فهذا القلب لما كان متعلقًا بالوحي والقرآن وعكف على معاني الإيمان، وما أنزله الله على رسوله ﷺ من الكتاب والسنة؛ فهذا يُثمر نورًا، وهذا هو الوقود الذي يضيء الإيمان في القلب، (نور الهداية) في القلب.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الممثل به: هو مشكاةٌ فيها مصباح وهذا المصباح يوقَد من زيت الزيتون وهو في زجاجةٍ صافيةٍ صُلبَة.

الممثل له: نور الإيمان في قلب العبد.

وجه الشبه: النور والصفاء والضياء.

ننتقل بعد هذا إلى هداياتٍ وفوائد من وحي المثل لعلّ نفحةً من نفحات ربنا، ومِنّةً من عطاياه يمُنّ بها علينا وتصيبنا فنسعد بها في الدنيا والآخرة وهذا ثمرة العلم: أن يتعلم الإنسان لأجل حصول التزكية {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}[260] فيتعلم الإنسان ليرفع الجهل عن نفسه، ويعبد الله على بصيرة، ولأجل أن تتزكى نفسه، {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ}[261]، {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[262] والتزكية تحصل بمثل هذه المعاني: الإيمان والهداية وصلاح القلب.

لهذا سنتكلم عن **هداياتٍ من وحي هذا المثل** في مباحث ووقفات مختصرة:

المبحث الأول: معنى النور: والحقيقة أنّ النور تكلّمَ فيه الناسُ كلامًا كثيرًا، (الفلاسفة والحكماء وأصحاب العلم الحديث، الفيزياء، وعلماء الطبيعة.. وغيرهم)، لكن كلٌّ له نظرته –وليس هذا محل البسط في هذا الموضوع– حتى إنَّ بعضهم عبد النور! يعني يرون أنه إله، وأن النور هو خالق الخير، والظلمة خلقت الشر!

[260] [البقرة:١٢٩]
[261] [الأعلى : ١٤]
[262] [الشمس : ٩]

والنور في اللغة: هو الضياء وهو ضدّ الظلمة.

والنور يكون نورًا ذاتيًا وليس انعكاسًا للضوء، وهذه نقطة ننتبه لها لأنّ هناك كلامًا يُطرح أن النور عبارة عن انعكاس للضوء وهذا يقول به الفلاسفة وبعض الحكماء، وهذا ليس على إطلاقه وإنما النور يكون نورًا ذاتيًا.

وذكر الحافظ ابن رجب –رحمه الله– وغيره فرقًا بين النور والضياء، ومعنياهما متقاربان جدًا لكن ثمّة بينهما فرقٌ لطيف: أنّ الضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق مثل: ضياء الشمس، بخلاف القمر فليس فيه حرارة أو إحراق وإنما هو نورٌ محض يعني فيه إشراق بغير إحراق ولهذا قال الله –جل وعلا–: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}[263] ومن هنا وصف الله شريعة موسى بأنها ضياء: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}[264]، ووصف شريعة محمد –ﷺ– بأنها نور فقال: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}[265]

قال العلماء في هذا التفريق: ذلك لأن شريعة موسى –عليه السلام– كان فيها شيء من الآصار والأغلال والأثقال فوُصِفت بأنها ضياء لأن الضياء نور فيه إحراق، وشريعة محمد –ﷺ– وُصِفت بأنها نور؛ لأن النور يكون بغير إحراق فشريعة محمد –ﷺ– حنيفيةٌ سمحة، (يُسر).

➢ **مسألة؛ هل النور من أسماء الله –تعالى–؟** في هذا رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أنه اسم من أسماء الله (النور)، وذهب إلى ذلك ابن القيم –رحمه الله– وانتصر له وقرره، وكذلك قبله الحافظ ابن خزيمة –رحمه الله– في كتاب التوحيد.

وابن القيم يستدل بهذه الآية: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[266]

وقال في النونية:

والنور من أسمائه أيضًا ومن   أوصافه سبحانَ ذي البرهانِ

---

[263] [يونس : ٥]
[264] [الأنبياء : ٤٨]
[265] [المائدة : ١٥]
[266] [النور : ٣٥]

والرأي الثاني لأهل العلم: أنه ليس من أسمائه الحسنى، وأنّ هذا وصفٌ لله وليس من أسمائه، فلا يقال: من أسمائه النور، ولا يقال: "عبد النور"، وهذا أيضًا مذهب جماعة من أهل العلم، وهو الذي عليه فتوى اللجنة الدائمة بناءً على أن أسماء الله –تعالى– توقيفية ولم يثبُت النور من أسمائه (يعني ما ورد أنّ من أسمائه النور وإنما ورد مضافًا في هذه الآية: {نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والإضافة غير الإطلاق؛ يعني حينما نقول: "الله نور السماوات والأرض" غير ما نقول: "الله النور").

فهذه صفة من صفات الله –تعالى– لا إشكال في ذلك، يعني هي مسألة اجتهادية ليس فيها تعنيف، لأنّ كلَّ قولٍ فيها قال به علماء معتبرون، والأولى أنّ الإنسان لا يسمي بهذا الاسم (عبد النور) على أقل الأحوال لأنه من الأمور المشتبهة، لكن من سمّى بذلك فلا يُنكر عليه ولا يُشدَّد عليه لأنه له سَلفٌ من أهل العلم.

المبحث الثاني: أقسام النور: ونحن في آية النور في سورة النور، ولهذا سميت السورة بهذا الاسم (لورود آية النور فيها).

والنور قسمان: **نورٌ دنيوي، ونور أخروي**.

- **والنور الدُّنيوي** نوعان:

١- نورٌ حسّيٌّ؛ وهو ما يُدرك بالبصر مثل نور الشمس، والقمر، والنجوم، والنار، وغيرها.

ومنه قوله –تعالى–: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا}[٢٦٧]

٢- نورٌ معنوي: يُدرك بالبصيرة مثل نور الإيمان، نور القرآن، نور العلم، (ومنذ دخلنا المدارس تعلّمنا أنّ: العلم نورٌ والجهل ظلمات). وهذا النور أيضًا له أمثلة في آيات كثيرة، منها: قول الله –تعالى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}[٢٦٨] هذا نور الهداية.

- **القسم الثاني: النور الأُخروي**: يعني في الآخرة هناك نورٌ؛ منه قوله –تعالى–: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ

[٢٦٧] [يونس : ٥]
[٢٦٨] [الحديد : ٢٨]

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}[269]

هذا النور في الآخرة حيث ترى المؤمنين والمؤمنات يتقدمهم نورهم على الصراط بين أيديهم وعن أيمانهم بقدر أعمالهم، وهذا النور حقيقي، ولهذا يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا (أي: انتظرونا)، دعونا نستَضِئْ من نوركم، لأنهم يرون هذا النور فهم يطلبونه، لكن الملائكة تزجرهم وتقول: ارجعوا وراءكم وتقول لهم من باب السخرية والاستهزاء: {ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} أي: اطلبوا نورًا، {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ} الآية.

وهنا أضاف الله –عز وجل– النور إلى المؤمنين والمؤمنات، قال: {يَسْعَىٰ نُورُهُم} لأنه خاصٌ بهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وهذا المعنى تكرر في سورة أخرى هي سورة التحريم: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}[270]

المبحث الثالث: النور في القرآن الكريم: القرآن حفلَ بهذه الكلمة (النور) وقد وردت في تسعة وأربعين موضعًا، وجاءت على معانٍ منها:

① **القرآن** هو النور المبين؛ قال الله –تعالى–: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا}[271]، وقال: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[272]

وقال –جل وعلا–: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[273]، فهذا القرآن نورٌ يبدد ظلمات الجهل والضلال والشكّ، فمن أراد نور الهداية والإيمان فعليه بنور القرآن.

---
[269] [الحديد : ١٢-١٣]
[270] [التحريم : ٨]
[271] [النساء : ١٧٤]
[272] [الأعراف : ١٥٧]
[273] [التغابن : ٨]

② **المعنى الثاني**: **الرسول** -ﷺ- كما في قوله -تعالى-: {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ}[٢٧٤] النور هو الرسول -ﷺ-، والكتاب المبين هو القرآن. وقال في الآية الأخرى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا}[٢٧٥]

سراجٌ منير؛ نورٌ أضاء الدنيا بما جاء به من الهدى والحق، وطمَسَ الظلمات التي كانت تغشى الناس بالشرك والضلالات والجهالات.

بُعِث النبي وأوتي التنزيلا   طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

شمس الهداية أشرقت من نوره   لا تذكروا التوراة والإنجيلا

③ **المعنى الثالث**: **الدين**، فالدين نور، قال -تعالى-: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢٧٦]وسبقَ الكلام عليه.

وفي قوله -تعالى-: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[٢٧٧]

نور الله هو دينه وشرعه الذي أنار الدنيا وقَشع الظلمات، وسرى في الأرض كما يسري ضوء الشمس، الشمس تعمّ الأرض كذلك الدين انتشر في هذه الأرض.

④ **المعنى الرابع**: **الإيمان والهداية والعلم**؛ وهذه معانٍ متقاربة كما قال -تعالى-: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}[٢٧٨] وقال: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[٢٧٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة يضيق المقام عن الكلام عليها.

---

[٢٧٤] [المائدة : ١٥]
[٢٧٥] [الأحزاب : ٤٥-٤٦]
[٢٧٦] [الأنعام : ١٢٢]
[٢٧٧] [التوبة:٣٢]
[٢٧٨] [البقرة : ٢٥٧]
[٢٧٩] [ابراهيم:١]

المبحث الرابع: وقفات حول الهداية: يعني هذا الموضوع الذي ذكرنا تحته هذا المثل (نور الهداية)؛ والهداية من أعظم النعم وأجلّ المنن، قال الله –جل وعلا–: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}[٢٨٠]، وقال النبي –ﷺ– للأنصار: "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟"[٢٨١].

وكلّ واحد منّا يكرر في اليوم والليلة مرات ومرات يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[٢٨٢] يسأل الله الهداية في سورة الفاتحة، يكررها مرات، كم ركعة يصلّي في اليوم! وفي كل ركعة يقول هذا الدعاء، دعاء بالهداية، يدلّك على منزلة هذا الأمر، وشرفه، وعلوّ رتبته، لأن العبد مهما بلغ محتاجٌ إلى تفاصيل الهداية، مهما بلغ في التقى والإيمان فهو محتاج إلى الهداية، لأنّ هناك أشياء لم يصل إليها، مهما بلغ الإنسان فعنده فَوتٌ ونقص، وهو أيضًا محتاجٌ إلى الثبات على الهداية فحينما نقول: اهدنا، يعني زدنا هدًى وثبّتنا على هذه الهداية.

ثم الهداية من بركاتها أنه يتبعها هداية، فالهداية تجرُّ هدايات كما قال –تعالى–: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى}[٢٨٣]

☑ ومما يعين على تحصيل الهداية:

- **الدعاء:** قال الله –تعالى– في الحديث القدسي: "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم"[٢٨٤]

ومن الأدعية النبوية المأثورة دعاء: "اللهم اهدني وسددني"[٢٨٥]، والدعاء الآخر: "واهدني ويسّر الهدى لي"[٢٨٦]

- ومما يعين على تحصيلها: **الإيمان؛** {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}[٢٨٧] فكلما زاد العبد إيمانًا زاد هدايةً.

---

[٢٨٠] [الحجرات:١٧]
[٢٨١] رواه البخاري ومسلم
[٢٨٢] [الفاتحة:٦]
[٢٨٣] [محمد:١٧]
[٢٨٤] رواه مسلم
[٢٨٥] صحيح مسلم
[٢٨٦] رواه الترمذي وغيره وصححه الألبانيّ
[٢٨٧] [التغابن:١١]

- ومما يعين: **القرآن**: {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[٢٨٨]، الأقوم في كل شيء؛ في العقائد وفي الأحكام والشرائع وفي الأخلاق والفضائل، فالتي هي أقوم يهدي إليها القرآن؛ {قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[٢٨٩]

- وممّا يعين على الهداية: **المجاهدة** فالمسألة ليست بالتمنّي.

وما نيلُ المطالبِ بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

ونحن في زمنٍ أشدّ ما نكون بحاجةٍ إلى نور الهداية إلى نور الإيمان في قلوبنا، لأن هذا النور قد خَفَتَ، وضعف ضياؤه، فنحن نحتاج أن نشعله، وأن نجدد هذا النور وهذا المصباح في القلب، فنحتاج إلى مجاهدة.

وطريق الجنة محفوف بالمكاره، وطريق النار محفوف بالشهوات، وقد قال الله -تعالى-: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[٢٩٠]

تريد الهداية؟ جاهد نفسك لأن طريق الإيمان والثبات يحتاج إلى صبر ومجاهدة، وأن تجاهد نفسك على العبادة، تجاهد نفسك على العلم.

النفس بطبيعتها تريد النوم والراحة، تريد التنعم بالملذات، والتفنن بأنواع المأكولات والمشروبات، لكنَّ صرفها إلى طريق الهداية والإيمان والعبادة والعلم يحتاج إلى مجاهدة لا سيما في أول الأمر يكون فيه صعوبة وثقل، ثم مع الوقت إذا علمَ اللهُ منك صدقًا انقلب ذلك إلى أُنسٍ وراحة يجدها العبد.

ولهذا قال بعض السلف: جاهدتُ نفسي عشرين سنة على قيام الليل ثم تلذَّذتُ به عشرين سنة.

[٢٨٨] [الإسراء:٩]
[٢٨٩] [المائدة:١٥-١٦]
[٢٩٠] [العنكبوت:٦٩]

- أيضًا مما يعين: **الصحبة الطيبة**؛ فهذا مما يعين العبد على الهداية والثبات عليها: {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[٢٩١]

- أيضًا مما يعين على الهداية: **الاعتصام والتمسك بالدين والثبات عليه**؛ {وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[٢٩٢]، فاثبت وتمسّك واعتصم بحبل الله.

- وأيضًا مما يعين عليها: **طاعة الرسول –عليه الصلاة والسلام–** (اتباع ما جاءك منه) وهذا يدعونا إلى تعلُّم سنته والنظر في هديه وشمائله، والله –جل وعلا– قال: {وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا}[٢٩٣]، وقال: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}[٢٩٤]

فطريق الهداية أيضًا موقوفٌ على طاعة النبي ﷺ واتباع ما جاء به.

أسأل الله –عز وجل– أن يهديني وإياكم سواء الصراط، وأن يثبتنا على ذلك إلى أن نلقاه، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنا وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح إنه سميع قريب مجيب.

---

[٢٩١] [الأنعام:٧١]
[٢٩٢] [آل عمران:١٠١]
[٢٩٣] [النور:٥٤]
[٢٩٤] [النساء : ٦٦-٦٨]

❖ الموضوع السادس: النفاق والمنافقون:

وقد جاء في هذا الموضوع مثالان قرآنيان؛ نبدأ **بالمثل الأول** –وهو المثل العشرون باعتبار تسلسل الأمثال التي درسناها–: يقول الله –تعالى– بعد أن تكلم عن المنافقين وأوصافهم: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}**[٢٩٥]

وهذا المثل نتكلم عليه –إن شاء الله– كما تعودنا في مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

جاء هذا المثل في أوائل سورة البقرة، وبالمناسبة: هذا هو أوّل مثل يرِدُ في القرآن، يعني حينما تقرأ القرآن من فاتحته فأول مثل قرآني يقابلك هو هذا المثل، ولهذا مَن يراجع كلام العلماء في هذا المثل يجد أن المفسرين أطالوا الكلام عليه لأوّليته (نظرًا لأنه أول مثل) وبطبيعة الحال حينما يأتي الشيء لأول مرة فالكلام يُطال عليه ويستطرد فيه.

وفي أول سورة البقرة جاء الحديث عن ثلاثِ طوائف، **الطائفة الأولى**: هم المؤمنون، وقد تكلَّمَ الله عنهم في أربع آيات: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٢٩٦]

ثم انتقل إلى **الطائفة الثانية**؛ وهي: الكافرون وتحدَّثَ عنهم في آيتين اثنتين: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٢٩٧]

ثم انتقل إلى **الطائفة الثالثة** وهم المنافقون؛ وقد أطال فيهم حيث تحدّث عنهم في ثلاث عشرة آية من قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ...}[٢٩٨] إلى قوله: {...وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

[٢٩٥] [البقرة:١٧-١٨]
[٢٩٦] [البقرة:٢-٥]
[٢٩٧] [البقرة:٦-٧]
[٢٩٨] [البقرة:٨]

{كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[299] فهذه ثلاث عشرة آية وردت في المنافقين، وقد أطال فيهم لشدة الحاجة إلى بيان أمرهم وتجلية حقيقتهم؛ فلهذا ذكر جملةً من صفاتهم، لأنَّ أمرهم خفي مستتر يحتاج إلى بيان وإيضاح.

وبعد أن تكلم عن صفاتهم ختم ذلك بضرب مثلين بأشياء محسوسة وذلك كله زيادة في الكشف والبيان؛ المثل الأول: مثلٌ ناريّ، والمثل الثاني: مثلٌ مائيّ، فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة، وقد جعل الله –جل وعلا– الوحي الذي أنزله من السماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، أي: هذا الوحي الذي هو القرآن فيه النور وفيه الحياة، ولهذا سماه روحًا؛ {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا...}[300]، وسمّاه نورًا كما سبق معنا.

المبحث الثاني: معنى المثل:

يقول الله –تعالى–: {مَثَلُهُم} الضمير يعود على المنافقين.

{اسْتَوْقَدَ نَارًا}: استوقد بمعنى أوقدَ، فالسين والتاء هنا للتأكيد؛ كما في قوله –تعالى–: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ}[301] بمعنى أجاب، وقولهم: استبان الأمر يعني: بانَ وظهر، وقولنا: استقام فلان.

فالألف والسين والتاء التي تدخل على الفعل أحيانًا تكون بمعنى الطلب، وأحيانًا بمعنى التأكيد، فمثلًا: إذا قلت استغفرَ؛ أي: طلب المغفرة، أما استقام فهي من باب التأكيد، مثل: استوقدَ (يعني أوقد).

{فَلَمَّا أَضَاءَت}: الضوء هو النور الشديد.

{صُمٌّ}: جمع أصَمّ وهو فاقد السمع، والمراد: أنهم صمٌ عن الحق كما قال –تعالى–: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}[302]

وقوله: {بُكْمٌ}: جمع أبكم وهو العاجز عن الكلام، والمراد أنهم لا ينطقون بالحق.

وقوله: {عُمْيٌ} جمع أعمى، والعمى يُطلق على عمى البصر وعمى البصيرة، والمراد هنا: عمى البصيرة

---

[299] [البقرة:٢٠]
[300] [الشورى:٥٢]
[301] [آل عمران:١٩٥]
[302] [الأنفال:٢١]

تصوير المثل: هذا مثَل ضربه الله –تعالى– لحال المنافقين، وأن حالهم تشبه حال جماعة في ليلة مظلمة، في مكانٍ ما في البر مثلًا أو غيره، فأوقدَ أحدهم نارًا للدفء والإضاءة، فلما سطعت النار وأضاءت وأنارت ما حوله فأبصر ما ينفعه وما يضره؛ انطفأَت النار فجأةً فصار أصحابها في ظلماتٍ لا يرون شيئًا ولا يهتدون إلى طريق ولا مخرج! فاجتمعت عليهم ظلمات: ظلمة الليل، والظلمة الحاصلة بعد فقدان النور –وهذه أشد من الظلمة الأولى–، فذهبَ ما في النار من النور والاشراق، وبقي ما فيها من الدخان والإحراق.

يقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: "ليسَ أحدٌ من أهل التوحيد إلا يُعطى نورًا يوم القيامة، فأمّا المنافق فيُطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم: {يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}[٣٠٣]" انتهى كلامه.

ولهذا يقول المنافقون: {انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ}[٣٠٤] لأن نورهم ذهب.

فإذًا: هذه حال المنافقين، صمٌّ لا يسمعون هدًى، بكمٌ لا ينطقون به، عميٌ لا يبصرونه بقلوبهم، فهم يتخبطون في ظلماتٍ هي ظلمات الكفر والشكوك والنفاق في الدنيا، ثم تنتظرهم ظلمات القبر والنار والعذاب في الآخرة، فهم في ظلمات في الدنيا وفي ظلمات في الآخرة.

وهذه الصفات الثلاث (صمٌّ، بكمٌ، عميٌ) اجتمعت لكل واحد منهم، والمعنى أن كل واحد من هؤلاء كالأصم الأبكم الأعمى، وليس المعنى على التوزيع (أن بعضهم كالأصم وبعضهم كالأبكم وبعضهم كالأعمى) لا، بل كل واحد اجتمعت فيه هذه الصفات الثلاث، وهذا من باب تعدد النعوت واجتماعها في شخصٍ واحد.

وقوله: {فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} يعني: لا يرجعون عن نفاقهم وضلالهم الذي اشتروه، ولا يرجعون إلى الهدى بعد أن باعوه، كما قال الله عنهم قبل ذلك: {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[٣٠٥]

---

[٣٠٣] [التحريم:٨]
[٣٠٤] [الحديد : ١٣]
[٣٠٥] [البقرة:١٦]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الممثَّل به: حالُ جماعةٍ في ليلةٍ مظلمة أوقد أحدهم نارًا لأجل أن يتدفأ بها ويستضيء، فلما سطعت النار وأضاءت وأنارت ما حوله انطفأت النار، فصار أصحابها في ظلمات لا يرون شيئًا.

إذًا: هذا الممثَّل به (الذي استوقد نارًا فلما أضاءت النار انطفأت).

الممثَّل له: المنافقون الذين أسلموا في أول الأمر ثم انطفأ نور الإيمان في قلوبهم، فكفروا في الباطن لكن أظهروا الإسلام.

أو[306]: المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر من البداية فانتفعوا انتفاعًا مؤقّتًا بهذا الإسلام الظاهري (حيث حُقنت دماؤهم، وحُفظت أموالهم) لكن هذا مؤقت، وعاقبتهم الظلمة والعذاب.

وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له: الانتفاع المؤقّت بالنور، ثم البقاء في شدة الظلام، فلو نظرتَ إلى طرفي المثل (في الممثل به، والممثَّل له) تجد أنّ كلًا منهما انتفع بالنور انتفاعًا مؤقتًا، لكن العاقبة كانت أن بقيا في حندس[307] الظلام.

الممثَّل به: الذي استوقد نارًا فلما أضاءت النار انطفأت **(ذهب نورها)**.

الممثَّل له: المنافقون الذين أسلموا ثم كفروا باطنًا، أو: المنافقون الّذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

وجه الشبه: الانتفاع المؤقّت بالنور، ثم البقاء في شدة الظلام.

[306] سيأتي تفصيله.
[307] شدة الظلام وسواده.

نختم الكلام عن هذا المثل **ببعض النكات والفوائد البيانية** في هذا المثل.

• **النكتة والفائدة الأولى: وجه تشبيه المنافقين بصاحب النار التي أضاءت ثم ذهب نورها:**

تكلّم العلماء والمفسرون –رحمهم الله– عن وجه الشبه بين المنافقين وصاحب النار التي أضاءت ثم ذهب نورها. ومحل البحث هو: **أين ما يقابل النور عند المنافق؟**

وقد ذكروا في الجواب عن هذا أوجُهًا أشهرها وجهان:

– **الوجه الأول**: أنّ هذا المثل واردٌ في المنافق الذي آمن بالله وأسلم قلبًا وقالبًا، لكنه بعد ذلك كفرَ باطنًا، وبقي على الإسلام الظاهري، فالنور الذي يقابله في المثل في حاله هو **إيمانُهُ الأول**؛ لأنه في البداية آمن ودخل في الإسلام وآمن بقلبه، لكنّه إيمان مؤقت سرعان ما انتكس فكفر بقلبه وبقي على الإسلام الظاهري.

ويرجّح هذا الوجه قوله –عز وجل– عن المنافقين في سورة "المنافقون": {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا}[٣٠٨] يعني: آمنوا بقلوبهم، ثم كفروا بقلوبهم أيضًا.

– **الوجه الثاني**: أن النور الذي ذُكر في هذا المثل يقابله عند المنافق **المنفعة التي يحصل عليها من إظهار الإسلام**، وإلا فهو أصلًا كافر من البداية، لكن تظاهر بالإسلام، وحينما تظاهر به صار يُعامَل معاملة المسلم، فينتفع بمنافعَ دنيويّةٍ، ويُحقن دمه فلا يُقتل، وتكون أمواله محفوظة، وعرضه محفوظ، ويحصل له الأمن، فهذه المنافع المؤقتة بالنسبة له كالنور الذي يُنتَفَع به مؤقتًا، لكن يعقب ذلك ظلماتٌ وهي ظلمات القبر، والنار، والعذاب في الآخرة.

عن قتادة –رحمه الله– (وهو من كبار أئمة المفسرين من التابعين) في قوله –تعالى–: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ}[٣٠٩] قال: هي: "لا إله إلا الله".

يعني كلمة الإسلام، أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمِنوا في الدنيا، ونكحوا النساء، وحقنوا دماءهم حتى إذا ماتوا {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ}.

[٣٠٨] [المنافقون:٣]
[٣٠٩] [البقرة:١٧]

واستدلّ أصحاب الوجه الثاني –ومنهم الإمام الطبري شيخ المفسرين– بقول الله –تعالى– عن المنافقين: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ}[310] فهذا يدلّ على أنهم لم يؤمنوا في وقت من الأوقات.

لكن أجاب أصحاب الرأي الأول عن هذه الآية –ومنهم الحافظ ابن كثير– بأنّ هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} إخبارٌ عن حالهم حالَ نفاقهم (وقتَ كفرهم)، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم قبل ذلك إيمان، ثم سُلبوه وذهب عنهم وطُبع على قلوبهم.

نُعيد الكلام باختصار: في المثل أثبتَ لهم نورًا فأين ما يقابل النور عند المنافق؟

قلنا إنّ هناك وجهان؛ الوجه الأول: أنّ النور يقابله الإسلام الأوّل، لأن هذا المنافق أسلم أولًا، ثم كفر في باطنه، فهذا الإسلام عبارة عن نور، لكنّ النور انطفأ وبقي في ظلمات نفاقه ورجسه.

والوجه الثاني: أن يكون أصلًا من البداية منافقٌ دخلَ ظاهريًا في الإسلام؛ فالنور في المثل يقابله المنافع التي حصل عليها في الدنيا؛ فهذه كأنها نورٌ مؤقت سرعان ما ينطفئ ويزول.

والحقيقة: أنه يمكن يُحمل المثل على المعنيين، ويكون هذا باعتبار اختلاف حال المنافقين وأنهم أنواع؛ منهم مَن أسلم في أول أمره ثم كفر باطنًا، ومنهم من أسلم ظاهرًا فقط من أول الأمر، فلا مانع أن يُحمَل ذلك على تعدد الأحوال ويكون بحسب حالهم.

• **النكتة الثانية (الفائدة الثانية): التعبير بالنور في المثل**، يقول الله –تعالى–: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمِ}[311]

لم يقل "ذهب بنارهم" مع أن الكلام: {اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ..} كان المتوقع أن يقول: "ذهب الله بنارهم" لكنه قال: {بنورهم}، فما هي النكتة البلاغية هنا؟

---

[310] [البقرة:٨]
[311] [البقرة : ١٧]

أيضًا تكلم أهل العلم عن ذلك، وخلاصة ما ذكروه: أنّ النار فيها أمران؛ الإضاءة والإحراق، فذهب ما فيها من الإضاءة وهو النور، وبقي ما فيها من الإحراق وهو النار.

لو قال: "..استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنارهم" يُفهَم منها أنه ذهب الأمران (ذهب النور وذهب الإحراق) لكن لما قال: {اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم} نفهم أن الذي ذهب هو النور والإضاءة، لكن بقي شيءٌ آخر في النار وهو الإحراق والدخان.

فإذًا: هذا حال المنافق ذهب عنهم نور الإيمان، وبقيت حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم فهم في نار، قد ذهب النور وبقيت الحرارة والإحراق.

- **النكتة الثالثة: في الآية تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة:** وهذا كثير في كتاب الله تعالى؛ والنور هو الغاية في الهداية في الطريق، وبه تحصل المنفعة، وتزول الحيرة والقلق والخوف، فالإنسان إذا كان يسير في طريق وهذا الطريق فيه نور يحسّ بأمان ويهتدي في طريقه، وتذهب عنه المخاوف والقلق؛ وهكذا حال الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فهو نور يستضيء به المؤمن في سلوكه، ويهتدي به ويحصل عنده الأمن والطمأنينة والسكون والرضا.

وفي المقابل: الظلمة تدل على الضلال في الطريق والتّيهِ والحيرة والخوف؛ فكذلك حال الكفر إذا استقر في قلب العبد اجتمعت له هذه المعاني: الضلال والقلق والشتات والحيرة.

وتذكرون سبق معنا في مثلٍ من الأمثال السابقة قوله تعالى: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٣١٢]

ونختم الكلام على هذا المثل **بفوائد من وحي المثل:**

- **الفائدة الأولى:** أن المنافقين ليس في قلوبهم نورٌ، كما قال تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}[٣١٣]

---

[٣١٢] [الأنعام: ١٢٢]
[٣١٣] [البقرة: ١٧]

- **الفائدة الثانية:** أن الإيمان نورٌ يضيء لصاحبه، والنور درجاتٌ متفاوتة فكذلك المؤمنين إيمانهم متفاوت.

- **الفائدة الثالثة:** في قوله تعالى: {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ} –وهذه سبقت معنا–: جاء النور مفردًا والظلمات جمع، قال أهل العلم: لأن الحق واحد وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة:

{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}[٣١٤] سُبُل لأنها طُرق.

- **الفائدة الرابعة: فائدة مسلكية:** الحذر من الضلالة بعد الهدى، والانتكاسة بعد الاستقامة؛ بأن يفارق العبدَ النور بعد أن استضاء به!

ولهذا من الأدعية المأثورة عن النبي –ﷺ– أنه قال: "أعوذ بك من الحور بعد الكور"[٣١٥] الحور بعد الكور: معناه: الرجوع من الاستقامة إلى النكص، ومن الطاعة إلى المعصية. فنسأل الله تعالى الثبات إلى الممات.

- **الفائدة الخامسة: أن الشيء يُقاس بثمرته ومنفعته:** وهذه أخذناها من قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}[٣١٦] فلما ذهبت عنهم منفعة الكلام ومنفعة الاستماع ومنفعة البصر؛ نُفيت عنهم –مع أن أصل الحواس موجود– لكن نُفيت عنهم هذه الحواس مع وجودها لانتفاء المنفعة الحقيقية منها، ولهذا قلنا في الفائدة أن الشيء يُقاس بثمرته ومنفعته فإذا انتفَت المنفعة انتفى الشيء ولو كان هو ذاته موجود.

ولعلنا نُنَزِّل هذه الفائدة على أمرٍ نحن فيه: وهو طلب العلم فهذا الطريق (طريق العلم) الغايةُ منه: هي ثمرته ومنفعته؛ وهي صلاح القلب والعمل.

فرأس العلم تقوى الله حقًّا ... وليس بأن يُقال لقد رأستَا

إذا ما لم يُفِدك العلم خيرًا ... فخيرٌ منه أن لو قد جهلتَا

وإن ألقاكَ فَهمُكَ في مهاوٍ ... فليتك ثم ليتك ما فهمتَا

---

[٣١٤] [الأنعام : ١٥٣]
[٣١٥] صحيح مسلم
[٣١٦] [البقرة : ١٨]

فإذا كان حظ الإنسان من العلم مجرد معلومات وقراءات ومحفوظات دون عمل ودون صلاح فهذا يُنفى عنه العلم كما ذكرنا (يُنفى الشيء لانتفاء ثمرته ومنفعته)، فلهذا نحرص أن نحقق هذا وعلى ذلك فَقِس.

ولهذا من الأدعية المأثورة أيضًا: "اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع"[٣١٧] نسأل الله عز وجل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، ونعوذ بالله من علمٍ لا ينفع ونسأله أن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا إنه سميع مجيب.

---

[٣١٧] صحيح مسلم

- **المثل الثاني** في الموضوع السادس **(النفاق والمنافقين)** وقد سبق معنا المثل الأول المضروب لهم وهو المثل الناري، والآن المثل الثاني لهم: المثل المائي؛ يقول الله –تعالى– بعد المثل السابق مباشرةً: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[٣١٨]

ونتكلم عليه في مباحث:

المبحث الأول: معنى المثل: بدايةً ننظر إلى الكلمات التي تحتاج إلى بيان:

قوله: {كَصَيِّبٍ}: الصَّيِّب هو المطر.

{فِيهِ ظُلُمَاتٌ}: يعني ظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الليل فاجتمعت ظلماتٌ في هذا المطر.

{وَرَعْدٌ} الرعد هو الصوت المسموع من جهة السحاب.

وقوله: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ} الصواعق: جمع صاعقة وهي النار التي تنزل من السماء عند اشتداد الرعد، وقيل: هي الصوت الشديد من الرعد؛ فإذا كان الصوت يصعق (أي: قوي جدًا) يسمّى صاعقة.

وبعضهم يطلقه على كل عذاب مُهلك؛ كالموت والعذاب والنار ونحو ذلك.

وأصل الصعق في اللغة: شدة الصوت وقد بُيّن أثره عليهم في قوله –تعالى–: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ}

والبرق: هو الضوء الذي يلمع من السحاب.

فعندنا برق ورعد وصواعق، وأثرها عليهم؛ فأثر الصواعق: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم}، وأثر البرق إذا لمع: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا}

{يَخْطَفُ}: الخطف هو أخذ الشيء بسرعة.

وقوله: {قَامُوا}: يعني وقفوا وثبتوا في مكانهم.

---

[٣١٨] [البقرة: ١٩-٢٠]

➘ ننتقل الآن إلى **تصوير المثل**:

هذا المثل ضربه الله –تعالى– للمنافقين، وصورة هذا المثل: إنسانٌ في مطر ينحدر من السماء، وهذا المطر فيه ظلمات: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وأيضًا هذا المطر فيه رعد يقصف، وبرق يلمع، وصواعق تحرق، فهؤلاء (القوم الذين في المطر) كلما سمعوا صوت صاعقة غطّوا آذانهم بأصابعهم يتّقون بذلك سماع أصوات الصواعق المدوية حذرًا من أن تصيبهم فيموتوا، والله محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، لا يعجزونه، ولا يغني عنهم حذرهم شيئًا، والله محيط بالكافرين.

وهذا البرق الذي يلمع يوشك لشدة لمعانه ولضعف أبصارهم أن يذهب بها فيصيبهم العمى، كلما ظهر لهم نور البرق مشوا فيه خطوات، فإذا توقّف البرق عادت الظلمات فوقفوا، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمِ} يعني: لو أراد الله يأخذ أسماعهم وأبصارهم، {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ذو قدرة بالغة فلا يعجزه شيء أبدًا،

➊ **تنزيل هذا المثل على المضروب له (الممثل له):**

أن المنافقين حالهم إذا سمعوا القرآن وتُليت عليهم آياته وما فيه من الوعيد والزواجر والقوارع والتكاليف؛ اتَّقَوا سماع آياته خوفًا من أن يحلّ بهم الوعيد الذي فيه، وإشفاقًا من عقوبة نفاقهم سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وهذا الخوف والاتقاء لا ينفعهم لأن الله محيط بهم، قادر عليم بهم، ولشدة نور هذا القرآن وما تضمَّنَه من البراهين والحجج الساطعة القوية يوشك هؤلاء المنافقون أن يروا الحق واضحًا، لكن لضعف بصائرهم لا يستفيدون من ذلك النور، وكلما أضاء لهم نور من الحق أو لمع في قلوبهم مشوا فيه خطوات قليلة، لكن لا يمكث ذلك الحق في قلوبهم إلا أن ينطفئ بسبب ما فيها من ظلمات الشبهات والشكوك والإعراض، فتعود لظلمتها، ولهذا يقفون حائرين.

ثم توعَّدَهم الله –جل وعلا– بإذهاب أسماعهم وأبصارهم عقوبة لهم على نفاقهم وكفرهم.

الفرق بين المثلين: السابق الناري، وهذا المثل المائي:

لو تأملنا نجد أنّ هذا المثل الثاني ينطبق على منافقين لم يؤمنوا أصلًا، وإنما أظهروا الإسلام خوفًا، فهؤلاء ليسوا على هدًى، أي: ما عندهم نور كالأوّلين الذين استوقدوا نارًا وصار عندهم شيءٌ من النور، ثم انتكسوا كما قال الله عنهم: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}[٣١٩]، فهُم –أي: في المثل الثاني المائي– في ظلمات من الأصل.

وعلى هذا: إذا قلنا بالتفريق (أن هذا المثل الثاني في نوعٍ من المنافقين، والأول في نوع آخر) فتكون (أو) في قوله: {أَوْ كَصَيِّبٍ} **للتنويع**، (يعني هذا نوع وهذا نوع آخر).

وإذا قلنا إنَّ **المثل الأول في المنافقين الذين لم يُسلموا أصلًا، وهذا المثل الثاني كذلك**؛ تكون (أو) **بمعنى الواو**، أو **بمعنى التخيير** يعني: اضرب لهم مثلًا بهذا المثل الناري (أو) إن شئت اضرب لهم مثلًا بهذا المثل المائي، فهو مطابقٌ لحالهم، وأنت مخيّر، فذاكَ المثل ينطبق عليهم، وهذا المثل ينطبق عليهم.

المبحث الثاني: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثَّل به: قومٌ أصابهم مطرٌ من السماء، وهذا المطر فيه ظلمات، وفيه رعد وبرق وصواعق، فإذا سمعوا صوتَ صاعقة غطّوا آذانهم خوفًا من الموت، وإذا لمعَ البرق يوشكُ لشدّة لَمَعَانه أن يخطفَ أبصارهم، فهم كلما لمعَ البرق وظهر النور –نور البرق– مشوا خطوات في هذه الظلمات، فإذا ذهب وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون.

الممثَّل له: المنافقون حين سماع القرآن، فإنهم يخافون مما فيه من الوعيد، ونوره يُبهر أبصارهم لكن لا ينتفعون به لِسوءِ طَوِيّتهم وظلمة قلوبهم، فهم إذا لاحَ لهم نور الحق اهتدوا به قليلًا، لكن سرعان ما تغلب عليهم الظلمة والضلالة فيعودوا حائرين.

وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له –باختصار–: الخوفُ والفزعُ عند القوارع، يعني إذا أصابتهم قارعة خافوا وفزعوا (هذا موجود في الممثَّل به والممثَّل له).

[٣١٩] [المنافقون:٣]

أما **إذا أردنا مزيدًا من التوضيح** نحاول أن نقابل بين أجزاء صورة المُمثَّل به مع المُمثَّل له، -فكلٌّ منهما مركّب من أجزاء-:

- **الصَّيِّب** -الذي هو المطر- يقابله (في المُمثَّل له): **القرآن**، فالقرآن به حياة القلوب، والمطر به حياة الأرض والنبات والحيوان.
- **الظلمات**: يقابلها ما عليه المنافقون من **الشكوك والكفر والنفاق**.
- **الرعد**: يقابله **وعيد القرآن وزواجره وأوامره وتكاليفه**.
- **البرق**: يقابله **حجج القرآن الساطعة** التي تبهرهم لشدّة لمعانها.
- **الصواعق**: يقابلها **آيات القرآن** أيضًا **التي تتضمن التكاليف الشرعية** وتتضمن **الوعيد والتخويف**.

فكما أنَّ أصحاب المطر إذا سمعوا صوتَ صاعقةٍ فزعوا وغطّوا آذانهم بأصابعهم خوف الموت؛ فكذا المنافقون يتّقون سماع زواجر القرآن ووعيده خوفًا من حلول العقوبة عليهم، وإذا ظهر لهم نور الحق ولمعَ في قلوبهم مشوا على ضوئه خطوات يسيرة لكنه لا يستقرّ في قلوبهم لأنها مظلمةٌ متنجّسةٌ بالشبهات والشكوك القوية، فلا يلبث أن ينطفئ هذا النور فيبقوا حائرين، ويعودون إلى ما كانوا عليه من التكذيب، فهم في هذه الحال في شكٍّ وتردّد.

الآن نخرج قليلًا عن هذا المثل المضروب للمنافقين، لنرى **المؤمنين في صورة هذا المطر ما حالهم؟**

المؤمنون لا يمنعهم ما في المطر -من هذه الرعود والبروق والصواعق والظلمات- من أن يمتثلوا لأوامر القرآن ولو كانت شاقّة -لأنّ بعض التكاليف فيها مشقّة على النفوس- وإنما يُذعنون ويَرعبون لزواجره وأوامره، فهم أصحاب بصائر وبُعد نظر، فينظرون إلى العواقب، وليسوا مجرّد وقتيّين ينظرون إلى الحالة التي هم فيها، فحسب -أي: الرعد هذا والبرق والخوف- لا، وإنما ينظرون إلى العاقبة.

ومَن عَلمَ مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة، وما في مَغَبَّتِه من النبات والخير والخصب والربيع لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق، وإنما يصبر على ذلك طمعًا في حُسن العاقبة، بل يستأنس ويفرح لِما يرجو

فيه من العاقبة الحميدة، وهي الحياة والخصب والنماء والربيع ونحو ذلك. هكذا يكون الفرق، والمَرَدُّ في هذا إلى نور البصائر لا إلى نظر الأبصار.

علّق ابن القيم -رحمه الله- على هذا المثل بتعليق جميل، يقول:

"هذه حال أكثر الخلق إلا مَن صحَّت بصيرته، فإذا رأى ضعيفُ البصيرة ما في الجهاد -ضرب مثلًا الجهاد- من التعب والمشاقّ والتعرّض لإتلاف المُهَج، والجراحات الشديدة، وملامة اللوَّام، ومعاداة مَن يخاف معاداته؛ لم يُقْدِم عليه، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي تسابق إليها المتسابقون وتنافس فيها المتنافسون.

وكذلك -ضرب مثلًا آخر- مَن عزمَ على سفر الحجّ إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقّة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، لا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته؛ فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه.

وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد والزواجر والنواهي والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رَضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا مَن بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألبَّاء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفةً، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيِّب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ويعلم أنه حياة الوجود". إلى آخر كلامه.

بهذا نكون انتهينا من المثلين ومن الموضوع أيضًا (النفاق والمنافقين)، ولعلَّ من المناسب أن نبيّن **بعض هدايات المثلين، وأيضًا من وحي القرآن بعض الفوائد حول هذا الموضوع (النفاق والمنافقين):**

الفائدة الأولى: النفاق نوعان:

- الأول: النفاق الاعتقادي؛ وهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وهذا هو النفاق الأكبر، وهو مُخرج من الدين، وصاحبه مُخَلد في النار، وهذا النفاق هو الذي كان على عهد النبي ﷺ، وهو الذي نزل القرآن بِذمّ

أهله وتكفيرهم وبيان صفاتهم، وهو الذي ورد فيه قوله -تعالى-: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}[٣٢٠]

- النوع الثاني: النفاق العملي؛ ويسمّى النفاق الأصغر، وحاصله أن يُظهر علانيةً صالحةً، ويبطن خلاف ذلك، يعني تختلف السريرة عن العلانية ولكن ليس في أصول الإيمان، بل هو في قلبه أصل الإيمان موجود، لكن يُظهر العلانية الصالحة، ويبطن خلاف ذلك.

ومن ذلك: أن يقع في شُعبة من شُعب النفاق العمليّ أو يتصف بصفة من صفاته، وقد جاء في السنة بعض الصفات لهذا النوع من النفاق كما قال ﷺ: "أربع من كُنّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خَصلَةٌ منهن كانت فيه خَصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[٣٢١]

وفي حديث أبي هريرة: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[٣٢٢]

وهذا النوع بطبيعة الحال لا يخرج صاحبه من الملة ولا يُخَلد في النار.

الفائدة الثانية: الفرق بين النفاق والكفر -والكلام على النفاق الاعتقادي-: إذا قلنا إن المنافق خارج من الملة ومخلد في النار؛ فما الفرق بينه وبين الكافر؟ هما يشتركان في هذين الأمرين (الخروج من الدين والخلود في النار)، لكن الفرق أن الكافر اعتقد الكفر وأظهره، أما المنافق فاعتقد الكفر وأظهر الإيمان، وقد سُمي هذا - فيما بعد- بالزندقة (في عهد الدولة العباسية أو نحو ذلك)، والزنديق: هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

والمنافق أقبح من الكافر؛ لأنه جمع مع الكفر المخادعة لله ولعباده: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[٣٢٣]

ولهذا كانت عقوبتهم أشد: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[٣٢٤]

---

[٣٢٠] [النساء : ١٤٥]
[٣٢١] أخرجه البخاري ومسلم
[٣٢٢] أخرجه البخاري ومسلم
[٣٢٣] [البقرة : ٩]
[٣٢٤] [النساء : ١٤٥]

الفائدة الثالثة: بعض صفات المنافقين الواردة في القرآن:

١- الكفر بالله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء}[٣٢٥]

٢- العداوة والحسد للمؤمنين؛ كما قال الله عنهم: {إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ}[٣٢٦] يفرحون بذلك.

٣- الاستهزاء بالله ورسوله ودينه؛ كما قال الله عنهم: {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم}[٣٢٧]

٤- الفساد في الأرض بالكفر والنفاق والمعاصي مع ادّعاء الإصلاح: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ}[٣٢٨]

وهذا لا يزال موجودًا، موجودٌ مَن يفسد ويدعي الإصلاح.

٥- البهتان والكذب؛ فهم قومٌ بُهتٌ؛ قال الله عنهم: {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}[٣٢٩]

٦- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل بالمال؛ جُمعت في قوله —تعالى-: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُم}[٣٣٠]

٧- الطمع والجشع: {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}[٣٣١]

٨- الاهتمام بالمظهر وفساد المخبر وزخرفة القول: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}[٣٣٢]

---

[٣٢٥] [البقرة : ١٣]
[٣٢٦] [التوبة : ٥٠]
[٣٢٧] [التوبة : ٦٥-٦٦]
[٣٢٨] [البقرة : ١١-١٢]
[٣٢٩] [التوبة : ٥٦]
[٣٣٠] [التوبة : ٦٧]
[٣٣١] [التوبة : ٥٨]
[٣٣٢] [المنافقون : ٤]

فهذه الصفات جديرة بالتأمل والنظر حتى يعرف الإنسان كيف يتعامل، لأنها موجودة في عصرنا وفيما قبله، وعلى المرء أن يعرف كيف يتعامل مع أمثال هؤلاء، فالتعامل مع الناس بحسب أصنافهم، وهذه بعض الصفات وإلا فلو تأمل الإنسان حقيقة لوجدَ أنّ الله عز وجل جلّى هذا الأمر (في سورة البقرة، وفي سورة التوبة التي تسمى الفاضحة لشدة فضحها وبيانها للمنافقين فقد تكرّر فيها: {ومنهم.. ومنهم.. ومنهم.. }، وأيضًا أفرد الله -عز وجل- لهم سورة باسمهم: المنافقون).

وهناك صفات موزعة في آيات من سور القرآن الكريم إضافة إلى الصفات المذكورة في الحديثين السابقين فهذه كلها من صفاتهم وأحوالهم.

نسأل الله عز وجل أن يجنبنا حالهم، وأن يرزقنا الإيمان ظاهرًا وباطنًا، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين يا رب العالمين.

❖ **الموضوع السابع**: من الموضوعات التي جاءت فيها هذه الأمثال القرآنية؛ وهو: **الحياة الدنيا**:

● وقد ورد في القرآن ثلاثة أمثال تندرج تحت هذا الموضوع، **فالمثَل الأوّل** فيه (وهو المثل الثاني والعشرون بحسب تسلسل الأمثال القرآنية في دراستنا) يقول الله –جل وعلا–: **{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}**[٣٣٣]

هذا مثلٌ ضربه الله –جل وعلا– يصوِّر ويبيِّن حقيقة الحياة الدنيا، والكلام على هذا المثل كما تعودنا سيكون –إن شاء الله– في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

جاء قبل هذه المثل في سورة يونس قوله –تعالى–: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[٣٣٤]

معنى: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم} يعني: إنما عاقبة فسادكم ومعصيتكم تعود وبالًا عليكم، كقوله: {وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}[٣٣٥]، فهذا الفساد والمعصية تعود وبالًا عليكم، تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية التي تعقبها الحسرات الباقية، فمتاع الحياة الدنيا كله يزول، ثمَّ ضرب مثلًا لهذه الحياة التي فتنتهم وغرَّتهم، وكانت سببًا في انحرافهم.

فإذًا: هذه الآية بمنزلة البيان لجملة متاع الحياة الدنيا، فبيَّنَت أن التمتُّع صائرٌ إلى زوال.

---

[٣٣٣] [يونس:٢٤]
[٣٣٤] [يونس : ٢٢-٢٣]
[٣٣٥] [فصلت:٤٦]

المبحث الثاني: معنى المثل:

نبيّن أولًا بعض المفردات التي تحتاج إلى بيانٍ في الآية:

فقوله -جلّ وعلا-: {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا}

معنى زخرفها: أي: حُسنها وبهاءَها وزينتها بالنبات. وأصل الزخرف: الذهب والزينة المُزوّقة.

وقوله: {وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا}

حصيدًا: يعني محصودةً ومقطوعة من أصولها، فهذا فعيل بمعنى مفعول (مثل: جريح بمعنى مجروح، وقتيل بمعنى مقتول.. وهكذا). وأصل حصدَ في اللغة: تدلّ على قطع الشيء (حصد الزرع، حصد دابرهم.. ونحو ذلك).

قوله -تعالى-: {كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ} يعني كأنها لم تكن عامرة، وهذا من قولهم: غنيَ في المكان: إذا أقام فيه وعمّره، ومنه المغاني: المنازل التي يعمرها الناس. وأصل مادة غنيَ تدل على الكفاية.

ننتقل إلى بيان المثل (تصوير المثل):

في هذا المثل البديع يخبر الله -جل وعلا- عن مثَل زينة الحياة الدنيا في سرعة زوالها، فيشبّهها بصورة محسوسةٍ تمر علينا وعلى الناس كثيرًا؛ فمثلُ هذه الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها كمثلِ مطرٍ أنزله الله من السماء إلى الأرض، فنزلَ المطر على الأرض، فأنبتت أنواعًا من النبات اختلطَ بعضها ببعضٍ من أنواع الزروع والثمار والحبوب ونحو ذلك مما يأكله الناس من هذه الثمار أو مما تأكله الأنعام من الحبوب أو غيرها.

ففي هذا المنظر البهيج والزينة الفاتنة ظهر حُسن الأرض وجمالها بألوان النبات، وتزينَت بأصناف الحبوب والثمار والأزهار المتعددة في ألوانها وأشكالها، وأيقن أهلها -لما رأَوا من هذا التكامل وهذه البهجة والحسن- أنهم قادرون على حصد زرعها، وقادرون على قطف ثمارها (لأنهم يرونها أمامهم يانعةً دانية) لكن ما الذي حصل؟ حصلت المفاجأة؛ أتاها أمر الله (قضاء الله) بالهلاك، فهلكَ نباتها وذهب رونقها وحسنها وبهاؤها.

جاء هذا الأمر ليلًا أو نهارًا، أي: جاء فجأةً، فصار ذلك النبات مقطوعًا هالكًا، من رآه لا يصدق أنه كان بالصورة السابقة، فصار كأن لم يكن قائمًا على ظهر الأرض.

هذه الصورة المحسوسة هي مثال هذه الدنيا؛ أي: ما تتمتعون به من زخرف الدنيا ومتاعها، هذه الأموال على اختلاف أنواعها وأصنافها وأجناسها –المباني والمراكب والملابس والمطاعم والقصور والدور وغير ذلك– كله يأتيه أمر الله؛ فيكون كأن لم يكن بالأمس!

مِثلَ صورة الأرض التي تنورت وازدهت وحسُنت بتلك النباتات والأزهار والثمار اليانعة الجميلة المختلط بعضها ببعض في منظر من أحسن المناظر لكن جاءها أمر الله فبادت وهلكت بِرُمَّتها.

وهذا المعنى (معنى الأرض التي تزدان وتتكامل في حسنها وبهاءها ثم تنقلب بضد ذلك) هذا المعنى تكرَّر في كتاب الله بعدة مواضع كما سيأتينا في المثل الثاني، والمثل الثالث، وأيضًا حتى في غير هذه الأمثال الثلاثة، مثل قوله –تعالى–: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[٣٣٦]

هذه الانتقالات فيها عبرة وفيها ذكرى لأصحاب العقول التي تتفكر، ولهذا: فهذا المثل الذي معنا ختمه الله بقوله: {كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٣٧] يعني كما بينّا لكم هذه الدنيا وحالها وحقيقتها نبيّن حججنا وأدلتنا لقوم يتفكرون في آيات الله، ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الممثل له: هو حال الحياة الدنيا وما فيها من الزينة والمتع التي تجذب وتفتن.

الممثل به: الأرض حينما ينزل عليها المطر فتنبت بأنواع النبات من الزروع والثمار والأزهار الجميلة والطيبة وتتداخل في بعضها وتمتزج في لوحةٍ جميلةٍ رائعة ويتكامل حسنها ونضجها، ثم بعد ذلك يصيبها جائحة تقضي على ذلك كله فتهلكه حتى يُخَيَّل للناظر أنه لم يكن هناك يومًا نباتٌ حسن على هذه الأرض.

[٣٣٦] [الزمر:٢١]
[٣٣٧] [يونس:٢٤]

وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له: يمكن نختصر ذلك فنقول: الجمال والزينة التي يعقبها سرعة التبدُّل والزوال، فالممثل به والممثل له يجتمعان في هذه القدر: جمال وزينة، ولكنها لا تدوم ولا تطول، وإنما يعقبها التبدُّل والتغيُّر والزوال.

فإذًا: خلاصة الرسالة التي تصلنا من هذا المثل: لا تغترَّ بالدنيا مهما لمعَت وبرقت وتزيَّنت؛ فهي ظلٌّ زائل وضيفٌ راحل.

فأحوال الدنيا تظهر أولًا في غاية الحُسن والنضارة، ثم تتزايد قليلًا قليلًا فيزداد حُسنها وجمالها وفتنتها، ثم تأخذ في الانحطاط (الاصفرار في النبات) ثم يؤول ذلك إلى الهلاك والفناء (ييبس النبات ويتفتت، وتذروه الرياح - كما سيأتينا في المثل اللاحق-).

وإذا كان الأمر بهذه المثابة؛ فليس للعاقل أن يبتهج به، فالدنيا سريعة الزوال، وشيكة الارتحال، وأيضًا هي مُنغَّصة بكثرة الأنكاد، ودوام الأكدار، فيها الهمّ والنصَب، والحزن والتعب، والخوف، فمثلُ هذا لا ينبغي للعاقل أن يغترّ به، وأن يفنيَ وقته فيه، ويتعلق به ويكون هو همه! بل هي في الحقيقة جديرة بالزهد -وهذا من علامات العقل- هي جديرةٌ بالزهد فيها، والرغبة عنها، وألا يفتخر بها عاقل فضلًا عن أن يكاثر بها غيره!

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها   صفوًا عن الأقذاء والأكدارِ

هذه حقيقة الحياة الدنيا، وهذا ما يتعلق بالمثل الأول معنا في هذا الموضوع وهو موضوع حقيقة الحياة الدنيا.

المثل الثاني: ننتقل بعد ذلك إلى المثل الثاني (وهو المثل الثالث والعشرون في ترتيب الأمثال في دراستنا)؛ يقول الله –جل وعلا– في سورة الكهف: **{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}**[٣٣٨]

هذا المثل شبيهٌ إلى حدٍّ كبير بالمثل السابق، ونتكلم عليه أيضًا في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل: سورة الكهف سورة عظيمة يقرأها المسلمون في كل جمعة، وهي تعطينا درسًا في الثبات على المبدأ، والحذر من الفتن، وأن لا يغترَّ الإنسان بالصوراف والمؤثرات التي تصرفه.

ففي أول السورة ساق الله –جل وعلا– قصة أصحاب الكهف الذين اعتزلوا الدنيا بما فيها لأجل العقيدة والثبات على الدين، فهربوا من أقوامهم، وفارقوا دنياهم طلبًا لله، وطلبًا للثبات على الدين.

ثم لما ساق القصة عقَّب الله –جل وعلا– بعد ذلك بتوجيهه لنبيه –ﷺ– أن يصبر نفسه مع أهل الدين والصلاح وألا يلتفت إلى زينة الحياة الدنيا فقال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[٣٣٩] وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ! فكيف بنا؟! نحن أحوج بمرات ومرات ومرات.

{وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} هذا التوجيه يدلُّك على أن الأمر فيه انجذاب النفوس، يعني إذا كان النبي –ﷺ– يُؤمَر ويُنهى {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} فإذًا: الإنسان يخشى على نفسه أن ينجرف مع هذا التيار القويّ الذي يجذبه جذبًا إلى هذه الحياة الدنيا!

ثم ساق –بعد هذا التوجيه والتعقيب– قصة صاحب الجنتين الذي اغترَّ بدنياه حتى وصل به التيه والغرور أن قال: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا}[٣٤٠]

[٣٣٨] [الكهف:٤٥]
[٣٣٩] [الكهف:٢٨]
[٣٤٠] [الكهف:٣٥-٣٦]

فوعظَه صاحبُه المؤمن، وذكَّرَه بعدم الاغترار، قال له: لا تغترّ بدنياك فعسى أن يصيب ذلك البستان عذابٌ من السماء فينزل عليه شيء، أو صاعقة أو نحو ذلك (حسبانًا)، فينقلب ويصبح أرضًا ملساء جرداء لا نبات فيها، أو يصير ماء هذا البستان غائرًا يغور في الأرض فلا تقدر على إخراجه، والبستان كما نعلم والجنة لا تقوم إلا على الماء {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[٣٤١]

لكنه تائه وسادِر في غيّه وغروره، فلم يلتفت إلى وعظ الواعظين ونصح الناصحين، ووقع ما حذَّر منه صاحبه، فهلكَ كلُّ ما في البستان، فصار الكافر يقلِّب كفَّيه حسرةً وندامةً على ما أنفق فيها ويقول: يا ليتني عرفت نعم الله وقدرته، فلم أشرك به أحدًا.

ثمّ بعد هذه السياقات وهذه المشاهد؛ جاءَ هذا المثل عامًا لبيان حقيقة هذه الحياة الدنيا.

المبحث الثاني: معنى المثل:

وأيضًا نبيّن بعض المفردات في هذه الآية، في قوله –جل وعلا–: {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا}

الهشيم: هو اليابس المتفتت.

{تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ}: تنسفه وتفرقه.

الآن نريد أن نفهم هذا المثل وصورته:

قال –تعالى–: {واضرب} الخطاب للرسول –ﷺ–، فالله –جل وعلا– يأمر النبيّ –ﷺ– أن يضرب مثلًا للدنيا في سرعة زوالها وانقضائها.

أي: اضرب لهم يا محمد مثلًا للدنيا –التي اغتروا بها في بهجتها وسرعة زوالها– أنها في حقيقتها كماءٍ أنزله الله من السماء على الأرض، فهذا المطر كان سببًا في نبات الأرض، والتفَّ هذا النبات واجتمع بعضه ببعض، فكان نضرًا بهيجًا جميلًا؛ لكن هذه البهجة وهذا الحسن كان وقتًا قصيرًا فقط، وما هي إلا مدة يسيرة حتى صار يابسًا تخرّبه الرياح وتذروه هنا وهناك، وكان الله على كل شيء مقتدرًا، فهو مقتدر على تكوين كل هذا

[٣٤١] [الأنبياء:٣٠]

النبات أولًا، وإنباته وإنشائه من لا شيء، وهو مقتدر بنمائه وسطًا (في وسط الحال)، وهو مقتدر على إهلاكه وإبطاله آخرًا، فهو مقتدر –جل وعلا– في أحواله الثلاثة.

ثم عقّب الله –عزّ وجلّ– على هذا المثل بتعقيب لطيف، وهو أن الأموال والأبناء في حقيقتها مجرد زينة، فبعد المثل قال: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[٣٤٢]

وإنما الذي ينفع العبد في الآخرة –التي هي الحياة الحقيقية–: العمل الصالح فهو الباقي ذخرًا وأجرًا {الباقيات الصالحات}؛ والمفسرون لهم كلام في الباقيات الصالحات، ويعود كلامهم إلى أنها العمل الصالح الذي يبقى ذخره في الآخرة، وما ذُكر من تفسيراتٍ فهي أمثلة على هذا المعنى (الصلوات الخمس، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وغير ذلك من الأقوال) كلها تصب في هذا المعنى.

إذًا: الرسالة التي تصلنا: أن هذه الحياة الدنيا قصيرة زائلة (متاع)، نحن فيها لأجل أن نعمرها بالباقيات الصالحات (العمل الصالح)، فلا تنصرف عن هذه المهمّة، ولا تنشغل عن وظيفتك، مثل إنسانٍ وكلته في وظيفة في عمل، وقلت له: أنجز هذه المهمة من السابعة صباحًا إلى الثالثة، فبدلًا من أن ينشغل بهذا العمل حتى يأخذ الأجر، انشغل بشيء آخر، فذهب عليه زمانه وفاته أجره وخسر!

كذلك نحن في هذه الدنيا موكلين بوظيفة، والوقت قصير (زماننا قصير)، لا بد أن ننجز العمل، لكن إن انشغلنا بغير ذلك فنخشى أن نرى عاقبة ذلك وأن نتحسر ونندم في وقت لا ينفع الندم، إذا انتهى الوقت، والأمر المُفزِع أن انتهاء الوقت لا يُدرى متى!

ربما بقي لنا في الدنيا ساعة، وربما يوم، وربما شهر، سنة، عشر سنوات، عشرين، ثلاثين.. الله أعلم.

لكن احتمال أن ترحل وينتهي وقتك ومدتك حالًا، كما نرى والواقع خير شاهد، كم رأينا من أصحاب وأقارب وجيران ومعارف كانوا في أتمّ الصحة والعافية، ولكن في لمحة بصر: أصابه جلطة فمات! والثاني سكتة

---

[٣٤٢] [الكهف:٤٦]

فمات! والثالث خرج من بيته في أتمّ عافيته.. حادث سيارة فمات! فهذه في الحقيقة إشارات، لكن من يتعظ؟ ما أكثر العبر! وما أقل المعتبر! ونسأل الله أن يحيي القلوب.

إذًا: هذه موعظة بليغة، لكن لمن كان له قلب، وهذا المعنى في التعقيب السابق في الحقيقة أيضًا تكرر في القرآن كما في قوله -تعالى-: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ} لكن هذا كله {ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}

ولهذا فالله -عز وجل- انتقل بالصورة { وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ* قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ} أي: تريدون خير من هذه المتع والشهوات التي انفقتم أوقاتكم عليها؟ نعم، وما هو الخير؟ {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[٣٤٣]

إذا كانت الأموال شغلتنا والأولاد؛ فليست هذه رسالتنا في الحياة، هل هذه مما يقربنا إلى الله؟ لا {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ} إذًا: ما السبيل ؟ قال -تعالى-: {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}[٣٤٤]

إذًا: الرسالة أننا في هذه الحياة الدنيا، هذه حقيقتها، نبات وثمار وزهور وأشياء جميلة لكن سرعان ما يأتيها شيء ويذهب، فهذه الدنيا التي تراها، هذه القصور وهذه المراكب وهذه الملابس وهذه الأطعمة والأشربة والحلويات والمشويات والمشتهيات والملذات والأثاث الفاخر والتحف الثمينة والأشياء النفيسة كله لا شيء، كله متاع.. سراب، سرعان ما يزول، لكن تعلّقْ بالشيء الباقي، ولا يلهيك الفاني فتخسر وتندم حين لا ينفع الندم.

---

[٣٤٣] [آل عمران: ١٤-١٥]
[٣٤٤] [سبأ:٣٧]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له: كما سبق، وهذا المثل –كما قال بعض المفسرين–: إن هذه الصورة في هذه الآية مختصرة من الآية الأولى (المثل السابق في سورة يونس) فيقال فيها كما قيل في المثل السابق.

وذكر بعض أهل العلم فيما أذكر أنه الإمام القرطبي –رحمه الله– بعض النكت البلاغية في تشبيه الدنيا بالماء لأن في الآيتين {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ}[٣٤٥] والحقيقة أنّ الدنيا كالأرض النبات التي نزل عليها الماء لكن التشبيه الذي نزل فيها كالماء

يقول: إن تشبيه الدنيا بالماء من وجوه:

– الأول: أن الماء لا يستقر في موضع واحد، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحدة، بل تتنقل.

– الثاني: أن الماء لا يمكن لأحد أن يلابسه إلا ويبتل، فكذلك الدنيا لا يلابسها أحد إلا ويصيبه من فتنتها وشغلها وبللها فيبتل بها.

فلا أحد يلامس الماء دون أن يبتلّ به.

ألقاهُ في اليمّ مكتوفًا وقال لهُ: إياكَ إياكَ أن تبتلَّ بالماءِ!

ولهذا يذكرون عن أبي الدرداء –رضي الله عنه– قال: "كنتُ تاجرًا قبل المبعث" فلما جاء الإسلام ودخل في دين الله، قال: "جمعتُ تجارتي والعبادة فلم يجتمعا، فتركت التجارة ولزمت العبادة"، طبعًا لعله يقصد التفرُّغ للعبادة والاستكثار منها، ولا يعني ذلك أن التجارة مثلًا لا تجوز! لا، لكن كلامه فيه مقصد معين.

– الأمر الثالث: أن الماء إذا كان بقدرٍ معتدل كان نافعًا منبتًا مثمرًا، وإذا جاوز الحد كان ضارًا مهلكًا، كذلك الدنيا منها نافع وطيب والكثير يضر.

إذا هذه الصورة مناسبة، وهذه أوجه التماس شبه الدنيا بالماء أو وجه تشبيه الدنيا بالماء من هذه الوجوه.

[٣٤٥] [يونس:٢٤]

● المثل **الثالث** في موضوع **حقيقة الحياة الدنيا**: يقول -جل وعلا-: **{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}**[٣٤٦]

ونتكلم عن هذا المثل أيضًا في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثَل:

قال الله قبل هذه الآية (آية المثَل): {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}[٣٤٧]كلٌّ في سياق أهل السعادة -نسأل الله من فضله-.

ثم قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[٣٤٨]

ففي هذا بيانٌ لِحال الفريقين؛ فريق السعداء، وفريق الأشقياء وذِكر مآلهم في الآخرة، وكان هذا المآل في غاية البون والفرق فيما بينهما، لأنه بحسب ما قدموه وعملوه في الحياة الدنيا، فالله -عز وجل- خلقهم للعمل فيها، وهؤلاء عملوا كذا فكان نصيبهم كذا، والآخرون عملهم بضدّ ذلك فكان نصيبهم ومآلهم أيضًا بضدّه.

الأوَّلون اغتنموا الدنيا وجعلوها مزرعةً للآخرة، والآخرون اغتروا بها وبزينتها، وغفلوا عما خُلقوا له، فبيَّنَ الله -بعد هذا التقسيم الثنائي للسعداء والأشقياء في الآخرة- حقيقةَ هذه الدنيا الفاتنة عبرَ هذا المثل المحسوس؛ لئلّا نغترّ بها كما اغترّ أولئك فنهلك كما هلكوا.

ولهذا قال بعد هذا المثل أيضًا: {سَابِقُوا}[٣٤٩] إلى ماذا نتسابق ونتنافس؟ في جمع المال؟ في الوظائف الرفيعة؟ نتسابق في بناء القصور والأبراج والمزارع والمتع والمراكب...؟! لا.

[٣٤٦] [الحديد:٢٠]
[٣٤٧] [الحديد:١٨-١٩]
[٣٤٨] [الحديد: ١٩]
[٣٤٩] [الحديد:٢١]

إذًا: نتسابق في ماذا؟ قال –تعالى–: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[٣٥٠] بهذا يكون التسابق والتنافس.

وهذا **وجهٌ** للربط وبيان سياق المثل في الآيات (وجهٌ لذكر هذا المثل بعد الآيتين اللتين قبله).

وهناك **وجهٌ آخر** ذكره بعض المفسرين: كالطاهر بن عاشور –رحمه الله– حيث قال: إن الله –جل وعلا– ذكرَ قبل هذه الآية الحثّ على النفقة والصدقة في سبيل الله، فقال قبلها: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[٣٥١]

فالنفقة في سبيل الله والصدقة لها أجر كريم، وهي تتضاعف أضعافًا –كما مر معنا في موضوعٍ سابق– لكن ما الذي يحجز الناس عن البذل والنفقة والصدقة؟ إنه حبّ المال؛ كما قال –تعالى–: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[٣٥٢]، {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[٣٥٣] فهذه فطرة وجبلّة في النفس (التعلق بالمال والسعي في تنميته وتكثيره وطول الأمل فيه، ورغبة النفوس في بذله وإنفاقه في وجوه المتع واللذائذ والشهوات) وهذا أمر مركوز في النفوس، ولهذا في الحديث: "يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ وتَشِبُّ منه اثْنَتانِ: الحِرْصُ علَى المالِ، والحِرْصُ علَى العُمُرِ"[٣٥٤]

والحقيقة أننا نشاهد هذا في الواقع، يعني بعض الناس يصل السبعين، ويتجاوزها وهو متعلق بالدنيا والشراء والبيع..!

نحن لا نحرّم البيع والشراء، لكن نتكلم عن التعلُّق، وفرقٌ بين أن تكون الدنيا في يدك، وبين أن تكون في قلبك، وفرقٌ بين أن تصرف وقتك وجهدك وتفكيرك وكُلّك إلى هذه الدنيا، وبين أن تكون معلقًا بالله وبالدار الآخرة وإنما تستعين بها على مرضاة الله، فرقٌ بين هذا وذاك، وللأسف التعلق بالدنيا الآن غلب على النفوس، وتجد الإنسان –سبحان الله– في أمور الدنيا يبذل ويُنفق، لكن في أمور الآخرة قد يتقاعس ويستكثر ويبخل! وهذه علامة تحتاج إلى مراجعة.

---

[٣٥٠] [الحديد : ٢١]
[٣٥١] [الحديد : ١٨]
[٣٥٢] [الفجر:٢٠]
[٣٥٣] [العاديات:٨]
[٣٥٤] صحيح مسلم

الحاصل: أنه لما ذكر الله –جل وعلا– هذا الأمر وحثَّ على النفقة والصدقة في سبيل الله وكان العائق من ذلك هو التعلُّق بالمال؛ جاء هذا البيان بحقيقة الدنيا، وكأنها رسالة لنا: أنّ هذه الدنيا التي غرّتكم وألهتكم هي أحقر من أن تؤثَر على الآخرة.

إذًا: هذان وجهان في بيان سياق المثل مع ما قبله من الآيات.

المبحث الثاني: معنى المثل:

يقول الله –جلّ وعلا–: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}:

اللعب: ضد الجدّ.

واللهو: كل شيء شغلَ عن شيء، وقال بعضهم: كلُّ باطل ألهى عن الخير فهو لهوٌ.

وفرَّق بعضهم بين اللعب واللهو فقال: اللعب للأبدان، واللهو للنفوس، فما كان يتعلّق بأمور النفوس والقلوب: لهو، وما كان بالأبدان فهو لعب.

والحاصل أنّ المراد عمومًا باللعب واللهو: أن ينشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه بما لا فائدة فيه، ويكون ذلك بالإعراض عن الحق والإقبال على الباطل.

وقوله: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ...} هذه من الآيات التي تُفهم على غير معناها،

فمعنى الكفّار هنا: الزُّرَّاع، وهذا بناءً على المعنى اللغوي، لأنّ أصل معنى الكفر باللغة العربية هو: الستر والتغطية، وسُمّي المزارِع كافرًا لأنه يستر ويغطّي البذر في الأرض، فأصل الكفر هو –في اللغة– أصله بمعنى الستر والتغطية.

➘ ننتقل إلى **صورة المثل** لنفهم معناه:

الله –جل وعلا– يقول: {اعْلَمُوا} أيها الناس {أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، {وَزِينَةٌ} تتزيّنون بها، {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} تتفاخرون فيما بينكم بمتاعها، {وَتَكَاثُرٌ} بالعدد {فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}: كقول القائل: عندي كذا، وعندك كذا، وفلان عنده وأنا ما عندي.. وهكذا..

فمَثَلُها كمثَلِ مطرٍ أعجبَ الزُّرَّاعَ نباتُه؛ يعني هذا المطر أنبت نباتًا أُعجب به الزرَّاع، لكن هذا النبات الحسن البهيج المُعجِب سرعان ما انقلب على حاله فتحوَّل إلى حالة اليبس؛ {يَهِيجُ} هذا النبات فييبس، ثم بعد أن كان أخضر في غاية الجمال ينقلب لونه إلى الاصفرار فيصير مصفرًا بعد خضرته، ثم يكون فُتاتًا يابسًا متهشِّمًا. فهذا حال الدنيا.

{وَفِي الآخِرَةِ..} الدار الآخرة الناس فيها إلى مآلين: {عذاب شديد} للكفار، {ومغفرة من الله ورضوان} لأهل الإيمان.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به، والممثَّل له: كما سبق، الكلام نفسه (في المثلين السابقين) فلا حاجة إلى أن نعيد.

إذًا: أفادت الآية تحقير حال الدنيا، وتعظيم حال الآخرة؛ وهذه مواعظ، والقرآن إنما نزل موعظةً وهدى وبيانًا، فقد وصف الله الدنيا بهذه الأوصاف التي نقرؤها الآن: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخُر، وتكاثُر؛ وهذه الأشياء كلها أمور مُحقَّرة.

وذكَرَ من اللطائف في هذا ابن عاشور –رحمه الله– أنَّ هذه الأوصاف الخمسة هي بحسب مراحل حياة الإنسان، يعني الإنسان متعلق بالدنيا من أول حياته حتى آخرها؛

- ففي مرحلة الطفولة والصبا: اللعب،
- وفي مرحلة الشباب: اللهو،
- وفي مرحلة الفتوّة: الزينة،
- وفي مرحلة الكهولة: التفاخُر،
- وفي مرحلة الشيخوخة: التكاثُر.

(وهذا الكلام تقريبي)

بعد هذه الأمثال الثلاثة التي قرأناها وتذاكرنا معانيها –وهي كلها تدور في موضوع الحياة الدنيا– لعلّنا نقف **وقفة حول هدايات هذه الأمثال الثلاثة في مباحث مختصرة:**

✓ المبحث الأول: المراد بالحياة الدنيا:

لماذا سُمّيت بالدنيا؟ ذكر أهل العلم وجهين:

١– أن الدنيا سمّيت بذلك من الدّنوّ وهو القرب، يعني: أنها حاضرة، فكُنّي عن الحضور بالقرب، أو: لقرب زوالها.

٢– أن الدنيا من الدناءة، وسُميت بذلك لحقارتها.

وكلمة "**الدنيا**" تطلق على معنيين: عام وخاص؛ **فالمعنى العام**: مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض، يعني بقاء الحياة، ما دامت الحياة موجودة على هذه الأرض، فهذه اسمها حياة دنيا.

والمعنى الثاني (الخاص): تطلق الحياة الدنيا على حياة الأفراد؛ يعني حياة كل أحد (منذ ولادته إلى وفاته) فهذه هي الحياة الدنيا بالنسبة له.

✓ المبحث الثاني: حقيقة الحياة الدنيا:

الحقيقة أن القرآن والسنّة بيّنا هذا المعنى بيانًا شافيًا وأعادا فيه وأبديا وكررا، وهذا يدلُّك على عناية الله –جل وعلا– بهذا الأمر، وورود الأمثال يدل أيضًا على شدة العناية بها، ولو استثنينا هذه الآيات الثلاثة التي هي أمثال نجد أن الله يذكرها في آيات أخرى؛ كقوله –تعالى–: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[355] هذا باعتبار الغالب، يعني غالبها (لَعِبٌ وَلَهْوٌ).

وقال: {وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} الحيوان يعني الحياة، فالحياة الحقيقية هي الآخرة، أما الدنيا فهي لهو ولعب.

[355] [الأنعام:٣٢]

لا تجزع ولا تخف على الرزق، لا تنظر إلى فلان وتقل: فلان أصغر مني وهو أكثر مني مالًا، وفلان أقل مني شهادة وأحسن مني عملًا... لا، {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [٣٥٦]

متاع قليل، سرعان ما يُتمتع به ثم يزول مثلما تتمتع بقطعة حلوى وقتيًّا –دقيقة أو دقيقتين– وتذهب.

وقال –تعالى–: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} [٣٥٧]

نام رسول الله –ﷺ– على حصير، فقام وقد أثر في جنبه فقال له ابن مسعود –رضي الله عنه–: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال "ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها" [٣٥٨]

وأوصى ابن عمر فقال: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" [٣٥٩].

وكان–ﷺ– يربي أصحابه على هذا المعنى ويغتنم الأوقات والمواقف، قال مرة –عليه الصلاة والسلام–: "موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها" [٣٦٠] كلُّ الدنيا وما فيها هذا موضع السوط فقط خير منها! ولك أن تقارن.

وقال –ﷺ–: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع" [٣٦١]

الله أكبر!!.. ضع أصبعك في البحر وأخرجه وانظر ماذا نقص البحر؟ الذي نقص هو الدنيا قياسًا على الآخرة؛ ستجد أنه لا شيء!

بعد هذا كله إن نظر الإنسان العاقل صاحب البصيرة إلى الدنيا والآخرة؛ فماذا يغلّب؟ ماذا يؤثِر؟ ماذا يقدّم؟

---

[٣٥٦] [الرعد : ٢٦]
[٣٥٧] [طه:١٣١]
[٣٥٨] أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح
[٣٥٩] أخرجه البخاري
[٣٦٠] أخرجه البخاري
[٣٦١] صحيح ابن حبان

✓ المبحث الثالث: كيف ننظر إلى الدنيا؟

أولًا: الدنيا مزرعة الآخرة؛ قال -تعالى-: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[٣٦٢]، {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٣٦٣]، {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[٣٦٤]، فهي مزرعة للآخرة، وُجدنا فيها لنعمل ونتزوّد للحياة الحقيقية التي هي الحيوان، ولهذا فذاك الإنسان المذكور في آخر سورة الفجر يندم: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}[٣٦٥]، وهذه الحياة الحقيقية فعلًا (الآخرة)

ثانيًا: الدنيا برّاقة فلا تغترّ، وهي ممرٌّ لا مقرّ؛ كما سبق في الأمثال الثلاثة (يعني هي تؤدي هذا المعنى) قال -تعالى-: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ}[٣٦٦]، {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}[٣٦٧]، {فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}[٣٦٨]، {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[٣٦٩]، هذه الآيات وغيرها نصوص كثيرة كلها تعطينا هذا المعنى، فالدنيا وسيلة لا غاية، لكن يجب التعامل معها بحذر وأن لا ننبهر بالحضارة المادية، فالمنزلة والمكانة الحقيقية عند الله، ليست بالمظاهر المدنية المادية، ولا بالإمكانات الاقتصادية؛ {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ}[٣٧٠]

الأمر الثالث: التوازن والاعتدال، يعني حينما نقول هذا الكلام فلا يعني أن الإنسان يترك الدنيا كلها ويجلس في المسجد حتى يموت! لا، بل أن أنت مطالَب أن تأخذ من الدنيا ما تحتاجه لنفسك ومَن تقوم عليه ممّن تجب عليك نفقته، فلا يجوز للإنسان أن يضيع من يقوت ويقول أترك الدنيا! هذا شططٌ وانحراف عن سواء السبيل.

---

[٣٦٢] [الأعراف:١٢٩]
[٣٦٣] [الملك:٢]
[٣٦٤] [الكهف:٧]
[٣٦٥] [الفجر:٢٤]
[٣٦٦] [القيامة : ٢٠-٢١]
[٣٦٧] [الأعلى : ١٦-١٧]
[٣٦٨] [الشورى:٣٦]
[٣٦٩] [الرعد:٢٦]
[٣٧٠] [سبأ:٣٧]

قال –تعالى-: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ}[371]، وقال {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ} هذا الأصل لكن: {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}[372]،

وقال –سبحانه-: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني في الحياة الدنيا لهم ولغيرهم، {خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[373] أي: يوم القيامة تكون خالصة لهم.

ومن الفوائد: ضرب ابن القيم –رحمه الله– اثنين وعشرين مثلًا للدنيا، أمثال جميلة وغالبها مأخوذ من الكتاب والسنة وبعضها من إنشائه في كتاب "عدة الصابرين" جيدة أن يراجعها الإنسان فيجد فيها فوائد وعلمًا.

وقال الشافعيّ –رحمه الله-:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبها وعذابها

فلم أرها إلا غرورًا وباطلًا ... كما لاحَ في ظهر الفلاة سرابها

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلة ... عليها كلاب همُّهنّ اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

نسأل الله –عز وجل– أن يقنعنا فيها بما يكفينا، وأن يرزقنا البصيرة والعمل للآخرة والسعي لها، وأن يرفعنا درجات في دار النعيم ويوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح.

[371] [الملك : ١٥]
[372] [القصص:٧٧]
[373] [الأعراف:٣٢]

❖ **الموضوع الثامن** من الموضوعات وهو: **الإعراض عن آيات الله:**

أولها وهو المثل الخامس والعشرون في ترتيب الأمثال (في دراستنا):

يقول الله -تعالى-: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}**[٣٧٤]

هذا مثل من الأمثال القرآنية التي ساقها الله -جل وعلا- في سورة البقرة، ونتكلم عليه -إن شاء الله- من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

إذا رجعنا إلى الآية التي قبل هذا المثل نجد أن الله -تعالى- قد قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[٣٧٥]

هذا خبر عن أولئك الكفار أنهم كانوا إذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله من الهدى والنور، والتزموا بما جاءكم عن الله؛ يكون جوابهم أن يقولوا معاندين: لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من المعتقدات والتقاليد.

فأنكر الله عليهم هذا المنطق إنكارًا مشوبًا بالتعجُّب (أي: إنكار مع تعجُّب): كيف؟ أيتَّبعون آباءهم ولو كانوا لا يعقلون شيئًا من الهدى والنور ولا يهتدون إلى الحق الذي يرضى الله عنه؟ عجبًا لهذه التبعيّة والتقليد الأعمى! أين العقول والبصائر؟ أين الألباب والأفهام؟

وبعد هذا ضرب لهم مثلًا في إعراضهم وضلالهم لأنّ هذا منطقٌ عجيب يدلّ على الإعراض التام عن الهدى.

فضرب لهم هذا المثل فقال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: في إعراضهم {كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}

---

[٣٧٤] [البقرة:١٧١]
[٣٧٥] [البقرة:١٧٠]

المبحث الثاني: معنى المثل:

هذا مثلٌ ضربه الله -جل وعلا- للكفار حين يدعوهم الداعي إلى الإيمان ولا ينتفعون بما يسمعون، فمثلهم كمثل البهائم التي يصوِّت لها الراعي ويصيح بها؛ وهي تسمع الصوت لكن لا تفهم، لا تفهم ما يقول، لو قال لها: تعالي، اذهبي إلى جهة اليمين، اشربي من هذا... ما تفهم، هي تسمع أصواتٍ لكنها لا تفهم ماذا يقال لها.

كذلك هؤلاء الكفار مَثَلُهم كمثل هذه البهائم التي يصوَّت لها فهي تسمع ولا تفهم، لأنهم لما لم تؤمن قلوبهم أول مرة تعطَّل انتفاعهم بحواسهم؛ فهم صمٌّ عن سماع الحق سماعًا ينتفعون به، بكمٌ قد خرست ألسنتهم عن النطق بالحق، عُميٌ عن إبصار الحق، -وقد تكرر معنا مثل هذا المعنى- ولهذا لا يعقلون الهدى الذي تدعوهم إليه.

وقوله: {كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً} ما الفرق بين الدعاء والنداء؟

- قيل: الدعاء للقريب، والنداء للبعيد.
- وقيل: المراد بهما نوعان من الأصوات التي تقال للغنم -مثلًا- فالدعاء: ما يخاطب به الغنم من الأصوات الدالة على الزجر حينما يزجرها الراعي، والنداء: رفع الصوت عليها لتجتمع إلى رعاتها، فهذا وجه وهذا وجه.

والشيخ ابن عاشور استظهر المعنى الثاني.

➢ وهذا المثل فيه **نكتة بلاغية** (يعلمها من يدرس البلاغة من علوم اللغة العربية)، وهذه النكتة من مباحث وأنواع البلاغة، نوعٌ يسمّى: **الاحتباك**، وبعضهم يسميه **حذف المقابل**.

ومعناه في علم البلاغة: أن يكون في الكلام جهتان، فيُحذف من الأول ما يُثبَت نظيره من الثاني، ويُحذَف من الثاني ما يُثبت نظيره من الأول.

ومن أمثلته: قوله -تعالى-: {فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ}[376] الآن هنا فئتين جهتين، كل جهة لها وصف ولها عمل، فذكر في الجهة الأولى العمل وأبهم الوصف، وفي الجهة الثانية العكس ذكر الوصف ولم يذكر العمل، لكن يُستدل على ما لم يذكر بما ذكر في الجهة الثانية.

مؤمنة (محذوف)	كَافِرَةٌ
تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	تقاتل في سبيل الطاغوت (محذوفة)

يعني تقدير الكلام: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت. فقال: فئة تقاتل في سبيل الله، وعرفنا أنها مؤمنة من الجهة الثانية لأن الثانية وصفها بأنها كافرة، فالأولى مؤمنة، والثانية عرفنا أنها تقاتل في سبيل الطاغوت لأن الجهة الأولى تقاتل في سبيل الله، هذا هو الاحتباك، وهذا لا يتذوقه إلا أهل اللغة.

الحاصل أن الآية التي معنا الآن (آية المثَل) فيها احتباك، لأن الله قال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ} تقدير الكلام: ومثل الأنبياء حين يدعون الكفار كمثل الذي يَنعِق والذي يُنعَقُ به، فحذف من الأول الأنبياء لأنه دلَّ عليه في الجهة الثانية؛ وهي قوله: {الّذي ينعِق}، فهم الأنبياء الذين ينادُون ويدعون في الجهة الأولى، وحذف من الثاني الذي يُنعَقُ به لدلالة قوله: {الّذين كفَرُوا} عليه؛ فهم الذين يُنعَقُ بهم.

الأنبياء الذين يدعون	⇦ يقابلهم في المثل: الراعي الذي ينعَق بالغنم
الذين كفروا	⇦ يقابلهم: الذي يُنعَق به (الغنم مثلًا) ولا يعقل ما يسمع

وهذا المثل مضروب للكفار حينما يدعوهم الداعي إلى الإيمان، وأن الداعي يدعوهم ويدعوهم، فيسمعون ولكن لا يعقلون، كمثل الأغنام حينما يصوِّت بها الراعي ويتكلم، تسمع كلامًا لكن لا تفهمه، فهذا وجهٌ لصورة المثل.

وهناك وجهٌ آخر ذكره أهل العلم في معنى المثل: قالوا: إنَّ المثل مضروبٌ في الذين كفروا حالَ دعائهم الأصنام التي يعبدونها، فمثلهم حينما يدعون آلهتهم من هذه الأوثان كمثل الناعق الذي يدعو ما لا يسمع ولا يعقل، أي: شَبّه الأصنام التي لا تفهم بالبهائم.

[376] [آل عمران:١٣]

فعلى الوجه الأول: يقابل الذي ينعِق: الأنبياء، والذي يُدعى: الكفار.

وعلى الوجه الثاني: يقابل الذي ينعِق: الكفار، والذي يُدعى: الأصنام، ويكون تنزيل المثل: أن الكفار في شركهم يدعون ما لا يسمع وما لا يعقل، وهذا فيه تبكيتٌ وتسفيه لحالهم.

وهذان المعنيان صحيحان والآية تحتملهما، والقاعدة: أن الآية إذا احتملت معنيين ولم يكن بينهما تضاد فيصحّ أن تُحمل عليهما، وهذا فيه تكثير وتوسيع لمعاني القرآن.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

- على الوجه الأول:

الممثَّل به: مَن يصيح بالبهائم، فهي تسمع الصوت لكن لا تفهم ولا تعقل ما يقال لها.

والممثَّل له: هم الكفار الذين يطرق مسامعهم داعي الإيمان.

وجه الشبه: السماع المجرَّد دون العقل والانتفاع، فهذا مشتركٌ بين البهائم والكفار (عدم الاستجابة للداعي لأن المدعوّ لا يعقل الدعاء، وإنما يتلقى أصواتٍ دون عقلٍ وفهم).

- وعلى الوجه الثاني:

الممثَّل به: (نفسه) هو من يصيح بالبهائم، فهذه البهائم تسمع الأصوات لكنها لا تفهم ولا تعقل.

والممثَّل له: الكفار الذين يدعون آلهتهم.

ووجه الشبه: دعاءُ من لا يعقل (والأصنام لا تسمع أصلًا فعدمُ عقلها أشدّ).

وقد أخذ الأخطل -الشاعر التغلبي- هذا المعنى من الآية فقال:

فانعِق بضأنك يا جريرُ فإنما.. منّتكَ نفسك في الظلام ضلالا

والمعارضات بين الأخطل وجرير وبين جرير والفرزدق معروفة هذه النقائض، ومشهورة في الأدب، فجرير كان يهجو الأخطل، فردَّ عليه: إنّ هجاءك لي لا طائل من وراءه فأنت في شِعرك كمن ينعق بغنم تسمع ولا تفهم.

المثل الثاني في هذا الموضوع **(الإعراض عن آيات الله)** وهو المثل السادس والعشرون في سياق الأمثال

يقول الله -تعالى-: **{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}**[٣٧٧]

هذا مَثلٌ من الأمثال القرآنية جاء في سياق قصة، فهي قصةٌ جاء في أثنائها مثَل، والكلام عليه في المباحث المعروفة:

المبحث الأول: سياق المثل:

لو تأملنا في السورة التي ورد فيها هذا المثل -وهي سورة الأعراف وهي من السور الطوال- نجد أن الله -جل وعلا- ذكر فيها جملةً من قَصص الأنبياء الذين اجتهدوا مع أقوامهم بدعوتهم إلى دين الله وتوحيده بالعبادة، ولكنهم قوبلوا بالإعراض والمخالفة حتى حلّت بالكافرين العقوبة وحقّ عليهم العذاب، جاء ذلك كما تتلوه في هذه السورة فإنه يمرُّ عليك في قصة نوحٍ، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شعيب، ثم موسى، عليهم السلام جميعًا.

وكان موسى -عليه السلام- أكثرهم حظًا في هذه السورة في سياق جملةٍ من المشاهد والأحداث التي وقعت له مع قومه، فقد ذكرت السورة أخباره مع بني إسرائيل ودعوته لهم.. وغيرها.

وبعد قَصص هؤلاء الأنبياء وملاحظة تصوير جانب الإعراض في كل قومٍ مع نبيهم، جاءت قصةٌ من قَصص بني إسرائيل؛ وهي قصة القرية التي كانت على ساحل البحر فنُهوا عن الصيد يوم السبت، ولكن الله ابتلاهم فصارت الأسماك تأتيهم ظاهرةً تطفو على وجه البحر يوم السبت، وأما في بقية الأيام فلا تأتي، فاحتالوا واستحلوا محارم الله بأدنى الحيل، بأن نصبوا شباكهم وحفروا حُفَرهم قبل يوم السبت، فلما جاءت الأسماك يوم السبت وقعت في الشباك فتركوها حتى جاء يوم الأحد فأخذوها، فقالوا: نحن لم نصطَد في يوم السبت حيلةً،

---

[٣٧٧] [الأعراف: ١٧٥-١٧٨]

يخادعون الله كما يخادعون الصبيان! فنهاهم الواعظون، وانقسم الناس في هذه القرية إلى ثلاثة أقسام: قومٌ وقعوا في هذا المنكر واعتدوا في السبت، وقومٌ أنكروا ووعظوا ونَهوا، وقوم سكتوا.

ولما أنكر الواعظون على المُعتدين أعرضوا عن دعوة الحق، وأعرضوا عن نصح الخير، وأصروا على معصيتهم، فجاءهم العذاب الشديد بسبب إعراضهم ومخالفتهم، وأنجى الله الذين نهوا عن السوء ونهوا عن المنكر من ذلك العذاب البئيس.

بعد ذلك ذكر الله –جل وعلا– أخْذَ الميثاق على بني آدم: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ}[٣٧٨]

وللعلماء في معنى الآية قولان مشهوران وكلام طويل، (وهذه الآية –بالمناسبة– من الآيات المُشكلة في التفسير) لكن المشهور قولان لأهل العلم في معناها؛ المعنى الأول: أن الله أخرج ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال؛ أي: أمر حقيقي قال: {ألستُ بربكم} قالوا: {بلى}، ثم أرسل الرسل عبر القرون مُذَكِّرةً بذلك الميثاق السابق لأن الميثاق نسيه الجميع.. وهذا المعنى جاء فيه أحاديث وآثار كثيرة.

المعنى الثاني للآية: أن معنى قوله: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا} أنه إشارة إلى الأدلة العقلية والنقلية والفطرة التي فطر الله الناس عليها من توحيده –جل وعلا–، فالإشهاد ليس حقيقيًا وإنما بلسان الحال، وعلى كُلٍّ فلا مانع من حمل الآية على المعنيين لأنه لا تضادّ بينهما.

فالحاصل: أنه بعد كل هذا (بعد قصص المعرضين، وبعد أخذ الميثاق على بني آدم بالإيمان والاتباع) جاء هذا المثل ليبين شناعة الإعراض عن طريق الحق ونقض العهد والميثاق، وقد جاء في صورة قبيحةٍ تنفر منها النفوس الشريفة، فجاء هذا المثل حقيقةً في موقعه المناسب جدًا لمن تأمل.

---

[٣٧٨] [الأعراف:١٧٢]

المبحث الثاني: معنى المثل:

بيان معاني بعض الكلمات:

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} النبأ: هو الخبر الذي له شأن وفائدة.

وقوله: {آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا} أصل السّلخ هو إخراج الشيء من جلده كما يُقال: سلختُ الشاة: إذا نزعتَ الجلد، والمعنى فانسلخ منها يعني خرج من العمل بها انسلاخًا تامًا ولم يعد له بها أيّ تعلق.

قال: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} يعني أدركه ولحقه {فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} أي: الضالين.

{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ}: يعني تزجره وتطرده.

{يَلْهَثْ}: يعني يُخرج لسانه، فالكلب دائمًا تجده يلهث والعادة أن اللاهث يكون بسبب الحر أو العطش هذا الغالب.

عرض المثل:

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} الخطاب هذا للنبي -ﷺ- فيأمره الله أن يتلو على قومه قصة رجلٍ من بني إسرائيل، هذا الرجل أعطاه الله الآيات والحجج والأدلة، فعلِمها وفهمها وفهم ما فيها من الحق الذي دلت عليه، لكنه لم يعمل بها، وتركها ونبذها وراء ظهره، واتبع هواه وآثر الدنيا، فاستحوذ عليه الشيطان فأدركه، فأصبح من الضالين الهالكين بسبب إعراضه ومخالفته أمر ربه.

ثم قال الله -عز وجل- عنه: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} يعني: لو شئنا أن نرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا، ولكنه ركن إلى الدنيا، واتبع هواه، وآثر لذّاته وشهواته على الآخرة، وامتنع عن طاعة الله وخالف أمره، فمثل هذا الرجل في شدة الحرص على الدنيا كمثل الكلب لا يزال لاهثًا على كل حال إن كان رابضًا لهث، وإن طُرِد لهث، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله وأعرض عن العمل بما عَلِم، هو يَظَلُّ على كفره وضلاله إن دعوتَه وإن تركته، فهو في غيّه سادِر لاهث.

وهذا المثل المذكور مَثَل القوم الضالين بتكذيبهم بآيات الله، {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} رجاء أن يتفكروا فينزجروا عما هم فيه من التكذيب والضلال.

وهذا المثل فيه نكتتان بلاغيتان، ونحن -بسبب بعدنا عن اللغة- أصبحنا لا نتذوق وندرك مثل هذه المعاني البلاغية، فلو قارنتَ تجد أن العربيّ السابق كان إذا سمع القرآن هزّه -حتى غير المسلم- لأنه يُدرك معاني اللغة ويدرك عظمة سبك الكلام وقوة نظمه.

وتعرفون الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن قال: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو وما يعلى عليه".

وجبير بن مطعم لما دخل المدينة وكان أيضًا قبل إسلامه -رضي الله عنه- قال: فأدركت النبي ﷺ يصلي المغرب، وهو يقرأ في المغرب بالطور، فاستمع إلى قوة الآيات وما فيها من المعاني التي تأخذ بالألباب، قال: "فكاد قلبي أن يطير".

الحاصل: أن هذا المثل فيه نكتتان بلاغيتان، **النكتة الأولى**: التعبير بالانسلاخ، وهذا التعبير يصور لك كمال الخروج من الآيات! فهذا الإنسان الذي رزقه الله العلم والهدى انسلخ تمامًا مما كان فيه وصار مباينًا مفارقًا تاركًا لها كما يُسلَخ الجلد عن الشاة بعد ذبحها.

النكتة الثانية: التعبير بلَهثِ الكلب في تصوير حال ذلك الرجل العالم، فكما أن الكلب يلهث في جميع أحواله -تقريبًا- فهكذا ذاك الذي أعرض عن الآيات، وأعرض عن العلم الذي أُوتيَه بسبب اللَهَث وراء الدنيا.

وهذا التصوير فيه تقبيحٌ وتشنيعٌ لهذه الحال، وقد جاء في الحديث عن حذيفة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- أنه قال: "إنّ ما أتخوّفُ عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه، وكان ردءًا للإسلام غيّره إلى

ما شاء الله، فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك" قال: قلتُ يا نبيّ الله أيهما أولى بالشرك؟ الرامي أم المرمي؟ قال: "بل الرامي"[٣٧٩]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين المُمَثَّل به والمُمَثَّل له:

الممثَّل به: هو الكلب اللاهث على كل حال (كلبٌ يلهث في جميع أحواله) سواء زجرته أو تركته.

الممثَّل له: العالِم الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها ولم ينتفع بها، فصار في ضلالته لا يرعوي إن وُعِظ وإن تُرِك، قد فُتِن بدنياه، ولهث خلف بريقها ومتاعها!

وجه الشبه: يمكن أن نقول – تقريبًا –: استواء الحالين المتقابلين بسبب الإعراض وعدم البصيرة بما ينفع.

والحالان المتقابلان –في الممثل به–: الزجر أو الترك (في الكلب أي: أن تزجره أو أن تتركه سواء)

وفي الممثَّل له: الوعظ أو الترك (في العالِم المنسلخ من علمه).

وابن قتيبة رحمه الله –في كتابه "تأويل مُشكِل القرآن"– ذكرَ فائدة علمية اكتُشِفت حديثًا وقد نبّه عليها هو قديمًا لأنه من المتقدمين (في القرن الثالث الهجري)؛ قال: "كل شيءٍ يلهث فإنما يلهث من إعياءٍ أو عطش أو عِلة، خلا الكلب –يعني ما عدا الكلب– فإنه يلهث في حال الكَلال –أي: التعب– وحال الراحة، وحال الصحة والمرض، وحال الرّي والعطش، فضرب الله مثلًا لمن كذّب بآياته فقال إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال ؛كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، أو تركته على حاله لهث".

وبعض المتأخرين من المعتنين بالعلم التطبيقي ذكر أن الكلب دائم اللهث تقريبًا، وسبب ذلك أنه يحاول تبريد نفسه (تبريد جسمه)، لأنه وُجِد أن جسم الكلب لا يتوفر فيه شيءٌ يُذكر من الغدد العرقية إلا في باطن قدميه التي تفرز ما يُبَرّد فنتيجةً لذلك يلهث.

[٣٧٩] رواه البزّار وابن حبان وجوّد إسناده الحافظ ابن كثير وحسّنه الألباني

⌧ نختم الكلام على هذا المثل ببعض **الوقفات والعِبر** من وحيه:

➢ **الوقفة الأولى: من المُبهَم في الآية؟** وقد قلنا إن هذا المثل ورد في ثنايا قصة فقال الله —عز وجلّ–: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا..}، فنجد أن الله —تعالى– أبهمَ هذا الرجل، وأبهم زمانه ومكانه، لكن أبقى المهمّ وهو موطن العبرة من حاله.

وقد خاض المفسرون –رحمهم الله– في ذكر أخبار وقصص وتفصيلات –وبعضها بينها تضارب– في هذا الخبر، وقصة هذا الرجل وهذه الأخبار مأخوذة عن بني إسرائيل، وأشهر ما ذكروه: أنه رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعام بن باعوراء، وبعضهم قال: إنه أمية بن أبي الصلت من أهل الجاهلية (الشاعر) ولكن أكثر وأشهر من ذكروه هو بلعام بن باعوراء لأنه كان من بني إسرائيل والآية تشير إلى ذلك (أنه في بني إسرائيل).

والمراد أن حاله تنطبق على ما ذُكِر في الآية، ولا يصح أن يكون سبب نزول الآية ذلك، لأن سبب النزول: هو ما نزلت الآية بشأنه وقت وقوعه (يعني يحدث الشيء فتنزل الآية فنقول سبب نزولها كذا)، فمثلًا قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}[٣٨٠] لا نقول سبب نزولها قصة أبرهة، لأن هناك زمانًا بين الحادثة ونزول الآيات، لكن هي وردت في شأن القصة هذه وفي حكاية ما فيها وما حصل.

قال قتادة –رحمه الله– عن آية المَثَل: "هذا مثلٌ ضربه الله –عز وجل– لمن عُرِض عليه الهدى فأبى أن يقبله".

وجاء في تفسير الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي –رحمه الله– قال: "وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أنّ المراد به شخصٌ معيّن قد كان منه ما ذكره الله فقصّ الله قصّته تنبيهًا للعباد، ويحتمل أنّ المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شاملٌ لكلّ مَن آتاه الله آياته فانسلخ منها". فالمقصود العبرة، العبرة بكلّ من اتّصف بهذا الحال.

➢ **الوقفة الثانية: الرفعة عند الله –تعالى– ليست بمجرّد العلم، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله**، فإنَّ هذا المذكور كان من أعلم أهل زمانه، ومع ذلك لم يرفعه الله بعلمه، ولم ينتفع به.

وفي الآية أيضًا فائدة: أنّ الله –سبحانه– هو الذي يرفع عبدَه إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوعٌ لا يرفعه أحد، فالله –جل وعلا– هو الخافض الرافع، وهذا قد خفضه الله ولم يرفعه.

---

[٣٨٠] [الفيل : ١-٢]

وما ورد من فضل العلماء ورفعتهم محمولٌ على هذا المعنى، كما قال الله -تعالى-: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[381]

وهذا فيه درسٌ مسلكيٌّ لنا أن نُتبع العلم بالعمل، فليس العلم مجرد معلومات وزيادة المعارف والثقافات، وإنما يُراد العلم للعمل، هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

وقال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره عند هذه الآية: "وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ في كلّ مَن أوتيَ القرآن فلم يعمل به" (يعني: كل مَن حفظ القرآن أو تعلّم القرآن فلم يعمل به يدخل في هذا المثل).

➢ الوقفة الثالثة: **خطرُ الدنيا على أهل العلم:**

الإمام التابعي عطاء -رحمه الله- له تعليق على هذه الآية وهذا المثل وهذا الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، قال: "أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وهذه أشدُّ آيةٍ على العلماء، وذلك أنّ الله أخبر أنه آتاه آية من اسمه الأعظم، والدعوات المستجابة، والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومَن الذي يسلمُ من هاتين الخلّتين إلا مَن عصمه الله!".

وجاء في الحديث عن كعب بن مالك -رضي الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- قال: "ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسدَ لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"[382] يعني لو أرسلنا ذئبين جائعَين على غنم فمؤكّد أنهما سيفسدانها ويهلكانها، وهذا ليس بأفسد من حرص المرء على المال والشرف في إفساده لدينه.

والحافظ ابن رجب -للفائدة- له رسالة جميلة جدًا في شرح هذا الحديث.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "كلُّ مَن آثَرَ الدنيا من أهل العلم واستحبَّها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأنّ أحكام الربّ -سبحانه- كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتّبعون الشبهات، وإن كان الحقّ ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدمَ على

---

[381] [المجادلة:١١]
[382] رواه الترمذي بسند صحيح

مخالفته، وقال: لي مخرجٌ بالتوبة" –يعني العالِمَ الذي آثر الدنيا إذا كانت المسألة فيها شبهة ولها مدخل يستغله، لكن أحيانًا تكون واضحة، فماذا يفعل؟ يُقدِم ويقول: نستغفر ونتوب حتى لا تفوته الفرصة!

قال: "وفي هؤلاء وأشباههم قال –تعالى–: {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ} –يعني: العلم، {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٣٨٣]".

وقال الحسن البصري –رحمه الله–: "عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة".

وأنشدوا بيتين في هذا المعنى:

عجبْتُ لمبتاع الضلالة بالهدى   ومن يشتري دنياه بالدينِ أعجبُ

وأعجبُ من هذين مَن با ع دينه   بدنيا سِواهُ فهو من ذَين أعجبُ

➢ الوقفة الرابعة: الحذرُ من علماء السوء:

هذه الآية تشير إلى عالم السوء الذي أوتي العلم وآتاه الله الآيات، ولكنه انسلخ منها ورضيَ بلُعاعةٍ من حطام الدنيا على ما آتاه الله من هذا العلم والهدى. ولهذا على المرء أن ينظر في العالِمِ وأن يكونَ عالمًا ربانيًا.

يقول محمد بن سيرين –رحمه الله–: "إنّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمّن تأخذون دينكم".

وقد تضمنت هذه الآية –التي نحن في دراستها– ذمّ عالم السوء من وجوهٍ كثيرة، منها:

١– أنه ضلَّ بعد العلم، واختار الضلالة على الهدى.

٢– أنه فارقَ الإيمان مفارقةَ من لا يعود إليه (فانسلخ منها).

٣– أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث إنه ظفر به وافترسه، ولهذا قال: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} ولم يقل: تبعه.

---

[٣٨٣] [الأعراف:١٦٩]

٤- أنه غوى بعد الرشد، والغَيّ هو الضلال في العلم والقصد.

٥- أنه -سبحانه- لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان هذا سببًا لهلاكه؛ لأنه لم يُرفع به، بل صار علمه وبالًا عليه، فلو كان جاهلًا لكان خيرًا له.

يقول الإلبيري:

إذا ما لم يُفدِك العلم خيرًا   فخيرٌ منه أن لو قد جهلتَا

وإن ألقاكَ فهمُك في مهاوٍ   فليتكَ ثمّ ليتَكَ ما فهمتَا

٦- أيضًا من الأوجه: أنه -سبحانه- أخبر عن خسة همّته، وأنه اختار الأدنى على الأعلى، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

٧- أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له.

٨- أنه شُبّه بالكلب وهو أخس الحيوانات همةً واسقطها نفسًا، وأيضًا شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب، يعني في كل حال، وعلى كل حال يلهث، فهذا عالم السوء يلهث ويلهف وراء متاع الدنيا، نسأل الله العافية.

➢ الوقفة الخامسة: الحذر من اتباع الهوى:

وإنما ذكرنا ذلك لأن الله -تعالى- قال في هذه الآية عن ذلك العالم: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}.

والهوى تكرر ذكره في القرآن، ومعناه: ميل النفس إلى ما تهواه من الشهوات المحرمة، وسُمّي الهوى بذلك لأنه يهوي بصاحبه.

ونعلم أننا ندين بالإسلام، وهو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، فهذا الاستسلام هو أصل دين الإسلام، فمَن أسلم وجهه لله، ووقف عند حدود الله فقد اهتدى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}[٣٨٤]

[٣٨٤] [النازعات: ٤٠-٤١]

أما من أتبعَ نفسه هواها فهذا عاقبته الهلاك، وذلك أن المعاصي والبدع كلها منشؤها من تقديم الهوى على الهدى؛ {فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}[٣٨٥]

والمشكلة والبلية إذا كان صاحب الهوى عنده شيء من العلم، فإنه يصير مفزعَ كل مُغرِض ومأوى كل مبطل، ومستشار كل طاغية وفتنةً لكل جاهل؛ لأنه يسوغ الباطل، ويسوق ما يريدون بالأدلة المزيفة، والأقوال المبهرجة ويلبس على الناس بالشُّبَه التي تصرفهم وتضلهم.

يقول الحسن البصري –رحمه الله–: "شرار عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل ليُعموا بها عباد الله".

وصاحب الهوى تسهل استمالته من قبل أعداء الأمة والمتربصين بها الدوائر، لأنهم يعرفون من أين يؤتى (بالدنيا)، فيعطونه من الدنيا فينقلب خنجرًا في خاصرة الأمة، وسوطًا يلهب ظهرها، وعينًا يكشف سرّها ويهتك سترها، فيثبط الناس عن العزائم، ويهوّن عليهم التهتك والمخالفة في أمور الدين والشرائع.

وأيضًا صاحب الهوى إذا كان عنده شيء من العلم صار مفرّقًا لجماعة المسلمين، ويبتغي لهم العنت والمشقة، فهو يطعن في العلماء الصادقين، يتلمّس عليهم الثغرات والهفوات، ويسعى في الوقيعة والإفساد، فتجد أنه همه الهمز واللمز والحسد، ويثير ويثرّب، فساده عريض، وشره كبير، نسأل الله العافية، {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[٣٨٦]

أسأل الله –جل وعلا– أن يرزقني وإياكم العلم النافع، وأن ينوّر قلوبنا بالهدى والآيات والإيمان، وأن يثبتنا على ذلك، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد أن هدانا، هذه دعوةٌ علينا أن نجعلها دأبًا لنا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ويا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك.

---

[٣٨٥] [النازعات: ٣٧-٣٩]
[٣٨٦] [ص:٢٦]

المثل الثالث في هذا الموضوع (وهو السابع والعشرون في سياق دراستنا للأمثال القرآنية بحسب الترتيب التسلسلي من البداية) يقول الله –جل وعلا–: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**[٣٨٧] والكلام على هذا المثل في ثلاثة مباحث –كما جرت العادة–:

المبحث الأول: سياق المثل:

حينما ننظر في هذه الآية التي تضمنت هذا المثل نجد أنها الآية الخامسة في سورة الجمعة، وهذه السورة جاءت لبيان منّة الله على هذه الأمة في تفضيلها وهدايتها بالرسول ﷺ بعد ضلالها، وجاءت بالتحذير من مشابهة اليهود الذين حملوا العلم والهدى عن نبيهم موسى –عليه الصلاة والسلام– لكن لم يهتدوا ولم يعملوا بهذا العلم، ومن جملة ما عَلِموه: البشارة بالنبي ﷺ، لكنهم أعرضوا عن الحق والهدى فجاء التحذير من مشابهة أولئك في قالب المثَل الحسي بأمرٍ يعرفه الناس ويرونه ليكون أبلغ وأرسخ.

وفي هذا عِظَةٌ وهي أنّ ورود العلم والهدى من رُسُلِ الله لا يكفي للدلالة على الخيرية والفضل، فهذا ليس معيارًا في فضل فلان أو فضل آل فلان أو قبيلة فلان أو أهل البلد الفلاني حينما يأتيهم علم وهدى من الرسول ويُرسَل إليهم، وليس هذا دليلًا بمجرّده على خيريّتهم وفضلهم، وإنما الشأن والأمر هو فيما يقابَل به هذا الوحي والنور أيكون هذا بالاتباع أم بالإعراض؟

فهذا سياق المثل في هذه السورة الكريمة.

المبحث الثاني: معنى المثل:

يضرب الله –جل وعلا– مثلًا لليهود –الذين كُلِّفوا بالعمل بما في التوراة فتركوا ما كُلّفوا به ولم يعملوا بما علموا– بالحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة (الأسفار: جمع سفر، والسفر هو الكتاب الكبير) فهذا الحمار لا يدري ما يحمل ولا يدري ما في هذه الكتب.

---

[٣٨٧] [الجمعة:٥]

ومعنى قوله: {حُمِّلُوا التَّوراة} أي: عُهِد إليهم وكُلِّفوا بما في التوراة، لكنهم لم يَفوا بما كُلِّفوا به، كما في الآية الأخرى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[388]

ثم قال الله –جل وعلا–: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}

{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ}: يعني قَبُحَ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ولم ينتفعوا بها، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: يعني لا يوفِّق القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده لإصابة الحق.

وهنا في قوله: {بِئْسَ مَثَلُ} كلمة "بِئْس" ذمّ وقوله {بِئْسَ مَثَلُ} معناه أنّ الذم متوجّه للقوم، وليس إلى المثل، لأن المثل ممدوح ومن كلام الله، ولكن تقدير الكلام: بئس القوم قومٌ مثلهم كذا وكذا، فقد يتبادر إلى الذهن أن هذا ذم للمثل، وليس المعنى كذلك وإنما المعنى: بئس القوم، فالذم متوجّه إلى أولئك القوم الذين حالهم هو كذا (حملوا العلم لكنهم أعرضوا عنه).

والمراد بالآيات في قوله: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}: ما جاء في التوراة لأنهم كذّبوا بها حينما تركوا الإيمان بمحمد ﷺ، ويدخل فيها أيضًا الآيات الدالة على صحة نبوته ﷺ يعني من القرآن فاليهود كذّبوا بالقرآن وكذّبوا بالتوراة حينما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ كذّبوا بالكتابين.

ومن جملة ما يُنكَر عليهم ويستحقون به هذا التشبيه المُقْذِع مقالتهم حينما بُعِث النبي ﷺ، قالوا: إنما أُرسِل إلى العرب خاصة، مع علمهم أنه ذلك النبي المنعوت في التوراة والمبَشَّر به فيها فيا للعجب! كيف تنكرون نبوته وكتابكم يحضّ على الإيمان به!

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[389]

وهذا التمثيل المقصود منه: تشنيع حالهم، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس.

---

[388] [الأحزاب : ٧٢]
[389] [البقرة: ١٤٦]

وقد علق بعض المفسرين -رحمهم الله- على هذا المثل تعليقًا جميلًا فقال: هذا المثل مَثَلُ مَن يفهم معاني القرآن ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض مَن لا يحتاج إليه.

ولهذا قال ميمون بن مهران: يا أهل القرآن اتّبعوا القرآن قبل أن يَتبَعكُم. ثم تلا هذه الآية.

يعني أن الكلام وإن كانَ أصالةً متوجه إلى اليهود، لكنه بمعناه العام يدخل فيه من أتاه علمًا ولم ينتفع به، فالإنسان ينظر ويحاسب نفسه في هذا العلم الذي يُحصله ويتلقاه ويتعلمه ما أثره؟ وما حالك مع هذا العلم من جهة الاتباع والإعراض؟ هل أنت ممن يعمل بهذا العلم أم مجرد معلومات زيادة في المعارف والثقافات؟

واختيار التشبيه بالحمار لأنه الحيوان الذي هو علامة على البلادة والجهل، ولهذا إذا تسابَّ اثنان أول كلمة يتبادر في السباب والشتائم يقول له: يا حمار، لأنه صار عَلَمًا على هذه الصفة (الجهل والبلادة).

وهذا أيضًا فيه تشنيعٌ لحالهم كما قال القائل:

تعلَّم يا فتى فالجهل عارُ   ولا يرضى به إلا حمارُ

وقال آخر:

ولا يقيم على ضيمٍ يُراد به   إلا الأذلّانِ عَيرُ الحيّ والوتدُ

هذا على الخسفِ مربوطٌ بِرُمَّتِهِ   وذا يُشَجُّ فلا يرثي له أحدُ

(والعَير هو الحمار).

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثَّل به: الحمار الذي يحملُ كتبًا كبارًا من كتب العلم، فلا يستفيد منها شيئًا.

الممثل له: اليهود الذين علموا لكنهم لم ينتفعوا بهذا العلم بالاهتداء والعمل.

وجه الشبه بينهما: حملُ الخيرِ مع عدم الانتفاع به، فكلاهما يحمل خيرًا لكن لا ينتفع به، بل يعود وبالًا على صاحبه، فالحمار لا يناله إلا الثقل (ثقل الحِمل) من غير انتفاعٍ من هذا الذي يحمله، وكذلك اليهود ليس لهم

من كتابهم إلا وبالُ الحجة عليهم، بل الواقع كما ذكر بعض أهل العلم أنَّ اليهود هنا أسوأُ حالًا من الحمير؛ لأنّ الحمار لا فهمَ له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال في الآية الأخرى: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [390]

وهذا المثل –كما قلنا– يلحق بمن لم يعمل بالقرآن، ولم ينتفع ويهتدِ به؛ {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [391] أقومُ في كل شيءٍ، إذا كنتَ تبحث عن الطريق الأقوم والسبيل الأهدى فدونك، يهدي للتي هي أقوم في العقائد، فأصحُّ العقائد وأسلمها في القرآن، يهدي للتي هي أقوم في الشرائع، في الأخلاق... لكن الشأن في العمل والاهتداء، ولهذا فطريقة السلف في التعليم ينبغي أن نحييها ولا سيما الذين لهم عناية بتعليم القرآن ومدارس وحِلَق ودور تحفيظ القرآن، أن نربط العلم بالعمل.

قال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–: كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نتعلم ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

فعلينا أن نربي المتعلمين ولا سيما الصغار، على ألا نُكثر لكن نأخذ قدرًا قليلًا، فيتعلم الطالب تلاوة هذا القدر، ويحفظه، ويتعلم ما فيه من العمل، ويعمل به. فالمربي يتعاهد هذا المربَّى بسلوكه وعمله واهتدائه وانتفاعه بما تعلَّم وحفظ، لا تكون المسألة مجرد تلقين وحفظ نصوص فقط!

إذًا في هذا المثل –أيها الأحبّة– تنبيهٌ ورسالة من الله –جل وعلا– مفادها أنه ينبغي لمن حمل الكتابَ أن يتعلمَ معانيه ويعمل به لِئَلّا يلحقه من الذمّ ما لحق بأولئك.

كالعِيسِ في البيداءِ يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

العِيس: هي الإبل (النوق)، يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها، يعني: الماء عندها لكنها لم تستفد ولم تأخذ، فماتت ظَمَأً، وكذلك الإنسان يضلّ ويهلِك بسبب إعراضه والعلمُ معه قريبٌ منه.

---

[390] [الأعراف:١٧٩]
[391] [الإسراء:٩]

هنا لطيفة نختم بها هذا المثل، ذكرها الزمخشري في كتابه الكشاف؛ فنقلَ عن بعض أهل العلم أن الله -تعالى- أبطلَ قولَ اليهود في ثلاث آياتٍ من هذه السورة -(سورة الجمعة)، وهذه السورة من السور التي ورد فيها فضلٌ بأنها تُقرأ في مجامع المسلمين (في الجمعة وفي العيد)-

قال: أبطلَ اللهُ قولَ اليهودِ في ثلاث آيات؛ الأولى: أنهم افتخروا بأنهم أولياء الله وأحبَّاؤه فكذَّبهم في قوله: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[٣٩٢]

الثاني: أنهم افتخروا بأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم، فكانوا يتفاخرون يقولون: نحن أهل كتاب والعرب بدو جُهَّل جُهَّال لا يعرفون، وما عندهم كتاب، فشبَّههم بالحمار، كأنه قيل لهم: عندكم كتاب لكن ماذا نفعكم؟ حالكم كحال الحمار الذي يحمل أسفارًا لا ينتفع بها.

الثالث: أنهم افتخروا بالسبت، بقولهم نحن أصحاب السبت وليس للمسلمين مثله! فجاء في هذه السورة أن الله شرع للمسلمين يوم الجمعة، وهم أفضل، فهذا مما ادخره الله للمسلمين (يوم الجمعة) وفيه من الفضائل ما لا يخفى على الجميع.

---

[٣٩٢] [الجمعة:٦]

- نتقل بعد هذا إلى **المثل الرابع** في هذا الموضوع (الإعراض عن آيات الله) وهو **المثل الثامن والعشرون** في سياق الأمثال القرآنية، يقول الله –جل وعلا-: **{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ *كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً *كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ}**[393]

المبحث الأول: سياق المثل:

هذا التشبيه الوارد هو في سورة المدثر كما نعلم، وسورة المدثر لو أردنا أن نضع لها عنوانًا عامًا هي سورة الدعوة، جاء فيها تذكير المشركين وتهديدهم باليوم الآخر، وما فيه من الشدائد والأهوال: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}[394]

ثم ذكرت السورة نموذجًا للمعرضين الذين آثروا الزعامة والجاه على الهدى والحق وهو الوليد بن المغيرة في قصته المعروفة والمذكورة في هذه السورة: {ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}[395] الآيات.

ثم خوفت بالنار التي أعدت للكافرين المعرضين: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ *عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}[396] ثم ذكرت السورة حوارًا بين أهل الإيمان والاتباع، وأهل الكفر والإعراض {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ}[397] الآيات.

وبعد هذا جاء التمثيل والتشبيه ليصور حالهم في الإعراض عن قبول الهدى والحق، صورةً سريعة ولقطة تبيّن تشبيهًا لحالهم في إعراضهم.

---

[393] [المدثر:٤٩-٥٣]
[394] [المدثر:٨-١٠]
[395] [المدثر: ٢١-٢٥]
[396] [المدثر : ٢٦-٣٠]
[397] [المدثر : ٣٩-٤٥]

المبحث الثاني: معنى المثل:

قال: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}[398] بدأ الحديث في هذا المثل بصيغة استفهام لكن هذا الاستفهام مشوب ومشرب بمعنى التعجب، يعني: أيّ شيء جعل هؤلاء المشركين معرضين عن القرآن مع ما فيه من الحجج والبراهين والمواعظ؟! فإعراضهم –مع قوته في البيان والبرهان، وهم أصحاب البيان– أمرٌ يبعث على العجب والاستغراب {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}!

والإعراض عن القرآن له صورتان، الصورة الأولى: جحده وإنكاره، والصورة الثانية: ترك العمل بما فيه، بأن يؤمن أن هذا القرآن كلام الله لكنه يعرض عنه فلا يعمل ولا يذعن.

ثم شبههم في إعراضهم في هذه الصورة وهذا المثل قال: {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ}[399] وحُمُر: جمع حمار، شبههم بحمر الوحش وهذه الحُمُر شديدة النفور.

{فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}[400] والقسورة للمفسرين فيه كلام، وأشهر ما قيل فيه قولان:

الأول: أن القسورة هو الأسد –بلغة أهل الحبشة– يعني حُمُر الوحش إذا رأت الأسد تفرّ وتذعر وتضطرب وتفزع.

والقول الثاني: أن القسورة هم الرماة الصيادون، وهذا مأثورٌ عن ابن عباس وغيره من السلف والخلف.

فإذًا: هذه حُمُر في حالة فزع وهرب واضطراب، هربًا من الأسد المفترس أو من الصيادين الرماة، وهذا من تشبيه المعقول، (الأمر المعنوي) بالأمر الحسي، الأمر المعنوي: هو الإعراض، والأمر الحسي: هو هرب هذه الحمر مما ذُكر.

[398] [المدثر : ٤٩]
[399] [المدثر:٥٠]
[400] [المدثر:٥١]

ثم انتقل إلى ذكر صورةٍ من صور إعراضهم وعنادهم فقال: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً}[٤٠١] والمعنى أن كل واحد من هؤلاء المشركين يريد أن يصبح عند رأسه كتابٌ منشور يخبره أن محمدًا ﷺ رسول من الله، وليس سبب هذا الطلب قلة البراهين أو ضعف الحجج وإنما هو العناد والاستكبار.

وقد ذكروا أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وغيرهما من كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: لا نؤمن لك حتى يأتي إلى كلّ رجل منا كتاب فيه: مِن الله إلى فلان بن فلان، اتبع محمدًا فإنه رسول من قِبَلي إليك.

وهذا مثالٌ على التعنُّت والعناد الذي كان صفةً راسخة فيهم، وهذا ممّا حالَ بينهم وبين الاتباع والفلاح في الدنيا والآخرة.

ومن أمثلة عنادهم قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[٤٠٢]

ومن ذلك قولهم: {وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا}[٤٠٣]

بعد هذا جاء الردع والزجر لهم عن هذه السفاهات فقال: {كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ}[٤٠٤] يعني ليس الأمر كما زعموا، فليس المانع هو أن يأتيهم خطاب وكتاب وصحف منشرة، لا، وإنما الحقيقة والسبب في إعراضهم أنهم لا يخافون الآخرة ولا يصدقون بالبعث والجزاء، فالمعنى: إذًا أنهم لو آمنوا بالآخرة وخافوا النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام الدلالة، وأنهم لو أنزل عليهم كتابًا كما اقترحوا لما آمنوا، وهم لا يخافون الآخرة.

---

[٤٠١] [المدثر : ٥٢]
[٤٠٢] [الأنعام:١٢٤]
[٤٠٣] [الإسراء : ٩٠-٩٣]
[٤٠٤] [المدثر:٥٣]

وهذا يشير إلى فائدة مهمة وهي أن من أسباب الإعراض: الغفلة عن الآخرة، {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}[405]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثل به والممثل له:

الممثل به: الحمر الوحشية التي هجم عليها أسد أو رماةٌ صيادون يريدون اقتناصها، فتكون في حالة فزع واضطراب وتهرب بكل ما تستطيع من قوة.

الممثل له: المشركون في حالة إعراضهم ونفورهم عن القرآن ودعوة الرسول ﷺ، وفزعهم مما يَرِد في القرآن من قوارع ووعيد يأخذ بالألباب.

وجه الشبه بين الممثل به والممثل له: شدة النفور والإعراض والهرب الذي يدل على الفزع والرعب.

وفي هذا التشبيه والتمثيل تهجينٌ وذم لهم لا يخفى على المتأمل.

الآن نتكلم عن **هدايات هذه الأمثال الأربعة** لأنّ موضوع الإعراض عن آيات الله موضوعٌ مهمّ تبوَّأ منزلةً كبيرةً في كتاب الله -جل وعلا-، ونعلم أن الله -تعالى- حينما خلق الخلق لم يتركهم هملًا ولم يضيعهم سدًى، وإنما أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب للهداية والنذارة، فانقسم الناس إلى فريقين: منهم مَن أطاع وأجاب، ومنهم من عصى وأبى وأعرض، فالكلام على هذا الموضوع القرآني المهمّ، ولعلنا نعرضه في مباحث، حتى يكون سياق الكلام مرتبًا.

المبحث الأول: معنى الإعراض، ووروده في القرآن:

الإعراض عن الشيء: بمعنى الصدّ عنه، يعني أن تولّيه عرضك (جانبك).

وحقيقته: الانصراف عن الشيء بالقلب.

---

[405] [الأنبياء:١]

وقد ورد ذكر الإعراض في القرآن في أكثر من خمسين موضعًا بهذه المادة (ع ر ض)، وجاء التعبير عنه بألفاظ أخرى تؤدي المعنى:

منها: **التولي**، كما في قوله: {فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}[٤٠٦]

ومنها **الصدود**: {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا}[٤٠٧] يعني: يعرضون.

ومنها **الأفوك**: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ}[٤٠٨]

ومنها **الإدبار**: {ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}[٤٠٩]

وقد كثر في القرآن الحديث عن هذه المعاني، وبيان حال المعرضين ومآلهم، وهذا جدير بأن يُبحث في دراسة مستقلة.

المبحث الثاني: صور الإعراض:

* **الصورة الأولى**: **الإعراض عن آيات الله** سواءً الآيات الشرعية، أو الآيات الكونية، قال الله -جل وعلا-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}[٤١٠] أي: أعرض عنها بالصدود وعدم القبول.

وقال -جل وعلا-: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا}[٤١١] الخطاب للرسول ﷺ، والذكر هنا بمعنى القرآن، فمَن أعرض عنه ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه؛ فإنه يأتي يوم القيامة يحمل إثمًا عظيمًا، ويستحق عقابًا أليمًا.

وقال -تعالى- عن القرآن أيضًا: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ}[٤١٢]

وقال -جل وعلا-: {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا}[٤١٣] يعني: يُدخله ربه عذابًا شاقًا لا يستطيع تحمله.

---

[٤٠٦] [النحل:٨٢]
[٤٠٧] [النساء:٦٢]
[٤٠٨] [الذاريات: ٩]
[٤٠٩] [المدثر:٢٣]
[٤١٠] [السجدة:٢٢]
[٤١١] [طه: ٩٩-١٠٠]
[٤١٢] [ص:٦٧-٦٨]
[٤١٣] [الجن:١٧]

وقد ذكر الإمام القرطبي -رحمه الله- أن هذه الآية تحتمل أمرين:

- أن تكون في الكفار، فتكون بمعنى القبول؛ {ومن يعرض عن ذكر ربه} أي: يُعرض عن قبوله.

- ويحتمل أن تكون في المسلمين، فتكون بمعنى العمل؛ {ومن يُعرض عن ذكر ربه} أي: يُعرض عن القرآن بترك العمل فيه.

وقال -جل وعلا-: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ}[414] والمراد بكونهم لا يعلمون الحق: أنهم لا يتطلبون علمه بسبب إعراضهم، يعني هم مُعرضون عن النظر في الأدلة التي جاء بها الرسول ﷺ، وهذا من آثار الإعراض، فهنا **فائدة**: أن من آثار الإعراض: حرمان العلم، لأن الله قال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ} أي: بسبب إعراضهم لا يعلمون.

وقد يكون الإعراض عن الآيات الكونية؛ ويكون بعدم التفكر والاعتبار، وقد جاء هذا في بعض الآيات منها قوله -تعالى-: {وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[415]

وقال -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}[416] فالإعراض هنا بمعنى الغفلة وعدم الاعتبار.

* **الصورة الثانية من صور الإعراض: الإعراض عن الامتثال**؛ فتَرِد عليه الأوامر والنواهي وهو يسمع ويفهم لكنه مُعرض غير مبالٍ، وهذه علامة سوءٍ؛ قال -جل وعلا-: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا

[414] [الأنبياء:٢٤]
[415] [يوسف:١٠٥]
[416] [الأنبياء:٣٠-٣٢]

اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ}[417]

وقال الله –عز وجل–: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ}[418]

* **ومن صور الإعراض: الإعراض عن الآخرة**؛ ويكون ذلك بالغفلة عنها، وعدم الاستعداد لها، قال –جل وعلا–: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}[419]

* **الصورة الرابعة: الإعراض عن الحكم بما أنزل الله**؛ قال الله –تعالى– في اليهود: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ}[420]،
وقال عنهم: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}[421]

وقال في المنافقين: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ}[422]

فهذه من علامات اليهود والمنافقين (الإعراض عن الحكم بما أنزل الله).

---

[417] [البقرة : ٨٣]
[418] [التوبة:٧٥-٧٦]
[419] [الأنبياء:١]
[420] [آل عمران:٢٣]
[421] [المائدة:٤٣]
[422] [النور:٤٧-٤٨]

***الصورة الخامسة: الإعراض عن المواعظ والتذكير**؛ وهذا مظهر من مظاهر الإعراض القبيح؛ أن يكون المرء إذا سمع الموعظة والتذكير في مجلسٍ أو مناسبة انقبض واشمأزّ، وكرِه هذا المجلس، وتمنّى الخلاص منه! وهذه علامة سوء وعلامة شر.

وقد أخبر الله –جل وعلا– عن المشركين قال: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[423]

وقد سبق معنا في المثل السابق تشبيه حال المشركين بقوله: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ}[424]

فالقلوب الحية تحب الذكرى والتذكرة والذكر، لكن هؤلاء بالعكس.

ومَن أعرض عن الله أعرض الله عنه، كما جاء في حديث أبي واقد الليثي –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ بيْنَما هو جَالِسٌ في المَسْجِدِ وَالنَّاسُ معهُ، إذْ أَقْبَلَ نَفَرٌ ثَلَاثَةٌ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فأمَّا أَحَدُهُما فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ اللهِ ﷺ قالَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فأوَى إلى اللهِ، فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا، فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وَأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ، فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه"[425]

المبحث الثالث: أسباب الإعراض:

١– من الأسباب: **تسلُّط الدنيا على القلب**: وقد مرّ معنا المثل المضروب في قوله –تعالى–: {واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}[426]

وسبق الكلام عليه وعلى حاله، وكيف آلَ أمره بسبب اللهث وراء حطام الدنيا والاغترار بمتاعها.

---

[423] [الزمر:٤٥]
[424] [المدثر:٤٩-٥١]
[425] متفق عليه
[426] [الأعراف:١٧٥]

وقال –جل وعلا–: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ...}[427]

٢– العناد والتعنُّت: وهذه خصلة ترسخت في نفوس كثير من المعرضين، تأمل قوله –تعالى–: {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}[428] آيات واضحة ومن الله لكنهم معرضون! {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ}[429]

٣– التقليد: وهذه آفة ومصيبة؛ تقليد الآباء، تقليد القبيلة، تقليد أهل البلد، تقليد الزعماء.. في الباطل، قال –تعالى–: {وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ* قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ}[430]

٤– الكبر؛ كما وقع لإبليس حينما أُمر أن يسجد لآدم، فتكبر وعصى وأعرض بسبب كبره: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}[431]

المبحث الرابع: أنواع الإعراض:

فالإعراض ليس على درجة واحدة، ويمكن أن نقول إنه نوعان:

الأول: إعراضٌ كلي، وهو الإعراض التام عن تعلُّم أصل الدين، مع قدرته على ذلك، أو يعرض إعراضًا تامًا عن جنس العمل، فلا يعمل مع قدرته أيضًا، وصاحب هذا النوع من الإعراض كافرٌ خارجٌ عن ملة الإسلام، هذا الإعراض الكلي التام (إعراضٌ عن الدين لا يتعلمه أو لا يعمل به تمامًا، فيترك جنس العمل).

[427] [فصلت:٥١]
[428] [الأنعام:٤]
[429] [الشعراء:٥]
[430] [الزخرف:٢٣-٢٤]
[431] [ص:٧٦]

النوع الثاني: **الإعراض الجزئي**: بمعنى أن يُعرض عن تعلُّم تفاصيل الدين، أو عن العمل ببعض شرائع الدين وواجباته، فصاحبُ هذا الإعراض ناقص الإيمان مع بقاء أصله، أي: لا يخرج بإعراضه عن أصل الإسلام.

وهذا النوع درجات بحسب نوع الإعراض وكثرته والشيء الذي أعرض عنه.

المبحث الخامس: عقوبة الإعراض:

وهذا أيضًا تكرّر ذكره في القرآن بصورٍ وأمثلة فشواهده كثيرة، لكن نخلص من هذه الشواهد إلى خلاصة وهي أن **الإعراض عن الله -تعالى- وعن شريعته سببٌ لنزول العذاب** (أنواع العذاب في الدنيا والآخرة).

وكلنا يعلم قصة قوم سبأ، كانوا في نعيم ورغد ورفاهية وسعة العيش لكن تحوَّل ذلك كله، وأبدل الله حالهم من النعمة إلى النقمة والسبب: إعراضهم، قال الله -تعالى- عنهم: {فَأَعْرَضُوا} فجاءت النتيجة: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}[٤٣٢]

وجاء التهديد المخيف لكفار مكة إن قابلوا الدعوة بالإعراض: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[٤٣٣]

ومن عقوبة الله -تعالى- للمعرضين أنه يُعرض عنهم ويكلهم إلى أنفسهم: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[٤٣٤]

وأما عذاب الآخرة فهو أشدُّ وأبقى؛ قال -تعالى-: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا}[٤٣٥]

[٤٣٢] [سبأ:١٦]
[٤٣٣] [فصلت:١٣]
[٤٣٤] [النساء:١١٥]
[٤٣٥] [طه:٩٩-١٠١]

وأهل الإعراض مُتَوَعَّدون بانتقام الله، ومَن يبارزُ اللهَ في جبروته وملكوته؟! قال الله -عزّ وجلّ-: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}[436]

ومن عقوبات الإعراض المُعجَّلة: ما يجده المعرضون في صدورهم من ضيق وضنكٍ يحوِّلُ عيشهم وحياتهم إلى مرارة وعناء ونكد، -وإن كانوا في الظاهر متنعّمين ويظهرون بمظاهر برّاقة- قال الله -تعالى-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ}[437]

قال الإمام ابن الجوزي -رحمه الله-: رأيت سبب الهموم والغموم الإعراض عن الله -عز وجل- والإقبال على الدنيا.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله -تعالى-، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، وإنَّ مَن أحبَّ شيئًا غير الله عُذِّبَ به، وسُجنَ قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسفُ بالًا، ولا أنكدُ عيشًا، ولا أتعبُ قلبًا.

المبحث السادس: ما يقابل الإعراض: والضدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ، وبضدّها تتميزُ الأشياءُ، فالذي يقابل الإعراض: الاستجابة والاتباع، وهذه الاستجابة هي صفة المؤمنين، قال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[438]

الحياة الحقيقية الطيبة هي -واللهِ- حياةُ مَن استجابَ لله وللرسول ظاهرًا وباطنًا، أصحاب الاستجابة والاتباع هؤلاء هم الأحياء حقيقة وإن ماتوا! وعلى قدرِ استجابتِك تكونُ الحياة، فالحياة مراتب، كلما زاد العبد استجابةً لله وامتثالًا لأوامره كلما زاده الله حياةً وهدايةً وتوفيقًا.

[436] [السجدة:٢٢]
[437] [طه:١٢٤]
[438] [الأنفال:٢٤]

ولعلنا نستمع إلى هذه المقارنة القرآنية بين طائفتين (المنافقين والمؤمنين)، يقول الله –جل وعلا– عن المنافقين: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا} لكن هذا باللسان فقط! {ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٤٣٩]

أما الصورة المثالية: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٤٤٠]

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[٤٤١]

كان أبو الدرداء –رضي الله عنه– (حكيم هذه الأمة) يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر! فأقول: لبيك يا رب! فيقول: ما عملت فيما علمت؟[٤٤٢]

لاحظ الخوف عند السلف من هذا الأمر، ونحن نقول كذلك؛ ونحاسب أنفسنا الآن ماذا عملنا فيما علمنا؟ المعلومات الآن كثيرة.. فما نصيب العمل من هذا العلم؟

كان الأوائل علمهم قليل لكن عملهم كثير، الآن كَثُر العلم وخُزِنَ العمل!

فالخلاصة: أنَّ مَن استجاب لله استجابَ اللهُ له، وأجاب دعاءه، كما قال –جل وعلا–: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ}[٤٤٣]، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي..}[٤٤٤] استجب لله وأبشر بالجزاء أن الله يجيبك ويجيب دعاءك.

---

[٤٣٩] [النور:٤٧-٥٠]
[٤٤٠] [النور:٥١]
[٤٤١] [النساء:٦٥]
[٤٤٢] رواه البيهقي وهو أثر صحيح
[٤٤٣] [آل عمران:١٩٥]
[٤٤٤] [البقرة :١٨٦]

ومن استجاب لله فله الجنة، ومن أعرض فله النار! {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[٤٤٥]

ولو أردنا فهناك شواهد وقصص كثيرة جدًا، ولكن يطول المقام عن ذكرها، من أمثلة عن السلف وعن الاستجابة وسرعة المبادرة، لما نزلت آية تحريم الخمر كيف استجابوا فورًا، ولما نزل الحجاب كيف استجابت المؤمنات، وغير ذلك من الشواهد والأخبار في السنة والسيرة التي تدلّ على هذا الأمر.

المهم أن نبدأ في مراجعة ومحاسبة أنفسنا من اليوم بأن ننظر لحالنا مع هذا الأمر، مع الاستجابة والمبادرة في مراضي الله واتباع أوامره للعمل والاهتداء بها، وأن نحرص غاية الحرص على أن نبتعد وننأى عن صفات المعرضين وحالهم –عياذًا بالله من ذلك–.

---

[٤٤٥] [الرعد:١٨]

❖ **الموضوع التاسع** من الموضوعات التي جاءت فيها الأمثال القرآنية –وهذا هو الموضوع الأخير في التقسيم الموضوعي لسياق الأمثال القرآنية كما ذكرنا في أوائل الدروس– وهو **أعمال الكفار**، وقد جاءت فيه ثلاثة أمثالٍ قرآنية:

أول هذه الأمثال الثلاثة وهو المَثَل التاسع والعشرون في ترتيب الأمثال التسلسلي من أولها؛ يقول الله –جل وعلا–: **{مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}**[446]

هذا مَثَل ضربه الله –جل وعلا– في أعمال الكفار، والكلام عليه في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

هذا المَثَل واردٌ في سورة إبراهيم، وفي هذه السورة لو رجعنا إلى الآيات قبل هذه الآية نجد أنَّ الله –تعالى– ذكرَ أنواعَ عذاب الكفار، فقال –سبحانه–: {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}[447]

فلما ذكر هذا العذاب وهذا الوعيد الشديد الشنيع قد يخطر ببال السامع أنّ هؤلاء كانت لهم أعمالٌ صالحة في حياتهم، كانوا يطعمون الفقراء، ويعتقون الرقاب، ويفكّون الأسرى، ويكرمون الضيف، ويصلون الرحم، وغير ذلك من الأعمال الطيبة، أعمال المعروف، فأين ذهبت؟ وأين جزاؤها؟

فجاءت هذه الآية وجاء هذا المَثَل ليبيّن –سبحانه وتعالى– أنّ أعمالهم بأسرها تصير ضائعةً باطلة، لا ينتفعون بشيءٍ منها، فيظهر حين ذلك كمال خسرانهم وشدة حسراتهم، لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد، وكلّ ما عملوه في الدنيا وجدوه أمامهم ضائعًا باطلًا، لأن الثواب مرتَّب على القبول، والقبول لا بدّ فيه من الإسلام، فهذا شرط، وهؤلاء انتفى عنهم، كما سيأتي –إن شاء الله– الكلام على ذلك.

فالشاهد أنهم يجدون ما عملوه ضائعًا باطلًا ذاهبًا، فما أعظم الحسرة! وما أشد الخسارة والندامة!

---

[446] [إبراهيم:١٨]
[447] [إبراهيم:١٥-١٧]

المبحث الثاني: معنى المَثَل:

هذا المَثَل ضربه الله لأعمال الكفار: {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} يعني: مَثَلُ ما يعمله الكفار -من أعمال البر في الدنيا كالصدقة والإحسان وغيره مما سبق- كَمَثَل رمادٍ اشتدّت به الرياح في يومٍ عاصف، اشتدّ هبوبها فيه، فحملته بقوة، وفرّقته في كلّ مكان، حتى لم يبقَ له أثر.

هكذا أعمال الكفار؛ عصفَ بها الكفر وأذهبها كما أذهبت الريحُ الرماد، فلم تنفعهم يوم القيامة، ذلك العمل الذي لم يؤسَّس على الإيمان {هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} عن طريق الحق.

وقوله -تعالى-: {لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ} يعني: لا يجد الكفار في الآخرة أيَّ ثوابٍ لأعمال البرّ التي عملوها في الدنيا، ولا يرون لها أيَّ منفعة، مثلما لا يُقدَر على جمع الرماد في اليوم العاصف.

وهذا المعنى كما قال -تعالى-: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}[٤٤٨]، وقال -سبحانه-: {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ}[٤٤٩]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثل به: هو الرماد الذي هبَّت عليه ريحٌ شديدة فحملته وفرَّقته شذَرَ مَذَر، حتى ذهب وتلاشى ولم يبقَ منه شيءٌ.

الممثَّل له: جزاء أعمال البرّ والخير التي كان يعملها الكفار في الدنيا.

وجه الشبه بينهما: الاضمحلال والتلاشي والبطلان والذهاب والزوال (كلها معانٍ متقاربة).

يعني كما أنّ الريح العاصفة تُطيرُ الرماد وتفرِّق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أيّ أثر ولا خبر، فكذلك الكفر ريحٌ هوجاء تهبُّ على العمل فتبطلُ أعمالهم وتُحبطها بحيث لا يبقى لهم من هذه الأعمال أثرٌ ولا خبر.

[٤٤٨] [الفرقان:٢٣]
[٤٤٩] [آل عمران:١١٧]

من لطائف هذا المَثَل:

ذكر بعض المفسرين أنَّ ضرب المَثَل لهم بالرماد فيه نكتة (فائدة): وهي أنَّ هناك تشابُهًا بين أعمالهم وبين الرماد، فكما أنّ الرماد وقود النار لاشتعالها، فكذلك أعمال الكفار التي هي على غير شرع الله تكونُ وقودًا وطعمةً للنار، وبها تُسَعَّرُ النارُ على أصحابها.

- ننتقل بعده إلى **المَثَل الثاني** في هذا الموضوع وهو المَثَل الثلاثون:

يقول الله –جل وعلا-: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**[٤٥٠]

هذا مَثَلٌ أيضًا ضربه الله –جل وعلا– لأعمال الكفار، والكلام عليه في ثلاثة مباحث أيضًا:

المبحث الأول: سياق المَثَل:

هذا المَثَل واردٌ في سورة النور، بعد أن بيَّنَ الله –تعالى– حالَ المؤمن وأنه في الدنيا يكون في النور، وبسببه يكون متمسكًا بالعمل الصالح، ثم بيَّن أنه في الآخرة يكون فائزًا بالنعيم المقيم: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٤٥١]

جاء المثل بعد ذلك، فبيَّن أنَّ أعمالَ الكافر تكون خسرانًا وبوارًا في الآخرة، من حيثُ رُجِيَ نفعُها، يعني أن الكافر كان يطمح ويتمنى أن يرى ثوابًا لهذا العمل، لكن تنقلب الأمور.

وأما في الدنيا فهو يعيش ويتخبط في أنواع الظلمات، فضرب الله –جل وعلا– لكلّ واحدٍ من هذين الحالين (حاله في الآخرة وحاله في الدنيا) مثلًا في آيتين متعاقبتين، وكلاهما في أعمال الكفار، وسيأتي الكلام على الفرق بينهما –بإذن الله–.

---

[٤٥٠] [النور:٣٩]
[٤٥١] [النور:٣٧-٣٨]

المبحث الثاني: معنى المَثَل:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} القيعة: جمع قاع، مثل جار وجِيرة، ويُجمع القاع أيضًا على قيعان، مثل جار وجيران أيضًا.

والقاع: الأرض المستوية المنبسطة المتسعة التي ليس فيها نبات، يذكّرنا هذا بقوله -تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[٤٥٢]

وهذا القاع (الأرض المستوية المنبسطة) فيه يكون السراب.

إذًا: في هذا المثَل يبيّن الله -جل وعلا- أنّ الذين كفروا بالله وكذّبوا رسله هؤلاء أعمالهم التي ظنّوها نافعةً لهم في الآخرة؛ كصلة الأرحام، وإكرام الضيف، وفك الأسارى، وغيرها، تُخيّبُ ظنَّهم وتتلاشى أمام ناظرهم، كسرابٍ يراه الناظر ماءًا زلالًا، فإذا أتاهُ لم يجد شيئًا.

والسراب معروف، وهو ما يُشاهَد كالماء، فتراه العين كالماء على الأرض المستوية في وقت الظهيرة، ويظنُّه العطشان ماءً حتى إذا جاءه لم يجد شيئًا.

هكذا الكافر يظنُّ أنَّ أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم يجد لها ثوابًا، ووجد الله -سبحانه- له بالمرصاد، فوفّاهُ جزاء عمله كاملًا.

وقوله: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ} الذي يقرأ يجد في الظاهر كأنّ الخبر عن الظمآن، لكن الواقع أنّ المراد أنه خبرٌ عن الكافر، والمقصود به الكافر.

{وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}: يعني لا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعيد فإنه لابد من إتيانه.

وقد جاء في السنة ما يدل على أنّ صورة هذا المثل تكون حقيقة يوم القيامة، فقد ثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة أنه: "يُدعى اليهودُ يوم القيامة فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرَ ابن الله،

---

[٤٥٢] [طه:١٠٥-١٠٧]

فيُقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيُشارُ إليهم ألا تَرِدون؟ فيُحشرون إلى النار كأنها سرابٌ، يحطمُ بعضها بعضًا، يرونها كأنها سراب، فيذهبون فيتساقطون في النار، ثم يُدعى النصارى، فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيُقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، ثم يقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيُشار إليهم ألا تَرِدون؟ فيُحشرون إلى جهنم كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضًا فيتساقطون في النار".

فالكفار يأتون جهنم وهم عطاش فيحسبونها ماءً، فيتساقطون فيها، يرونها كالسراب، فيا خيبةَ المسعى! ويا خسارة المنتهى! كدحٌ ونصبٌ في الدنيا، ثم تكون العاقبة سرابٌ زائل. نسأل الله العافية.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثل به: ظمآنٌ يسيرُ في أرضٍ واسعةٍ منبسطة، أصابه شدة العطش، فيُبصرُ من بعيد ما يتراءى له أنه ماءٌ عذبٌ زلال، يراه بعينه، فيُسرع ليظفر بهذا الذي يتمناه، فإذا وصل لم يجد شيئًا ويتبين أنه مجرد سراب خادع.

الممثَّل له: الكافر الذي يعمل أعمالًا يؤمِّل أجرها وذخرها في الآخرة، فإذا قام الحساب والجزاء وتطلَّعت نفسُه يبحث عن الأجور ويريد الثواب؛ لم يجد شيئًا مما أجهدَ نفسَه به، فتعظُم حسرته وخسارته.

وجه الشبه بينهما: التطلُّع إلى أمرٍ تكونُ الحاجة إليه أشدَّ ما تكون فتتعلق النفس به وتؤمِّل حصوله وقربه كما تظن، فإذا حقَّ الأمر لم يجد شيئًا، فخاب ظنّه واشتدّت حسرته، وضلَّ سعيه.

هكذا عمل الكافر، سرابٌ يتراءى له، فالكافر ظمآن يحتاج إلى ثمرة العمل وثوابه، فإذا مات وفارق الدنيا أدرك الحقيقة لكن بعد فوات الأوان، فخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه إلى السراب.

المثل الثالث في هذا الموضوع (**أعمال الكفار**) وهو الآية التي بعد هذه في سورة النور يقول الله –جل وعلا– فيضرب المثل عطفًا على السابق: **{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}**[٤٥٣]

هذا مَثَلٌ أيضًا ضربه الله –جل وعلا– لأعمال الكفار، والكلام عليه أيضًا في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: سياق المثل:

هذا المثل –كما قلنا– جاء عقب المثل السابق مباشرة، فالكلام في سياقه يُقال فيه ما قيل في الآية السابقة.

لكن السؤال عن هذين المَثَلين المتعاقبين –وكلاهما في أعمال الكفار–: **هل ثمّة فرقٌ بينهما؟** يعني هما مَثَلان متعاقبان متتاليان في موضوع واحد، فهل بينهما فرق؟

في الحقيقة تكلَّم أهل العلم والمفسرون عن هذه المسألة، ولهم في ذلك عدة آراء، من أبرزها رأيان:

الأول: أنَّ المثَل الأول: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ..}[٤٥٤] هذا مضروبٌ لمآل أعمال الكفار في الآخرة، والمَثَل الثاني: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ..}[٤٥٥] مضروبٌ لأعمالهم في الدنيا، وأنها في غاية الضلال والعمى، كحال الظلمات.

بناءً على هذا الرأي يكون المثَلان مضروبين لأعمال الكفار في الحالِ والمآل، الأول في المآل، والثاني في الحال، فتؤول أعمالهم إلى كونها سرابًا، وهي في حالها ظلمات وتخبُّط.

الرأي الثاني: أنَّ المثَل الأول لأعمالهم الحسنة، والمثَل الثاني لأعمالهم القبيحة والسيئة، لأن الكافر يعمل أعمالًا سيئة –وهذا الغالب–، وله أيضًا أعمالٌ حسنة (أعمال برّ ومعروف)؛ فيكون المثَل الأول في الأعمال الحسنة، والثاني في الأعمال السيئة.

---

[٤٥٣] [النور:٤٠]
[٤٥٤] [النور:٣٩]
[٤٥٥] [النور:٤٠]

المبحث الثاني: معنى المَثَل:

هذا المَثَل ضربه الله لأعمال الكفار أيضًا -كما ذكرنا- وأنها: {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} أي: عميق.

ومعنى كون الظلمات في البحر: أن الظلمات لشدتها وسوادها ينطبع سوادها على ماء البحر، فتصير كأنها في البحر، فهذا معنًى تمثيلي، وهذا يذكّرنا بقوله -تعالى- في مثل سابق: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ}[456] كذلك.

إذًا: هذه الظلمات في بحرٍ عميق، وهذا البحرُ يعلوه موجٌ، ومن فوق ذلك الموج موجٌ آخر، ومن فوق الأمواج سحابٌ يحجب ضوء النجوم والقمر، فهذه إذًا ظلمات شديدة متراكمٌ بعضها فوق بعض؛ ظلمة البحر العميق، وظلمة الأمواج التي بعضها فوق بعض، وظلمة السحاب.

وبلغت شدة ظلمة هذه الظلمات أن المرء إذا أخرج يده لم يكدْ يُبصرها من شدة الظلمة.

هكذا حال الكافر، قد تراكمت عليه الظلمات: ظلمة الشرك، والجهل، والشك، والحيرة، والضلال، والطبع على قلبه، ظلماتٌ متراكبة ومتراكمة.

وعن أُبي بن كعب -رضي الله عنه- في قوله -تعالى-: {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}[457] أنه قال عن الكافر: "هو يتقلب في خمسةٍ من الظُّلَم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار".

{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} يعني: مَن لم يرزقه الله هدًى من الضلالة، وعلمًا بكتابه وسنة نبيه ﷺ فما له هدًى يهتدي به، كما قال -جل وعلا-: {مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ}[458]

وهذا في مقابلةِ ما قال في مَثَل المؤمنين، حيث ضربَ المَثَل للمؤمن ثم قال: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ}[459]

كل هذا في سورة النور، ضربَ الله فيها مَثَلًا للمؤمن بالنور، ثم ضربَ مَثَلًا للكافر بالظلمات، وبِضدِّها تتبيّن الأشياءُ.

[456] [البقرة:١٩]
[457] [النور:٤٠]
[458] [الأعراف:١٨٦]
[459] [النور:٣٥]

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الممثَّل به والممثَّل له:

الممثل به: ظلماتٌ متراكمة متراكبة، ظلمةُ بحرٍ عميق، وظلمةُ أمواج متلاطمة، وظلمةُ سحابٍ يحجب ما فوقه من ضوء.

الممثَّل له: حال الكافر وما يجتمع فيه من الشرك والكفر والشك والحيرة والضلال والطبع، وغير ذلك، ظلماتٌ متراكمة ومتراكبة أيضًا.

وجه الشبه: شدةُ الظُّلمة وتراكُبُها، في الجانبين الحسّيّ والمعنويّ، لأن الممثَّل به أمر حسّي، والممثَّل له أمرٌ معنويّ، يعني هذا المَثَل فيه تشبيه المعقول بالمحسوس.

وذكر بعض المفسرين أنّ اللهَ -تعالى- ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وقال: فكذلك الكافر، يتقلب في ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل.

فهو اعتقاده في ظلمة، وقوله ظلمة، وعمله ظلمة، قلوبٌ مظلمة، وأرواحٌ ظامئة، ونفوسٌ تائهة، تهيمُ في بحارِ الظلمات من الأهواء والشبهات والشهوات.

فهنا يجدر بنا أن نرفع أكفّنا إلى ربنا ضارعين داعين بالدعاء المأثور عن النبي ﷺ أنه كان يقول: "اللهم اجعل في قلبي نورًا ، وفي سمعي نورًا ، وفي بصري نورًا ، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا" وهذا الدعاء ثابت في الصحيحين.

بعض الهدايات والوقفات المتعلقة بهذا الموضوع وبتلك الأمثال الثلاثة السابقة:

الوقفة الأولى: حكم أعمال الكافر:

لا تصحُّ عبادة الكافر ولا تُقبل منه، لقوله -تعالى-: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ}[٤٦٠] ، وأما ما يعمله الكافر من أعمال الخير والبرّ فإنه يُثاب عليها في الدنيا، وليس له في الآخرة من

[٤٦٠] [التوبة:٥٤]

نصيب، كما قال –جل وعلا–: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا}[٤٦١]، وكما سبق معنا في الآيات السابقة.

وجاء في الحديث عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعَمُ بحسناتِ ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها"[٤٦٢]

وفي الحديث عن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قلت يا رسول الله، ابنُ جذعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ فقال ﷺ: "لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[٤٦٣]

وذكر الإمام النووي –رحمه الله– أن الكافر إذا فعل مثل هذه الحسنات (صلة الرحم وإطعام الفقراء والمساكين ونحو ذلك)، ثم أسلم؛ فإنه يُثاب عليها في الآخرة، على المذهب الصحيح.

إذًا: الكافر إذا عمل أعمالًا صالحةً حالَ كفره فله حالان:

الحال الأولى: أن يموت على كفره فهذه الأعمال لا تنفعه في الآخرة.

والحال الثانية: أن يُسلم ثم يموت مسلمًا، فيثاب عليها في الآخرة كما قرره الإمام النووي.

الوقفة الثانية: العمل الصالح:

فحينما نتكلم عن عمل الكافر؛ يحسن أن نتكلم عمّا يقابله وهو العمل الصالح (عمل المؤمن)، فما هو العمل الصالح؟ هذا الذي نريد أن نتحدث عنه علمًا ثم نطبقه عملًا.

العمل الصالح: هو كل ما يحبه الله –جل وعلا– من قولٍ وفعل، ويدخل في ذلك عمل الجوارح –ومنها جارحة اللسان– أي: القول، وعمل القلب، فأفراد العمل الصالح لا تكاد تحصر، وهو مراتب ودرجات.

---

[٤٦١] [الفرقان:٢٣]
[٤٦٢] رواه مسلم
[٤٦٣] رواه مسلم

والعمل الصالح قرين الإيمان في كتاب الله، فلا نكاد نحصي كم مرة تكرر فيه: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات}.

والإيمان قولٌ وعملٌ واعتقاد، فالعمل من مُسمَّى الإيمان، وأما قول الله: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} فهذا فيه عطف العمل على الإيمان -مع أنه منه- من باب عطف الخاص على العام، وهذا أسلوب لغوي معروف، كما قال -جل وعلا-: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ}[٤٦٤]، فالصلاة الوسطى من الصلوات الخمس، لكن عطفها على الصلوات من باب عطف الخاص على العام.

وكما في قوله -تعالى-: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}[٤٦٥]، فجبريل وميكال هما من الملائكة، وعطفهما عليهم من باب عطف الخاص على العام.

والعمل الصالح عظيمٌ عند الله، فهو يحبه ويرفعه، كما قال -جل وعلا-: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[٤٦٦]، وهذا كنايةٌ عن القبول، فالله يقبل من المؤمنين أقوالهم الطيبة وأعمالهم الصالحة، ولكن لابد في العمل حتى يكون صالحًا مقبولًا من **شرطين**: **الأول**: الإخلاص؛ بأن يكون الباعث على العمل ابتغاء وجه الله، لا رياء الناس ولا إرادة شيء من الدنيا، **والشرط الثاني**: المتابعة لرسول الله ﷺ؛

قال -سبحانه-: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[٤٦٧]

فاجتهد -أيها المسلم- في عمل الصالحات فأنت في وقت الزرع والبذر، ولاحظ الخطابات القرآنية الربانية ماذا تقول: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}[٤٦٨]، {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[٤٦٩]، {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}[٤٧٠]

سارعوا... سابقوا... استبقوا... كلها نداءات ربانية لنا نحن العبيد الفقراء أن نعيَ الخطاب وأن نكون من أولي الألباب.

---

٤٦٤ [البقرة:٢٣٨]
٤٦٥ [البقرة:٩٨]
٤٦٦ [فاطر:١٠]
٤٦٧ [الكهف:١١٠]
٤٦٨ [آل عمران:١٣٣]
٤٦٩ [الحديد:٢١]
٤٧٠ [البقرة:١٤٨]

اغتنم في الفراغِ فضلَ ركوعٍ   فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقمٍ.. ذهبتْ نفسه الصحيحة فلتة

بادِر قبل أن تأتيك القواطع والعوارض والموانع، قال النبي ﷺ لرجلٍ وهو يعظه: "اغتنم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".

الوقفة الثالثة: ثمرات العمل الصالح:

ثمرات العمل الصالح يانعةٌ عظيمة، لا تقتصر على الآخرة فحسب -كما يظن بعض الناس-، وإنما تشمل الدنيا والآخرة، كما في الحديث الذي مرَّ معنا قوله ﷺ: "إنَّ الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة"[٤٧١]

فدعونا نتذاكر هذه الثمرات الطيبات المباركات اليانعات؛ لأجل أن تكون حافزًا ودافعًا لنا في الاستكثار من هذه الأعمال الصالحات، إذ لابد أن نتذاكر مثل هذه الموضوعات وأن يوصيَ بعضنا بعضًا، وأن نطرح مثل هذا الموضوع بين الفينة والأخرى -حتى وإن كان معروفًا-، لأن النفس تضعف، والإنسان بطبيعته يفتر ويصيبه ما يصيبه من الكسل والتأثر بما حوله من القرناء، ومن متاع الدنيا وزخرفها وفتنتها، فيحتاج أن يأخذ وقودًا، يزيد في إيمانه وفي دفعه إلى العمل الصالح.

إذًا: ثمرات العمل الصالح يانعةٌ عظيمة تشمل الدنيا والآخرة، ومنها:

أولًا: حصول الحياة الطيبة: وهذا مطلب كل واحد، وأعظم نعيم في الدنيا طيب العيش وهناؤه والراحة، فهذه لا تقدر بثمن، وإذا كنت تريدها فاستمع إلى قوله -تعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٤٧٢]

فمن كان يشتكي من الهموم والغموم أو أرّقه القلق وضيق الصدر فدونك الترياق المُجرَّب لطيب الحياة وهنائها: العمل الصالح.

---

[٤٧١] رواه مسلم
[٤٧٢] [النحل: ٩٧]

ثانيًا: الجزاء الحسن وتكفير السيئات: قال –جل وعلا–: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٤٧٣]

الثمرة الثالثة: حصول الهداية: قال –سبحانه–: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ}[٤٧٤]

الثمرة الرابعة: نيل محبة الله ﷻ: ويا لَهُ من شرفٍ! أن يحبك الله؛ قال الله –جل وعلا– في الحديث القدسي: "وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ"[٤٧٥] يعني أنه يكون مسددًا من الله.

الثمرة الخامسة: محبة الخلق: والقلوب لا يملكها، إلا الله فيقذف الله في قلوب الناس محبة من يعمل صالحًا وهذا أمر مُشاهد معروف، وشاهده قوله –جل وعلا– من القرآن: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}[٤٧٦]

قال ابن عباس في هذه الآية: "محبةً في الناس في الدنيا"، وقال مجاهد: "يُحِبُّهم ويحبّبهم إلى خلقه".

الثمرة السادسة: صلاح أحوال العبد: فالأحوال والأمور تستقيم لمن يعمل صالحًا؛ كما قال –جل وعلا–: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[٤٧٧]

يعني أصلح دينهم ودنياهم، أصلح قلوبهم وأعمالهم، أصلح جميع أحوالهم في الدنيا والآخرة.

[٤٧٣] [العنكبوت : ٧]
[٤٧٤] [يونس : ٩]
[٤٧٥] صحيح البخاري
[٤٧٦] [مريم : ٩٦]
[٤٧٧] [محمد : ٢]

الثمرة السابعة: العمل الصالح يدخلك في زمرة الصالحين: وهذا –واللهِ– شرف وفضل، قال –جل وعلا–: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}[478]

ودخول العبد في الصالحين هذا وسام لا يقدر بثمن ولا يوازيه شيء، البشرى له لأنه يكون في ولاية الله، كما قال ﷻ: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}[479]، وكذلك يكون من خير الناس: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}[480] يعني كون العبد من الصالحين، هذا اصطفاء واجتباء من الله –تعالى– وهو حقيقٌ أن يكون طموحًا وهدفًا ومطلبًا لكل مسلم، ألم تقرأ قوله –تعالى– عن نبيه يونس حين قال: {فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[481]

الثمرة الثامنة: حفظ أهل العامل وذريته: والإنسان بطبيعته فيه غريزة أن يحب أولاده ويتمنى الخير لهم، وهذا من بركات العمل الصالح أنه لا يقتصر على صاحبه فحسب، بل يتعداه إلى ذريته، ولعلكم تستحضرون قوله –جل وعلا– عن الغلامين اليتيمين في سورة الكهف: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}[482]

فقد حُفِظ كنز اليتيمين بسبب صلاح أبيهما –وإن لم يُذكرا بصلاحٍ– فالآية لم تذكرهما بصلاح، لكن ذكرت صلاح الأب.

وقيل –والله أعلم– أنه كان بينهما وبين هذا الأب سبعة آباء، أي كان جدهم السابع، وهذا فيه دليل على أن الله يحفظ العبد الصالح في نفسه وفي ولده.

قال ابن المنكدر –رحمه الله–: "إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته، وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم"

[478] [العنكبوت : ٩]
[479] [الأعراف : ١٩٦]
[480] [البينة : ٧]
[481] [القلم : ٥٠]
[482] [الكهف : ٨٢]

الثمرة التاسعة: إجابة الدعاء: قال –تعالى-: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ}[٤٨٣] يعني إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا.

الثمرة العاشرة: تفريج الكربات: كما قال ﷺ: "تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"

وكما نعلم من قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار فنجاهم الله من ذلك الكرب والشدة بأعمالهم الصالحة التي توسلوا إلى الله بها ففرج الله عنهم.

وكذلك في قصة يونس –عليه السلام- فرج الله عنه وقد ابتلعه الحوت بعمله الصالح، كان يقول: {لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ}[٤٨٤] وهذا ليس خاصًّا به؛ لأن الله قال بعدها: {وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}

فهذه عشر ثمرات للعمل الصالح ولو استطردنا لوجدنا أكثر من ذلك.

الوقفة الرابعة: تنبيهات مهمات حول موضوع العمل الصالح:

الأولى: أنه ينبغي سياسة النفس في العمل الصالح، فتؤخذ الأمور بالتدرج والرفق، مع الحزم والعزم، فلا بد من الموازنة، لا بدّ من مجاهدة النفس لكن برفق وتدرج، فلا يشدد المرء على نفسه حتى تملّ وتنفر، وفي المقابل لا يطلق لها العنان بالكسل والتسويف.

الثانية أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم المواسم الفاضلة، فالمواسم ليست على درجة واحدة في العمل الصالح، بل بعض الأزمان وبعض الأماكن يتأكد فيها العمل الصالح مثل: رمضان، وعشر ذي الحجة... فيكون فيها زيادة عناية واجتهاد في أنواع العمل الصالح، والنفس تكون مقبلة وأيضًا هذا من المواضع؛ فإذا وجدت من نفسك إقبالًا فاغتنمها فهذا من حسن سياستها

إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها   فإن العاصفاتِ لها سكونُ

---

[٤٨٣] [الشورى : ٢٦]
[٤٨٤] [الأنبياء : ٨٧-٨٨]

ومن سياسة النفس في العمل الصالح أن تحرص على **القليل الدائم**، فهو أفضل من الكثير المنقطع وهذا ثابت في السنة؛ حيث سُئِلَ النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ فقال: "أدومها وإن قل"[485] وكان النبي ﷺ إذا عمِلَ عملًا أثبته[486].

فابدأ بالقليل، والمهم أن تواظب ولا تفرط ولا تسمح لنفسك أبدًا في الإخلال بهذا العمل، سواء في عمل الصلاة أو قراءة القرآن أو الصدقة أو الصيام أو غير ذلك من وجوه الإحسان والبر، يعني: يُبدأ بالقليل حتى تتروض النفس وتألف وتتعود عليه ويسهل عليها، ثم بعد ذلك يزيد المرء ويترقى في مدارج الكمال.

العمل الصالح كثير، والعمر قصير؛ لذلك نقول: **احرص على المسابقة والمسارعة إلى الأفضل**، فالأعمال الصالحة متفاوتة في درجاتها ومراتبها، فاحرص على الأفضل؛ فمثلًا العمل المتعدي الذي يبقى أثره أفضل فتحرص عليه، فإذا ورد عليك عملان توازن وتختار أكثرهما أجرًا وأنفعهما، وهذا بابٌ نفيس من أبواب العلم وهو: **الفقه في فضائل الأعمال ومراتبها**.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: "السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات" فمن تراه مسابقًا في أعمال الخير والأعمال الصالحة في الدنيا، هم في الآخرة السابقون إلى الجنات الذين يسبقون غيرهم.

أيضًا مما يقال: **التوجه إلى ما يناسب المرء**؛ وهذا من سياسة النفس في العمل الصالح: أن يتوجه المرء إلى ما يناسبه، فالناس تختلف طبائعهم وقدراتهم وتوجهاتهم، فانظر ما يناسبك وما تجد فيه صلاح قلبك -وهذا من حسن سياسة النفس- فميول النفوس متفاوتة حتى في العبادات، إذ من الناس من فُتِح له باب الصلاة، إذا صفَّ قدميه واستقبل القبلة ودخل في الصلاة فقد دخل في جنّة، ومن الناس من فُتِح له في باب الذكر وقراءة القرآن؛ يجد في ذلك أُنسه وراحته واجتماع قلبه، ومن الناس من فُتِح له في الصوم، ومن الناس من فُتِح له في العلم، ومن الناس من فُتِح له في الجهاد، ومن الناس من فُتِح له في باب الاحتساب والأمر بالمعروف والنهي

[485] صحيح البخاري ومسلم
[486] كما في صحيح مسلم

عن المنكر، ومنهم من فُتِح له في باب الإحسان فتراه في أبواب مساعدة الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات والشفاعات وما إلى ذلك... فهذه كلها أعمال صالحة وأبواب من أبواب الخير.

فانظر ما يناسبك وما تجد فيه راحتك وصلاح قلبك، فاجتهد فيه، ولهذا يُذكر عن عبدالله بن مسعود ﷺ أنه كان يُقِلّ الصيام فقيل له في ذلك فقال: "إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة والصلاة أحب إلي من الصيام".

أيضًا من سياسة النفس في العمل الصالح أن من أعظم ما يعين على المسارعة والحرص على العمل الصالح: **تذكر قصر العمر** وأن الرحيل قريب، وهو غيب لا يدرى عنه، فلا ندري كم بقي لنا، أهي سنوات؟ أم شهور؟ أم أسابيع؟ أم أيام؟ أم ساعات؟ أم دقائق؟ الله أعلم، وإذا كان الأمر بهذه المثابة فالعاقل من يغتنم ويزرع ما دام في وقت الزرع حتى يحصد في وقت الحصاد: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٤٨٧]

والعمل الصالح أعظم أماني الميت؛ {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا}[٤٨٨] فاغتنم الآن، واعمل صالحًا ما دمت تقدر.

ولهذا يُذكر عن بعض السلف أنه كان يعني شديدًا مع نفسه في هذا العمل الصالح ويملأ أوقاته ويعمر ساعاته بالأعمال الصالحة، ومنهم حماد بن سلمة -رحمه الله- وهو من العبّاد حتى قالوا لو قيل له: إنك تموت غدًا؛ ما قدر أن يزيد في العمل الصالح شيئًا.

فما لك يوم الحشر شيءٌ سوى الذي تزودته قبل الممات إلى الحشرِ

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدًا ندمت على التفريط في زمن البدرِ

وأيضًا من المعالم في هذا أن **التساهل في الأعمال الصالحة مظهر من مظاهر ضعف الإيمان**، وقسوة القلب، والغفلة عن الآخرة؛ فحينما يمر علينا موسمٌ من المواسم الفاضلة فالناس يتباينون؛ منهم من يشمر ويجتهد في العمل الصالح، ومنهم من يفرّط ويغلب عليه الكسل، ومنهم بين ذلك.

---

[٤٨٧] [البقرة : ٢٨١]
[٤٨٨] [المؤمنون : ٩٩-١٠٠]

فلنبادر ولنسارع ما دام في العمر بقية، ثم نتذكر أن **العمل الصالح هو الصاحب في القبر**، والقبر مكان موحش ضيق مظلم، يحتاج الإنسان فيه إلى أنيس وجليس ومن هو؟ صاحبك هو عملك.

يتخلى عنك أقرب الناس إليك: ولدك ووالدك ومن هو أقرب الناس وأحبهم إليك، يذهبون ويغادرون، وإنما يأتيك عملك، فإذا كان عملك صالحًا يأتيك على صورة رجلٍ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة يأتيك بهذه الصورة ويقول: "أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد" يا لها من بشارة!

وإن كان العمل سيئًا فيأتي في القبر لصاحبه على صورة رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، ويقول له: "أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد"

فنحن أشد ما نكون حاجة في هذا الزمن للعمل الصالح تكثيره وتنويعه والمداومة والمواظبة عليه لحاجتنا إلى ذلك ولكثرة الفتن؛ **ففي العمل الصالح منجاة من الفتن، وثبات في المحن**، فحينما ينشغل الناس في أوقات الفتن بمتابعة الأخبار والتحليلات، وتقليب القنوات، فعليك بالعبادة والعمل الصالح، قال ﷺ: "عبادة في الهرج كهجرة إليّ"[489]

ولئن كانت العجلة مذمومة، والتؤدة والتأني محمودًا؛ فهي هنا ليست كذلك، بل هنا العكس كما قال ﷺ: "التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة"[490]

ولا تُرجِ فعل الخير يومًا إلى غدٍ لعل غدًا يأتي وأنت فقيدُ

نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لتدارك الأوقات واغتنام الساعات في الأعمال الصالحات وأعمال الخيرات، والاستعداد للوفاة قبل الموافاة.

ونحمد الله عز وجل أن هيأ لنا ويسر، وبهذا نكون قد انتهينا من هذه الدروس في سلسلة الأمثال القرآنية نسأل الله أن يتقبل منا، وأن ينفعنا بما سمعنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يزيدنا علمًا ينفعنا.

فإن كان فيها من صواب فمن الله وحده، وإن كان فيها من خطأٍ أو زللٍ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

[489] رواه مسلم
[490] رواه أبو داود بسند صحيح

فهرس